الطبعة 2

رواسخ
RAWASEKH
دراسات . نشر . توزيع



الإلحاد يَهزم نفسَهُ

عندما تكون حُجج الإلحاد دلائل الإيمان

تأليف
د. سامي عامري

الإلحاد يَهزم نفسَهُ

عندما تكون حُججُ الإلحاد دلائلَ الإيمان

الإلحاد يهزِم نفسَه

د. سامي عامري

رواسـخ 2024

176 ص ؛ 23.5 سم.

الترقيم الدولي: 6 - 20 - 797 - 9921 - 978

الطبعة الثانية

1446 هـ - 2024 م

RAWASEKH
رواسخ
دراسات • نـشـر • تـوزيـع

الكويـت - شـرق - شـارع أحمـد الجابـر - بـرج الجـاز

هاتـف: 22408787 00965 - 22408686 00965

00965 90963369

الإلحاد يَهزم نفسَهُ

عندما تكون حُججُ الإلحاد دلائلَ الإيمان

تأليف

د. سامي عامري

RAWASEKH
رواسخ
دراسات • نشر • توزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

RAWASEKH

رواسخ

دراسات • نشر • توزيع

- مركز غير ربحي مختص في معالجة القضايا الفكرية المعاصرة وفق أسس عقلية وعلمية منهجية.
- يسعى لإيجاد خطاب علمي مؤصل من خلال تأليف وترجمة الكتب والبحوث التأصيلية والحوارية.
- يُعنى بإقامة الدورات والندوات، وإنتاج المواد المرئية النوعية.
- يستهدف بخطابه المهتمين بالمعرفة من مختلف شرائح المجتمع.

الإهداء

إلى أبي نضال..

أسعَد الله قلبَه بالإيمان، ورزَقه صلاحَ الذريّة

المقدمة

﴿كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا﴾ [النور/ 39]

«ربّما لم يقل ج. ك. تشيسترتون[1]: «إنّ من لا يؤمن بالله، سيؤمن بأيّ شيء!»[2]، لكنّه بالتأكيد كان سيقول ذلك لو كان على دراية بالجنون الذي يروّج له العالمانيون [=الملاحدة] المعاصرون.»[3]

الفيلسوف إدوارد فيزر[4]

الحمدُ لله وحدَه، أنعَم، وأكرَم، والصلاةُ والسلام على من لا نبيَّ بعده، بلَّغ، فأرشَد..

هذه هي نهايةُ رحلتنا في دراسة الإلحاد ضِمن سلسلةِ «الإلحاد في الميزان» في الكتاب التاسع منها، عرْضًا لمقولات هذه النِحلة، ونقضًا لها، وبيانًا لدلائل الإيمان. وقد سلكنا في ذلك دروبًا مختلفة، وتتبّعنا فيها مسائلَ متفرقةً ودعاوى متجددة، وتعقّبنا أطروحاتِ أعلام ملاحدة الغرب من فلاسفةٍ وعلماءَ، وراجعنا أقوى ما بسطوا من آراء، بعد أن فكّكنا منظومتَهم المعرفيّةَ للوصول إلى مبادئها الأولى الفلسفيّةِ والإبستيمولوجية[5] والأكسيولوجيّة.[6]

---

(1) ج. ك. تشيسترتون G.K Chesterton (1291–1355هـ/ 1874–1936م): فيلسوفٌ وواعِظٌ إنجليزيٌّ شهيرٌ. اشتُهِرَ بكتاباته الدّفاعية عن الإيمان بالله.

(2) عبارة شهيرة تُنسب إلى تشيسترتون في نقد الملاحدة.

(3) Edward Feser, *The Last Superstition: A Refutation of the New Atheism* (St. Augustines Press, 2010), p.16.

(4) إدوارد فزر Edward Feser (1388هـ/ 1968م--): فيلسوفٌ توماويٌّ أمريكيٌّ. له اهتمامٌ خاصٌّ بالإلحاد الجديد، والفكر الأرسطيّ والتوماويّ، ومشكلة الوعي.

(5) الإبستيمولوجيّة: المتعلّقة بالمعرفة، خاصة مصادرها وشواهدها وحدودها.

(6) الأكسيولوجيّة: المتعلّقة بالقِيم، خاصة ما تعلّق بما وراء الأخلاق metaethics لمعرفة معايير «جيد» و«سيئ» و«صحيح» و«خاطئ» وأصولِها أنطولوجيًا.

وحُقَّ لنا في الختام أن نسألَ سؤالًا يبدو في الوهلة الأولى من ترَف العقول وسرَف الأقلام، وهو: «ما أعظمُ دليلٍ على فساد فكرةٍ ما؟». ووجْهُ الترَف الذي قد يبدو في هذا السؤال، هو أنّ سلسلةَ «الإلحاد في الميزان» قد توّجهت إلى رصد أبرز الدعاوى الإلحادية الكبرى، ونقدها؛ فما الحاجة إلى طلب المزيد؟! والحقُّ أنه ليس في هذا السؤال تعلُّقٌ بأذيال الثرثرة أو انتحاءٌ إلى حواشي المسائل؛ وإنّما هو سؤالٌ نختم به هذه السلسلةَ، بأن نسير مع الملحد إلى نهاية الطريق، حيث لا مدى أبعد من تلك النهاية، أو قُل: إنّنا نطرح هذا السؤالَ، تنزّلًا مع الملحد إلى أدنى درجات الحوار، حيث لا سبيل إلى النزول إلى درَكٍ آخَرَ تحت ذاك الدرَكِ. وهذا أمرٌ لك أن تحمله على طلب إنصاف المخالف، أو قد تحمله على الإمعان في النِّكاية في أطروحته.

والآن.. هل تراك تفكّر في جوابٍ أعظمَ من القول إنّ أبلغ طريق في إبطال دعوى ما وفكِّ لُحمَتها، هو أن تكون الأدلةُ على صدقها، هي نفسُها حجةً بيّنة على فسادها؛ بأن تنقلب من الإثبات إلى النفي، ومن الإعمار إلى الهدم؟! فطريقُ إثبات صدقها هو في حقيقته طريقُ ردّها، وداعي إحيائها هو الباعث إلى ردمها! أنا عن نفسي، لا أجد أشنعَ من أن تكون دلائلُ صدق الدعوى سابحة في مجرى فسادها. ولا أدري ما يقول غيري. ولا يُسعفني خيالي في تصوّرِ حالٍ أضعفَ من حالِ مَن ينتحرُ بأسبابِ حياته، ويصنعُ من الحبل الذي تعلّق به للرقيّ في السماء، مشنقتَه التي تُخمِد نبضَ وريدِه.

وهذا الوجهُ الجداليّ، بمواجهة الدعوى بِحُجَّتها، ونقض بنيانها بِعِيدانها، هو الذي يُطلَق عليه في علم المناظرة مصطلحُ «قلْب الأدلة»؛ أي ضرْبُ صاحب الدعوى بدليله الذي أقامه حُجةً لما يقول. وقد قيل في تعريف ذلك إنه «**قلْبُ الدليل على وجهٍ يكون ما ذكَره المستدلُ يدلُّ عليه لا له**».[1] وقوّةُ هذا الوجهِ في المناظرة أنه يُثبت أنّ فسادَ الدعوى لا يظهَر فقط في ضَعفِ ما تقيمه من دليلٍ لصحتها، أو عدم نهوض

(1) ابن النجّار الفتوحي، شرح الكوكب المنير، تحقيق: محمد الزحيلي ونزيه حماد، الرياض: مكتبة العبيكان، 1418هـ/ 1997م، 4/ 338.

الدليل ليبلغ مقامَ إثباتِ مطلب الدعوى، وإنّما قد بلغ حالُ وهَنِ ما طُرِح أنّ السهام التي في كِنانته حجّةٌ ضده، إذا رمى بها الخَصمَ؛ فلا بدّ أن ترتدَّ إلى نحره.

وقد سلك طائفةٌ من حُذّاق النظّار والمحقّقين في تراثنا هذا المسلكَ في مناظرة المخالفين، بعد أن ردّوا عليهم من أوجهٍ كثيرة، حتى لا يبقى لهم سبيلٌ للمماحكة والمِراء. ومن ذلك ما كتبه ابنُ تيميّة في ردّه على النصارى، بقوله: «ونحن -ولله الحمدُ والمنّة- نبيّن أن كلّ ما احتجّوا به من حجّةٍ سمعيّة من القرآن، أو من الكتب المتقدّمة على القرآن، أو عقليّةٍ، فلا حُجّة لهم في شيء منها، بل الكتبُ كلُّها مع القرآن والعقلِ حجّةٌ عليهم، لا لهم، بل عامةُ ما يحتجّون به من نصوص الأنبياء ومن المعقول فهو نفسُه حجةٌ عليهم، ويظهَر منه فسادُ قولهم مع ما يفسره من سائر النصوص النبوية، والموازينِ التي هي مقاييسُ عقليةٌ».[1] بل إنّ ابنَ تيميّة قد جعل ذلك أصلًا لعامة محاوراته مع مَن يخالفهم، حتّى قال -في ما نقله عنه تلميذُه ابنُ القيم-: «أنا ألتزمُ أنه لا يحتجّ مبطلٌ بآيةٍ أو حديث صحيح على باطله؛ **إلّا وفي ذلك الدليلِ ما يدلّ على نقض قوله**».[2]

وقلْبُ الأدلّة سبيلُ الأنبياء في محاورة المعاندين من أقوامهم ومناظرة المكابرين من خصومهم؛ ومن ذلك قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة/ 258]. فقد زعم النمرود أنه إلهٌ، مستحقٌّ للعبادة؛ فحاجّه إبراهيمُ -عليه السلام- بأنّ الربَّ الحقّ يملك الإحياءَ والإماتة؛ فأجابه

(1) ابن تيمية، الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح، تحقيق عبد الله الكلاعي (جدّة: مركز تأصيل، 1441هـ/ 2019م)، 2/ 31.

(2) ابن القيم، حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، تحقيق: زائد بن أحمد النشيري (الرياض: دار عطاءات العلم، 1440هـ/ 2019م)، 2/ 518.

النمرودُ بأنه يملك ذلك؛ فمَن قتله فهو مميتٌ له، ومن عفا عنه فقد أحياه! فقلَب عليه إبراهيمُ -عليه السلام- حجّتَه، وبيّن أنّ الربَّ الذي يملك الإحياءَ والإماتة، يملك كلَّ صفةٍ من صفات الربوبية، ومنها تحريكُ الأفلاك كيفما شاء، ولذلك فعلى النمرودِ أن يُخرج الشمسَ من المغرب على خلاف سُنَّة جريان الفَلك؛ فانقطع النمرودُ!

وقلْبُ الأدلّة يصحّ بقلْب الدليلِ الصحيح على المخالف، وقلْبِه أيضًا عليه وإنْ لم يصحّ عند المعترِض إنْ كان مخالفُه يراه صحيحًا. ويُسمّى الطريقُ الأوّل، طريقَ **الحجّة البرهانية**، وهي الحجّةُ القائمة على مقدماتٍ يقينية، وتنتهي إلى نتائجَ يقينيةٍ، وتقوم على الاستدلال المباشر أو القياس الصحيح المنتِج لليقين. وأمّا الطريقُ الثاني فيُسمّى طريقَ **الحجّة الجدليّة**، وهي الحجّةُ القائمة على مقدماتٍ يسلِّمُ بها المخالفُ، وهي لذلك مُلزِمةٌ له وإنْ لم تكن مُلزمةً للمستدِل. ولا يملك المعترَضُ عليه الانفكاكَ من حُجيّة هذين الطريقين؛ فالأوّلُ صحيحٌ بذاته، والثاني حجّةٌ عليه لتسليمه بمقدماته.

ولن نتكلّفَ هنا حُججًا عاطفيّةً، ولا مقدّمات قاصرة عن الكفاية، نائية عن الغاية؛ وإنّما سنلتزم بما يلتزمه كلُّ الملاحدة أو عامتهم، مع إقرارنا أنّ المشكلةَ الكبرى في محاورة الملحدين في الشرق والغرب هي أنهم لا يسعَون إلى فهم الإلحاد؛ بإدراك لُبّه وما يتفنّن عنه من مَقُول عقدي وقيمي، وإنّما يقيمون نظرتَهم الكونيةَ على **التلفيق**. فهم يقبَلون مجموعَ ثقافة البيئة التي صنعها الإسلامُ في الشرق أو النصرانيةُ في الغرب، مع حذْفِ بعضِ ما يبغضونه أو لا يستسيغونه؛ ليكون الباقي مذهبَهم الكونيَّ! فالملحدُ الشرقي -مثلًا- يقبَل ثقافةَ المجتمع كلَّها، مع ردّ الإيمانِ بوجودِ إلهٍ، وملائكةٍ، ويومِ حسابٍ، وبعضِ الممنوعات، كالخمر أو الزنى. وهذا أُسُّ المشكلة؛ لأنه تلفيقٌ بليد.

إنّ الملحدَ الواعيَ بإلحاده **لا بدّ** أن يبدأ **من مكاشفةِ نفسِه بالمقدمات الكبرى** لرؤيته الكونية، في الوجود والمعرفة والقيم، وتبنّيها كما هي، دون حذفٍ أو فتق أو

رتق، ثم **يبني على تلك المقدّمات** مذهبه من جديد، بعيدًا عن رؤية بيئته المغموسةِ في المقولات الدينية الظاهرة والخفيّة السارية في لاوعي البيئة، والساريةِ في وريدها. وقد حاولتُ مرارًا، وفي أكثر من كتاب، أن آخذ بيد الملحد إلى حيث يجب أن ينصب وتد خيمته، في أرض العدميّة البلقع. وكرّرتُ -بلا غمغمة- أنّ الملحدَ الوحيد الواعيَ بإلحاده الصادقَ في التزامه، هو **الملحدُ المنتحر!** فإنّ الإلحادَ رؤيةٌ لا يمكن أن تُعاش؛ لمنافرتها الحدَّ الأدنى ممّا يحتاج إليه المرء ليتنّفس أجواءَ الكون دون اختناقٍ؛ فالانتحار في سيرة الملحد، قرين الفهم لما يجب أن يُؤمن به.. ولكنْ **يأبى الملاحدةُ إلا التلفيقَ**؛ بحذف بعضِ مسائلِ الغيب الديني، والإبقاءِ على عامةِ مقولاتِ ثقافة البيئة المشبَعةِ بالرؤية الدينية العتيقة.

والإلحادُ الذي أعنيه هنا، هو الذي عليه عامةُ الملاحدة في العالَمين العربيِّ والغربيِّ، وهو الإلحادُ القائم على **الطبيعانية** naturalism -من «الطبيعة» «nature»- والذي يتصدّر محاربةَ الإسلام في بلاد العرب والعجم، وقد عصفت به الخُيلاء وأبطره العُجب. ويُعرِّف الفيلسوفُ الملحد كاي نيلسون Kai Nielson جوهرَ الطبيعانية، بقوله: «تُنكر النزعةُ الطبيعانيّة وجودَ أيِّ **حقائقَ رُوحيةٍ أو خارقةٍ للطبيعة متعاليةٍ على العالم**، أو على الأقل ليس لدينا أيُّ أساسٍ جيد للاعتقاد بوجود مثل هذه الحقائق... إنها وجهةُ النظر القائلةُ إنّ كلَّ ما هو موجودٌ يتكوّن في النهاية من مكوناتٍ ماديّة».[1]

يبدأ تصوّرُ **الإلحادِ الطبيعاني** بالقول إنّ الوجودَ **مادةٌ وطاقة وحركة عشوائية... فقط، لا غير**. ومن هذه المقدمة تتفجّر تصوّراتٌ وجودية ومعرفية وقِيميّة لا انفصام عنها. هذه المقدمةُ تنتهي ضرورةً إلى العدمية بكل صورها.. فالإلحاد لا يعني حصرًا إلغاء الإيمان بالإله، كما هو التصوّرُ الإلحادي الساذَج، والمستفزُّ في سذاجته كلّ بصيرٍ، وإنّما ينجُم عنه وجوبًا إلغاءُ الإيمان بالإنسان نفسِه؛ **فالإلحادُ هو موت الإنسان**

(1) Cited in" Stewart Goetz and Charles Taliaferro, Naturalism (Grand Rapids: Eerdmans, 2008), 9.

ضرورةً؛ لأنه لا يعترف إلّا بالحيوان المسمى «الإنسان العاقل» «Homo sapiens»، وهو حيوانٌ بهيمي في صميميّته الجينيّة التي ترسم هويّته وتنحت وعيه، وهو أيضًا شيء مادي تحكمه جبريات الفيزياء والكيمياء وقيودها وأصفادها..

إنّ الإلحادَ مقولةٌ أولى في نفي الإله وطبيعة الكون المادي، تنجم عنها تِباعًا -إثرَ قَبولها- بقيّةُ المقولات اللازمة لهذه الرؤية. وهو ما عبّر عنه بلسان طلق ويليام بروفين William Provine [1] -مؤرخُ علوم البيولوجيا التطورية **الملحدُ**-، مبتدئًا بأصل هذه الرؤية، وهو إنكارُ وجود إلهٍ أو آلهة، بقوله: «للتطوّر الطبيعاني Naturalistic evolution عواقبُ واضحةٌ... 1) لا وجود لآلهةٍ تستحق الوجودَ، 2) لا وجود لحياةٍ بعد الموت، 3) لا وجود لأساسٍ نهائي للأخلاق، 4) لا وجود لمعنى نهائيٍّ للحياة، 5) لا وجود للإرادة الحرة للإنسان». [2]

وفي عين المعنى السالف قال الفيلسوفان ألكسندر روزنبرج Alexander Rosenberg [3] وتاملر سومرز Tamler Sommers [4] في تعريفهما الرؤية الطبيعانية، بدءًا من ضرورة إيمان الملحد بالداروينية، بقولهما: «جعلَت الداروينيةُ من الداروينيين **عدميين ميتافيزيقيين metaphysical nihilists ينكرون وجودَ أيٍّ معنى أو هدفٍ للكون ومحتوياته وتاريخه**. ولكنْ في تحويل الداروينيين إلى عدميين ميتافيزيقيين، كان ينبغي أن تجعلَهم خوارزميةُ المذيبات [5] **عدميين أخلاقيين أيضًا**». [6] ناعيَين على الملاحدة عدمَ التزامهم بالنتيجة الضرورية لمذهبهم، وهي أنّ الأخلاقَ وهْمٌ وخرافة.

---

(1) ويليام بروفين William Provine (1942-2015م): مؤرّخُ علومٍ أمريكيٌّ. من أهمّ الرُّموز المعادية لتيّار التّصميم الذكيّ.

(2) Cited in: Casey Luskin, "Darwin's Poisoned Tree: Atheistic Advocacy and the Constitutionality of Teaching Evolution in Public Schools" Trinity Law Review 21.1 (Fall, 2015), 166.

(3) ألكسندر روزنبرج (1946م-): أستاذُ فلسفةٍ في «Duke University». له اهتمامٌ خاصٌّ بفلسفة العلوم وفلسفة الاقتصاد.

(4) تاملر سومرز: فيلسوفٌ أمريكي متخصص في علم الأخلاقيات والإرادة الحرة. يُدرِّس في University of Houston.

(5) solvent algorithm : أيْ آلياتُ التطور الدارويني، وعلى رأسها الطفَراتُ العشوائية.

(6) Tamler Sommers and Alex Rosenberg, "Darwin's Nihilistic Idea: Evolution and the Meaninglessness of Life" *Biology and Philosophy* 18.5 (2003): 653.

ذاك هو الإلحاد، رؤية عدميّة، تنحَر الإنسان وتنتحرُ معه!

والبدءُ بقصة الخلْق الداروينية، هو الطريقُ الذي **أُفضِّلهُ عادةً** لرسم معالمِ الرؤية الكونيّة التي على الملحد الطبيعاني التزامُها؛ ذلك أنّ الملحدَ اليومَ لا يملك الانفكاكَ عن القول بالتطوّر البيولوجيّ العشوائي؛ لأنّ الخيارَ الوحيد الآخَرَ المتاح، هو الخلْقُ الديني الذي يتعارض ضرورةً مع الإلحاد. ولذلك صرّح الممثّل الأوّل لتيّار «الإلحاد الجديد»[1] ريتشارد داوكنز Richard Dawkins [2] أنّه «لم يكن يتخيّل أن يكون ملحدًا في أيّ وقت قبل عام 1859م عندما نُشر كتاب أصل الأنواع لداروين.»[3] كما اعترف الممثّل الثاني لهذا التيّار، كريستوفر هيتشنز Christopher Hitchens [4]، أنه قبل داروين، كان الموقف القائل إنّ النظام في الكون يشير إلى وجود مصمم «موقفًا منطقيًا وعقلانيًا في وقته.»[5]

والقولُ بالتطوّر العشوائي للإنسان وسلَفِه، له لوازمُ **ضروريةٌ قريبة**، لا سبيل لإنكارها؛ فهي واضحةٌ وقريبة دانية. وهو ما شرَحه دانيال دينيت Daniel Dennett [6]-أحدُ فُرسان الإلحاد الجديد- في قوله في الاحتفال بعيد الميلاد الثلاثين لكتابِ

(1) الإلحاد الجديد: تيّار فكري ظهر في بداية القرن العشرين، مع صدور كتاب « نهاية الإيمان: الدين والإرهاب ومستقبل العقلانيّة» (1426هـ/ 2004م) لسام هاريس، ثم كتاب «وهم الإله» (1427هـ/ 2006م) لداوكنز، و«فكّ التعويذة: الدين كظاهرة طبيعيّة» (1427هـ/ 2006م) لدانيال دينيت، و«الإله ليس كبيرًا» (1428هـ/ 2007م) لهيتشنز. وهو تيّار يتميّز بأربعة معالِم كبرى: تبنّي الفلسفة العِلمويّة، ومقارعة الدين على أساس الدعاوى الأخلاقيّة، والخطاب الإعلامي العنيف، واللغة الشعبية (غير النخبوية) المبسّطة. وهو يعيش انحسارًا اليوم في الغرب بعد مواجهته -بصورة واسعة- من الفلاسفة وعلماء الطبيعة المؤلّهة، وميل كثير من الملاحدة إلى خطاب إلحادي أقلّ عنفًا في لهجته، وأقدر على التعاطي المعرفي والعاطفي مع المؤلّهة.

(2) ريتشارد داوكنز (1360هـ/ 1941م-): عالم سلوك الحيوانات بريطانيّ. رأسُ تيّارِ «الإلحاد الجديد». ساهَمَتْ مؤلَّفاتُه في تشكيل أُصولِ هذا التيّار، خاصّةً كتابه «وَهْمُ الإله».

(3) Dawkins, *The Blind Watchmaker* (Penguin Books Limited, 2013), p. 5.

(4) كريستوفر هتشنز (1368-1432هـ/ 1949-2011م): كاتب وصحفيّ بريطانيّ-أمريكيّ واسع الشهرة بسبب كتاباته العنيفة ضدّ الأديان.

(5) Hitchens, *God Is Not Great* (Atlantic Books, 2011), p. 65.

(6) دانيال دينيت (1942م-): فيلسوفٌ أمريكيٌّ. من أعلام ما يُعرف بـ«الإلحاد الجديد». له اهتمامٌ خاصٌّ بفلسفة العقل وفلسفة الدّينِ.

«الجين الأناني» لداوكنز: «الأصوليُّ الداروينيDarwinian fundamentalist [1] هو ذاك الذي يُدرِك أنّك **إمّا** أن تتجنّب التطوّرَ الدارويني تمامًا، **أو** أن تقلِبَ الكونَ **التقليدي** رأسًا على **عقِبٍ**، وتقبَلَ أنّ العقلَ والمعنى والهدف لا تمثّل السببَ [في تشكيل رؤيتنا الكونيّة]، وإنّما هي آثارٌ حديثة إلى حدٍّ ما لطاحونةِ آلية الخوارزميات الداروينية. لقد حاول الكثيرون إيجادَ موقف وسَطٍ [لكنّ]... ذاك أمرٌ **غيرُ ممكن**».[2]

فمعرفةُ الإلحاد على صورته الحقيقية، دون تلفيقٍ أو تهجين أو تشذيب، مفتَتَح الأمر ورأسه، ثم يكون النظرُ في أدلّة الإلحاد؛ لمعرفة حقيقةِ ما تنتهي إليه هذه الرؤيةُ في فهم الوجود. وقد تركتُ هنا تفصيلَ الكلام في عددٍ من المسائل، واكتفيتُ بجوهر الكلام وبعضِ إقرارات الملاحدة أنفسِهم به. ومَن أراد أن يتوسّع في النظر؛ فلْيراجعْ -إنْ شاء- ما كتبتُه تفصيلًا في هذا الشأن في كتبي الأخرى، خاصةً «براهين وجود الله في النفس والعقل والعلم» و«العلموية» و«مشكلة الشر ووجود الإله» و«الإلحاد في مواجهة نفسه»[3]؛ وذلك لأنني أردتُ أن يكون هذا الكتابُ مختصرًا؛ ليُطوى الزمان سريعًا عند قراءته، ويسهُلَ حفظُ حججه واستحضارُها عند التعليم والدعوة والمناظرة؛ فإنّ الحجج إذا طالت وتشابكت، خَفِيت. كما اقتصرتُ على بيان المأزِق الأعظم للإلحاد؛ وهو أنّ الإلحادَ يفرِي نفسَه بدلائلِ صدقه المزعومة؛ وذلك بنبْش **البنية التحتية المعرفية** للإلحاد حتّى تظهرَ الأصولُ التي تبطله، وتشهد للإيمان، وتبصم له بكلّ بنان.

ومنهجُنا هنا، هو عينُه ما التزمناه في عامة الكتب السابقة من سلسلةِ «الإلحاد في

---

(1) الأصوليّ الداروينيّ: أي المؤمن بالداروينية في باب البيولوجيا وتاريخ الأحياء، وما ينتُج من ذلك ضرورةً من مقالاتٍ في كلّ أبواب المعرفة والقيم.

(2) Albert Mohler, Will the Real Fundamentalists Please Stand Up?, March 24, 2006. <https://albertmohler.com/2006/03/24/will-the-real-fundamentalists-please-stand-up/>.

(3) وهي متاحة على الشبكة العنكبوتية، على أكثرَ من موقع، للتنزيل مجانًا.

الميزان»، ثابت لم يتغيّر؛ فهو لا يزال قائمًا على الأصول التالية في المحاورة والمحاججة:

1- عرْضُ مذهب الملحد بأمانة، بنقله بالحرف أو تلخيصِه.

2- اختيارُ أقوى الصيغ الإلحادية المعارِضة للإيمان.

3- الردُّ العقلي و/ أو العلمي على المعارَضة الإلحادية.

4- عرْضُ الأجوبةِ المتوقعة لهذا الرد، والردُّ عليها.

5- عرْضُ إقراراتِ أعلام الإلحاد بما قررناه.

ومن المهم التنبيهُ أنّنا **نقُل في هذا البحث الكثيرَ من إقراراتِ أعلام الملاحدة من فلاسفةٍ وعلماءَ طبيعةٍ**؛ حتى لا يُقال إنّنا قد قلنا في الإلحاد قولًا إدًّا لا يرضاه أحد من الملاحدة لنكارته. **وليست هذه الإقراراتُ من باب إلزام الملحدِ بكلامِ «شخصيّةٍ مقدَّسة ومعصومة» عند الملاحدة**؛ فلا معصوم عند القوم؛ وإنّما هي إقراراتُ رموزٍ فكريّة تُعَدّ من أبرز الأصوات الإلحادية في السِّجال الفكري المعاصر، لم تجد بُدًّا من التسليم بما أثبتناه بالدليل العقلي و/ أو العلمي، رغم علمها أنّ ذلك قد يكون حجّةً على الإلحاد والملاحدة، نقضًا أو تبكيتًا.

وإقرار هؤلاء الملاحدة من رموز الدهرية ليس هو -بداهةً- ممّا يُعدّ ظاهره تسليمًا بفساد الإلحاد وصحّة الإيمان بالله؛ فإنّ الملحدَ إذا قال ذلك، خرج عن إلحاده إلى الإيمان، وإنّما القصدُ هو أنّ **حججَ الإيمان تقوم على مقدّماتٍ، مَن صدَّقها، لزِمه أن ينتهيَ إلى الإقرار بالنتيجة الضرورية، وهي الإيمانُ بالله.** والملاحدةُ الذين نُكثِر من النقل عنهم في هذا الكتاب، يُقرِّون بهذه المقدّمات التي نذكرها، وإنْ تناقضوا بعدمِ التزام النتيجة النهائية الإيمانيّة.

وأمّا مضمون الكتاب؛ فمختَصَره المحاكمة النقديّة للمسائل الثلاث التي تدور كل دعاوى شرعيّة الإلحاد أو أفضليّته عليها، وهي **عقلانيّة الإلحاد، وعلميّته،**

وأخلاقيّته. فالملاحدة يلوذون بالدعاوى التالية لتسويغ إلحادهم ورفض الإيمان بالله -سبحانه-:

- الإلحاد حقّ لأنّه على نقيض الإيمان الديني الخرافي، عقلانيّ في أصوله ومنهجه.
- وهو حقّ لأنّه تجاوز أساطير الدين في تفسير الكون، وأصله، والحياة، ونشأتها.
- ثم هو حقّ لأنّه على خلاف الدين الذي هو «أصل كلّ الشرور»[1] -كما هي التهمة التقليديّة-، بلغ بالإنسانيّة مرتبة احترام «الإنسان»، وصاغ « الإعلان العالمي لحقوق الإنسان»، وحرس حقوق الأقليّات حتّى لا يصول عليها صائل الكهنوت الديني والغالبيّة الحشوية الدهماء.

وضمن كلّ باب من هذه الأبواب الثلاثة، تكمن دعاوى فرعيّة تشكّل جوهر هذه الدعوى الأمّ. وفي كلّ دعوى من هذه الدعاوى، سنجد أنّ المقدّمات الإلحاديّة تنتهي إلى إثبات صحّة الإيمان بالله سبحانه، لا العكس.

وأخيرًا.. هذا كتابٌ صغير الحجم، سهلُ العبارة، مشاكسٌ بعدلٍ، ومستفزٌّ بصدقٍ، يزيد على بقيّةِ إصداراتِ «الإلحاد في الميزان» النظرَ في مسألة الإلحاد من زاويةٍ أخرى حصرًا، وهي قلْبُ دليل الإلحاد حجّةً عليه، والتنزّلُ مع المخالف إلى أقصى ما يملكه العقلاء؛ فضَعْ بجانبه فنجانَ قهوةٍ أو كوبًا من الشاي، ليعتدلَ المِزاجُ -فإنّ حالَ الإلحاد عجيبٌ!-، وأبحِرْ معنا في عالَم الغرائب؛ حيث يقودك الملاحدةُ -قسرًا عنهم- إلى فسيحِ ظلال الإيمان!

ربِّ اشرحْ لي صدري، ويسّر لي أمري، واحلُلْ عُقدةً من لساني، يفقهوا قولي!

ربِّ اغفرْ لي حظَّ النفْسِ من هذا الكتاب!

---

(1) اسم لحلقة وثائقية شهيرة على إحدى القنوات البريطانيّة، قدّمها ريتشارد داوكنز « The Root of All Evil?».

العقلانية، حجةٌ للإلحاد أم للإيمان؟

﴿وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت/ 43].

«هل بإمكانِ أيٍّ منَّا أن يُصدِّقَ قناعاتِ عَقْلِ قِرْدٍ، إن كانت هناك أصلًا قناعاتٌ في مثل ذلك العَقْلِ».[1]

تشارلز داروين

الدعوى الإلحادية ودليلها

يقول الملحد:

«لا نقبل دعوى إلا بدليلها. والعقلُ أساسُ كل دعوى إلحادية، على خلاف الإيمان الذي هو تصديقٌ لما لا يشهد له الدليلُ، بل لما يشهد الدليلُ على ضده؛ إرضاءً للعاطفة أو إذعانًا لما عليه الآباءُ والأجداد. ولذلك فالإلحادُ هو الحقُّ؛ لأنه عقلانيٌّ، وأمّا التديّنُ؛ فنزعةٌ إيمانويّة fideist عمياءُ».

ولذلك أقام الملاحدةُ ما سمّوه حجّةً لفساد الإيمان «evidentialist challenge to religious belief»؛ أي القول إنّ الدينَ لا يكون صحيحًا إلّا إذا كان عقلانيًّا، ولا يكون عقلانيًّا إلّا إذا أقام حجّةً على كلّ دعاواه؛ فإنه لا تُقبَل أيُّ دعوى البتة إلا بدليلها؛ ولذلك فالتديّنُ باطلٌ؛ لأنه غيرُ عقلانيّ، بلا دليل.

---

(1) To William Graham, 3 July 1881

نص رسالة (داروين) كاملًا:

< https://www.darwinproject.ac.uk/letter/DCP-LETT-13230.xml >.

قلْبُ الدليل

قد تبدو دعوى الملاحدة أنّ الإلحادَ حقٌّ لأنه يدْعم كلَّ دعوى يسوقها بدليلٍ ظاهر، وأنّ الإيمانَ بالله باطلٌ؛ لأنه يُهمِل الدليلَ، ويقوم على التسليم والركون إلى التقليد، دعوى مُقنِعةً لمن يستهويه الخطابُ الإلحادي المتعلّق بظواهر الألفاظ؛ فإنّ عبارةَ «الإيمان» «faith» في الخطاب الثقافي الغربي توحي بالتصديق الأعمى لا النظرِ الاستدلالي أو الاعتقادِ المدعوم بالبراهين... ولكنّ ذاك ظنُّ الغَريرِ الذي يكتفي بالنظر إلى السطح، ولا ينظر في أصول كلِّ دعوى.

إنّ من يتأمّل في آي القرآن؛ سيبصر الدعوة المتكرّرة إلى إعمال العقل، بالنظر في الكون: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الذاريات/ 20]، والنفس: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات/ 21]؛ وسيرة النبيّ الخاتم صلّى الله عليه وسلّم: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾ [سبأ/ 46]، والقرآن: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف/ 111]. وقد تكرّر ذلك في كثير من السور؛ لبيان أنّ لهذا الكون إلهًا واحدًا بلا شريك ولا قريع، وأنّ الرسالة التي ظهرت في جزيرة العرب قد تنزّلت من السماء، ريًّا للأنفس الصادية، كالماء. وأمّا الإلحاد فإنّه يعارض في أصول بنيته وجود العقل نفسه؛ فالعقلانيّة تبدأ من الإيمان بالله، وتنافر المفهوم الإلحادي الطبيعاني الإلحادي.. وحول ذلك سندندن هنا؛ فأرخ السمع..

1 . العقلانية تبدأ من الإيمان بالله

العقلانيةُ دعوى تعني الإيمانَ بقدرة العقل على التفكير، وتعني أيضًا القولَ بهيمنة

العقل على بقيةِ مصادر التفكير.[1] ولسنا نهتم هنا ببحث المَعنى الثاني للعقلانية، فالذي يعنينا هنا هو أدنى معاني العقلانية، وهو قدرةُ العقل على التفكير والنظر والجزمِ بالوصول إلى حقائقَ في هذا الوجود. والأمرُ الذي قد يفاجئ الملحدَ في هذا الصدد هو أنّ القضيّة ليست الصراعَ بين العقلانية والإيمان بالله، وإنّما هي حاجةُ العقلانية إلى الإيمان بالله حتّى تُوجَدَ العقلانيّةُ نفسها.

أ.فساد المذهب الدليليّ؛ لامتناع التسلسل

إنّ دعوى العقلانيةِ التي يتبجّح بها الإلحاد، غيرُ ممكنةٍ واقعًا، وإنْ تجمَّل بها الخطابُ الإلحادي الشعبوي، فهي تتبنّى مذهبَ الدليليّة Evidentialism القائم على أنه على المرء ألّا يسلّمَ دائمًا[2] لدعوى حتى يقومَ عليها دليلٌ؛ فإنّك إذا أردتَ أن تدلّلَ على كلِّ دعوى لك؛ امتنع ذلك ضرورةً؛ لأنّك ستحتاج إلى دليل لكل دعوى، إلى ما لا بداية؛ فكلُّ دعوى تريد أن تقيمَ عليها ما يأتي بعدها، هي نفسُها بحاجةٍ إلى دليل يُثبت صحّتَها، وهكذا في تقهقُرٍ إلى غيرِ أوّل واسترسال مرتدّ إلى غير بداية. وإذا لم تبدأْ في التفكير؛ لامتناع إقامةِ دعوى أولى مدلَّلٍ عليها بلا سلفٍ، لم يمكنْك أن تفكِّرَ!

وقد دفَع عُقمُ الدليليّة أن تُثبِت معرفةَ أيِّ شيء، إلى تبنّي عامةِ المفكّرين الملاحدة المعتنين بالبحث الإبستيمولوجي -ظاهرًا، دون قدرةٍ على التزامِ ذلك واقعيًّا- مذهبَ البراغماتية Pragmatism المعرفيَّ[3]، القائلَ إنّنا لا نطلب من عملنا الذهني معرفةَ الواقع، وإنّما نحن نطلب ما يحقّق المصلحةَ، ولو كان وهمًا، أو القولَ بمذهب التناسقية Coherentism، القائلِ إنّ مطلبنا ليس موافقةَ رؤيتِنا التي في أذهاننا للواقع الموضوعي خارج أذهاننا، وإنّما يكفي أن تكون الرؤيةُ متناسقةً مع الأفكار المرتبطة

(1) العقلانيّة بهذا المعنى تقابل المذهب التجريبي، والعرفاني...

(2) بعيدًا عن الصور الأخرى «المرقّعة» للدليليّة.

(3) الخطاب الإلحادي الشعبوي يتبنى الدليليّةَ، بينما ينحاز الخطابُ الإلحادي النخبوي في الكتابات الأكاديمية غالبًا إلى البراغماتية!

بها ضِمن النَّسقِ الكُلّي للدائرة التي تحتويها حتى تكونَ سائغةً ونلتزمَها. فالفكرةُ (أ) صائبةٌ، إذا كانت متناسقةً مع الفكرة (ب) و(ج) و(د)، دون اعتبارٍ لمطابقة دعواها للواقع خارج أذهاننا.

والبراغماتيةُ والتناسقية بذلك لا تنصران الإلحادَ، وإنّما تصيبانه في مَقتلٍ؛ فإنّ الإلحادَ ليس رؤيةً نظريّة مجرّدة مبتوتة الصلة بالواقع من جهة الحكم، وإنّما الإلحادُ حُكمٌ موضوعي على الكون أنّه وُجِد بلا إلهٍ، ويسير إلى غيرِ غايةٍ، وأنه -عند عامة الملاحدة- مادةٌ صِرفة. وهي تقريراتٌ مباشِرةٌ في الحكم على الواقع، منافِرةٌ للبراغماتية والتناسقية في رفضها التَّماسَ مع الوجود الخارجي الموضوعي.

ذاك وجهُ فساد الالتزام بمذهب الدليليّة الذي يزعم «ملاحدةُ السوق» أنه برهانُ عقلانيتهم، وانحيازِهم للدليل لا العاطفةِ. وأمّا وجهُ قلْبِ الدليلِ على الملاحدة في هذا السياق؛ فهو قولُنا لهم إنّ كلَّ نجاحٍ للملحد في البرهنة على دعوى له، لا بدّ أن ينتهيَ في مرحلةٍ من مراحله -إنْ نجح في كلِّ ما سبق- إلى إثبات صحّة عقله. بمعنى أنه لو قال الملحدُ إنه قادرٌ على تفسيرِ ظاهرةٍ ما تفسيرًا علميًّا، وأثبَت بالدليل أنّ حساباتِه قطعيّةٌ، وملاحظاتِه دقيقةٌ بلا توهُّم، وأنّ النتيجةَ مبنيّةٌ على مقدّماتٍ سليمة واستنباطٍ صحيح؛ فلا بدّ أن نقولَ له: لم ينتهِ استدلالُك على ما تقول؛ فإنّ صحّة هذه الحسابات والقياسات والرصد... إلخ، **مرهونةٌ بصحةِ مقدمةٍ مطويّة لم تُظهِرْها، وهي أنّ عقلك الذي عدّ وفكّر واستنبط، سليمٌ لا يقود إلى الوهم؛ أي إنّ عقلك حجّةٌ في الاستقراء والاستنباط؛** فالنظرُ العقلي أو العلمي أسيرٌ لصحّة العقل.

ب. الحاجة إلى الإيمان بالعقل بدءًا

حاول ديكارت[1] أن يقِيم منظومةً معرفيّةً تبدأ من الصِّفْرِ المعرفيّ؛ فلا تستعينُ

(1) رينيه ديكارت René Descartes (1004-1060هـ/ 1596-1650م): فيلسوفٌ وعالمُ رياضيات فرنسيٌّ. رائدُ الفلسفةِ الحديثة، ومذهبِ الفلسفة العقلية. من أهم مؤلفاته: «Discours de la Méthode».

بالعقل ولا بغيره في البدء؛ فافترض -لذلك- الشكَّ في الحسّ؛ لأَنَّ الحِسَّ يخدعنا أحيانًا فيُرينا الشيءَ على غيرِ حقيقتِه، وكذلك لا ضمانَةَ تمنع أنّ هناك شَيْطانًا يتلاعب بعقولنا حتّى نفهمَ الأمورَ على غيرِ حقيقتها؛ وذاك ينقضُ حُجيّةَ العقل. وزعم ديكارت بعد شكّه في الحِسّ والعقل أنّه قادرٌ على أن يبدأ من يقينٍ لا يخالطه رَيبٌ يؤسس عليه المعرفةَ اليقينية، وهو يقينه أنه يفكر من خلال ظاهرِ فِعله الذهني المتمثّل في الشك؛ فهو حتى لو شكَّ أنه يشُكّ، فسيبقى بذلك ممارِسًا لفِعْلِ الشَّكِّ، أيْ إنه مُفَكِّرٌ ضرورةً، مهما بلغ مدى شَكِّهِ في ما يَعْرِضُ له.

لم يستطعْ ديكارت -رغم ظاهرِ دعواه- أن يبدأ من الصِّفْرِ المعرفيّ؛ إذ إنه ما كان ليصِلَ إلى إثبات أنه يشكّ لو أنكَر مبدأَ عدم التَّناقض الذي يثبت أنه إذا كان يشكُّ فلا يَصِحُّ أَلَّا يكون شاكًّا. فما كان لديكارت أن يتيقّن حقيقةَ شكّه لو أنه كان بالإمكان أن يجتمعَ شكُّه مع أنه لا يشكّ؛ وذاك يعني أنّ الثّقةَ في حُجيّةِ الشّكِّ على وجود الذّات المفكّرة قائمةٌ في الحقيقة على أهمِّ مقولات العقلِ «مبدأ عدم التّناقض»، ولولا البدءُ بالثّقة بالعقل لما أمكن الثّقة بشيء، ولو كان دلالةَ الشكّ على وجودِ ذاتٍ تشكُّ؛ فتفكّرُ.

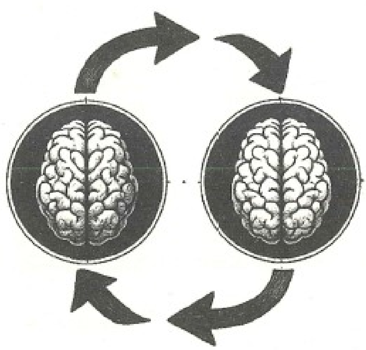
وقد انتهى الغزالي بعد شفائه -إثرَ تجربته في الشك في أوليّات العقل وولوج طريق السَّفْسَطة-، إلى القول: «الأوليّاتُ ليست مطلوبةً؛ فإنها حاضِرةٌ، **والحاضِرُ إذا طُلِبَ فُقِدَ واختفى**»؛[1] فمَن بحَث في تأسيس الثّقة بمبادئ العقل الأولى انتهى إلى العجز عن تحصيل مُراده لأن المبادئَ العقليّة لا تُطلَب بالنظر إنمّا يُسلَّم لها لأنها قاعدةُ الفِكْر لا حصيلتُه. ولا يلزَمُ من ذلك العجزُ عن إثباتِ صحّةِ بعضها بطريقٍ غيرِ مباشر؛ إذ من الممكن الوصولُ إليها من خلالِ افتراضِ فسادِها، وملاحظةِ ما ينجُم عن ذلك من مُحالاتٍ، كالبحث في مبدأ العِلَّة الكافية.

(1) أبو حامد الغزالي، المنقذ من الضلال، تحقيق: جميل صليبا وكامل عياد (بيروت: دار الأندلس، 1967م)، ص 68.

ولا سبيل للملحد أن يستدلّ لصحة العقل بعمليةٍ عقليّة تثبت سدادَ آرائه؛ **فذاك دَورٌ. والدَورُ هو توقُّفُ الشيءِ على ما يتوقَّفُ عليه.**[1] فبُطلانُ الدَّورِ يعود إلى أنّ الشيء يتقدّم نفسَه ويتأخّر عنه في الحين نفسِه؛ بما ينتهي إلى أنه هو حُجّةٌ لنفسه! وذاك باطلٌ بإقرار الملاحدة أنفسِهم. والأمرُ نفسُه في ما يتعلّق بالحسّ، وإنْ كان الحسُّ لا يخطئ ولا يصيب؛ لأنه لا يحكم على الأشياء؛ فهو مجرّدُ ناقلِ تقريراتٍ مادية عن العالم إلى الدماغ؛ ليستنبط الدماغُ منه الحُكمَ.

والأمرُ كلُّه بذلك ينتهي إلى وجوب الاحتكام إلى العقل، **ولا يمكن إثباتُ صحّة العقل إلا بآلة التفكير التي هي العقلُ**، حتّى لو حاول مَن شاء أن يستدلّ للعقل بالعلم؛ فإنّ الدليل العِلميَّ نفسَه قائمٌ على العقل. فلا حجّة لصحّة العقل من داخله ولا من خارجه؛ فالاحتجاجُ من الداخل مُوقِعٌ في الدَّور، والاحتجاجُ من الخارج ينتهي إلى الرجوع إلى العقل مرّةً أخرى للحُكم؛ لنقَعَ في الدَّور مرّةً أخرى.

العقل، ومشكلة الدور



(1) مثال للدور: يُشترط لدخول قسم الفقه المقارن (أ) في كلية الشريعة أن يكون الطالب من خريجي أصول الفقه (ب)، ولا يمكن للطالب أن يلتحق بقسم أصول الفقه (ب) إلّا بأن يكون من خرّيجي قسم الفقه المقارن (أ). فشرط تحقق (أ) هو (ب) الذي لا يتحقّق إلّا بتحقّق (أ). ولذلك فإنّ (أ) متوقّف على (أ)، أي على نفسه.

إنّ المقدّمة التي ليس لأحدٍ أن يستغني عنها عند محاولة إقامةِ دليلٍ على أمرٍ ما، هي حُجيّةُ العقل؛ أي صوابيةُ استعماله للتفكير لإدراك الحقيقة. وهذا مُبطِلٌ لمذهب الدليليّة الإلحادي ضرورةً؛ لأنّنا سنستثني العقلَ من طلبِ إقامة الدليل عليه.

والملحدُ هنا أمام ثلاثةِ خيارات، لا سبيل له إلّا أن يختار أحدَها:

1- الدليليّة التي يفخر بها. والدليليّةُ مُوقِعةٌ في التسلسل؛ فيمتنع عندها إمكانُ التفكير؛ لأنه لن يتمكّن المرء من أن ينشئ فكرةً أولى أصلًا؛ فما يتسلسل لا يتحصّل.

2- أيّ رؤية معرفيّة لا تعبأ بمحاولة فهم الواقع الموضوعي كما هو، كالبراغماتية أو التناسقية.

3- القول بالمذهب التأسيسي foundationalism؛ بأن يؤمن بمقدمةٍ أولى غيرِ مدلَّلٍ عليها؛ حتى يتمكّنَ من تأسيسِ رؤيةٍ إلحاديّة.

والمُدرِكُ لحقيقةِ التفكير، عالمٌ أنّ المقدمة غيرُ المدلَّل عليها، والتي لا سبيل للتفكير المُدرِك للواقع دونها، لا بدّ أن تشمل الإيمانَ بحجيّة العقل؛ فإنّ كلَّ محاججةٍ إلحاديّة لا بدّ أن تقومَ على العقل، حتى الاحتجاجُ بالعلم يرجع في نهايته إلى العقل من جهةِ أنّ العلم قائمٌ على النظر العقلي. ولكن لا يملك الملحد أن يبدأ بالتسليم بحجيّة العقل؛ لأنّ نظرته الطبيعانيةَ تتعارض مع التسليم بحجيّة العقل، كما سيأتي بيانُه، على خلافِ المؤمن الذي يتوافق تسليمُه بحجيّة العقل مع إيمانه بالله، بل قُلْ: إنّ **إيمانه بالله الكاملِ شرطُ تسليمه بحجيّة العقل**، كما بيّنه ديكارت.

فقد أدرَك ديكارت في تأسيسه للمعرفة الإنسانيّة اليقينيّة من الصِّفر المعرفي أنه لا سبيل لتصديق العقل قبل الإيمان بالله؛ ولذلك لمّا بدأ نظرَه بالشكّ في العقل، قائلًا إنّ ما يحسَبه الإنسانُ حقًا بدلالة العقل عليه، قد يكون -في حقيقته- مجرّدَ أثرٍ عن تلاعُبِ شيطانٍ بدماغه،[1] سعى إلى إبطالِ فساد العقل من خلال إثباتِ وجودِ إلهٍ

(1) René Descartes, *Les Méditations Métaphysiques* (Paris: Pierre Huet, 1724), p.xl-xli

كامل (انطلاقًا من دليله الأنطولوجي)[1]، قبل أن يستردّ ثقته بعقله؛ فأسّس بذلك الثقةَ بالعقل على الثقة بخيريّة الإله؛ فلولا كمالُ الإله -وخيريّتُه من كماله- لما أمكن الثقةُ بالعقل .. وذاك برهان العجز عن الثقة بالعقل دون تأسيسٍ أنطولوجي معرفيّ أوليّ يقوم على الإيمان بخيريّة الإله.

قال ديكارت في التأمّل الثالث من تأمّلاته الفلسفيّة: «عليّ أن أبحث إنْ كان هناك إله... وإذا وجدتُ أنّ هناك واحدًا، فعليَّ عندها أن أبحث عمّا إنْ كان مخادعًا؛ لأنه **بغير معرفةِ هاتين الحقيقتين لا أرى أن بإمكاني البتّة أن أكون واثقًا بأيّ شيء**».[2]

فالرؤيةُ الكونية الوحيدة التي تسمح للعقل أن يكون حجّةً، هي المؤمنة بدءًا بإلهٍ حكيم عدل؛ إذ إنّ الحكمة والعدل الإلهيين شرطان للثقّة بالعقل، وبدونهما يمتنع التسليمُ غير البرهاني للعقل بالحجيّة. ولا يملك الملحد أن يبدأ نظرَه المعرفيَّ من التسليم بحجيّة العقل؛ لأنه لا يؤمن بالله أصلًا؛ فالملحدُ يعيش بين فكّي المحنة؛ الحاجة إلى مقدّمةٍ تسليميّة غير برهانيّة تتضمّن الإيمانَ بحجيّة العقل، وامتناع التسليم بذلك؛ للحاجة إلى ضامنٍ لصّحة العقل، وهو الإله.

وتزداد محنةُ الملحد شدّةً بتجاوزها غيابَ ضامنِ صحّة العقل، إلى تبنّي الملحدِ نفسِه لمقولاتٍ تجعل تصديقَ العقل ممتنِعًا. فالملحدُ عاجزٌ أن يكون عقلانيًّا؛ لغياب الإله الذي يضمن صحّةَ العقل، ولإيمانه بما يؤكّد أنّ دماغه ليس حجّةً لإصابة الحق؛ أي مادية العقل، وامتناع الإيمان بالإرادة الحرة، وحيوانيّة الدماغ البشري. وهو ما سنبحثه في النقاط التالية، ولكن بعد أن ننظر في إمكان الفِرار إلى تجاوز معضلةِ حجيّة العقل، بتبني اللاأدريّة.

(1) لا سبيل لإقامة برهانٍ لوجود الله دون الإيمان بالعقل. ولذلك فالواجب أن نقول إنّ الإيمان بالله الكاملِ أصلٌ للإيمان أو الثقة بالعقل.

(2) المصدر السابق، ص 11-12

- الدليليّة العقلانيّة للإلحاد واقعةٌ في معضلة التسلسل.
- وجب على الملحد عندها التخلّي عن منهج الدليليّة من جهةِ تأسيس النظر العقلي، أي حجيّة العقل، والتسليم لحجيّة العقل باعتبار ذلك مقدّمة لا برهانيّة.
- لا يملك الملحد أن يسلّم للعقل لا برهانيًّا؛ لأنّ رؤيته الكونيّة تتعارض مع شرطيّة صحّة العقل.
- الطريق الوحيد للتسليم لصحّة العقل هو الإقرار أنه صنعةُ إلهٍ حكيم رحيم.
- لا عقلانيةُ الإلحاد النافي لوجود الله، رهينة في صحّتها بإثبات وجود الله.

= صحّة عقل الملحد حجّةٌ لصحة الإيمان بالله.

ت. اللاأدرية ليست هي الحلّ

لا يملك الملحدُ القولَ إنه سيفِرُّ إلى اللاأدريّة ليسلَم من الحاجة إلى الاحتجاج بالعقل في المسألة الإيمانية؛ بزعم أنّه في اللاأدريّة متشكّكٌ في وجود الله؛ وأن شكَّه غيرُ محتاج إلى عقل صحيح يكون حجّةً في النظر والتأسيس. وفساد دعواه سببها أنّ **اللاأدريّة** هي إمّا:

- جوابُ سؤالِ «هل يوجد إله؟» بعبارةِ «لا أدري!»؛ لأنّ الناظر تكافأت عنده أدلّةُ وجود الله -سبحانه- وأدلّةُ نفيِ وجوده -سبحانه-،

وإما هي:

- جوابُ السؤالِ السابق بعبارةِ «لا أدري!»؛ لاعتقاد الناظر أنّ العقل غيرُ مُهيَّأٍ للحُكم في هذا الموضوع ابتداءً.

وفي كلتا الحالين قام الحُكمُ بتكافؤ الأدلّة أو بالشكّ في أهليّة العقل، على العقل نفسِه؛ فمن قال بتكافؤ الأدلّة، دلّه عقلُه على أنّ أدلّة الإثبات والنفي متساويةُ القدر

قيمةً، أو أنّ عقله لا يملك الحُكمَ في المسائل الميتافيزيقية أو غيرِها؛ فهو لم يرَ قصورَ العقل إلا بعد أن امتحن العقلَ نقديًّا.

فإنْ قيل: لا حاجة إلى العقل هنا.. فالمؤمنُ عليه عبءُ الإثبات، وإنْ عجَز عنه؛ لزِمه المسيرُ إلى القول بأنه لا إله!

قلتُ: هذه دعوى واقعةٌ في مغالطتين عظيمتين:

الأولى: عدمُ الدليل ليس دليلًا للعدم. فعجزي أن أثبت وجودَ وردةٍ لونُ بعضِ أوراقها أحمرُ والآخَرُ شفّافٌ، لا يلزَم منه ادّعاءُ العلم بعدمِ وجودِ هذه الوردة؛ وإنّما نهايةُ الأمر وأقصاه نفيُ العلم بوجودها. والإلحادُ ليس دعوى تقول بالتوقّف في أمرِ إثباتِ وجودِ إله، وإنّما هي دعوى تنحاز إلى نفيِ وجودِ إله، بالقطع بذلك أو بالترجيح، والقطعُ والترجيح يحتاجان إلى برهان أو مرجِّح.

والوجودُ الإلهي **قد يصحّ ولو لم تقُم له البراهينُ؛ فوجودُ الشيء غيرُ طريقِ إثباتِ وجوده**؛ فإنّ وجوده هو تحقّقُ قيامه في الوجود، وأمّا إثباتُ وجوده؛ فهو إقامةُ طريقٍ سليم للعلم بوجوده. ولذلك قال الفيلسوفُ **الملحد** كاي نيلسون Kai Nielsen[1]: «لا يعني إظهارُ أنّ الحجة باطلةٌ أو غيرُ سليمة أن ما يُستنتَج منها خطأٌ... **قد تفشَل جميعُ براهينِ وجود الله، ولكنْ قد يكونُ اللهُ موجودًا**». [2]

الثانية: من الخطأ النظرُ إلى مسألةِ وجود الله سبحانه، باعتبارها دعوى يحاول فيها طرفٌ إثباتَ وجودِ شيء، ويكتفي الآخَرُ بالقول إنه لا حجّة عليه ليقيمَها؛ بدعوى أنه غيرُ مكلَّفٍ بإثباتِ صحّةِ مذهبه؛ فإنّ سؤال الوجود الإلهي يجب أن يُصاغ بصورةٍ واقعية وسليمة حتى نفهمَ فيمَ الخلاف. وعندها سنُدرِك أنّ على كلِّ طرفٍ إثباتَ دعواه، إذا أراد أن يُقنِع بها الآخَرَ.

---

(1) كاي نيلسون (1344-1433هـ/ 1926-2012م): فيلسوفٌ أمريكي. درّس في University of Calgary. له عناية خاصة بفلسفة الأخلاق، والفلسفة السياسية، والفلسفة التحليلية.

(2) Kai Nielsen, *Reason and Practice* (New York: Harper & Row, 1971), 143-44.

سؤالُ «هل يوجد إله؟» تمّت صياغته بعبارةٍ فلسفيّة مختصَرة على صورته هذه. وفكُّ هذه العبارةِ لتكون أبسطَ وأوضح يعني أن نُعيد كتابةَ السؤال ليعبّر عن معناه الفلسفي العميق. فلنا أن نقول مثلًا:

- هل هذا الكونُ واجبُ الوجود أم هو ممكنُ الوجود؟

فالإلهُ المقصود في السؤال الأوّل هو في التعريف الفلسفي: «واجب الوجود»، أي الشيءُ الذي يمنع العقلُ إمكانَ عدمِ وجوده؛ لأنه يلزَم من عدمِ وجوده محالٌ. ولذلك فالبحثُ هنا هو في أنّ هذا الكونَ ممكنٌ أو واجبُ الوجود، وهو يقتضي أن يشارك الملحدُ خَصمَه المؤمنَ في الحوار؛ فإنْ أثبَت المؤمنُ أنّ هذا الكونَ ممكنُ الوجود، فقد وجَب القولُ بوجودِ واجب الوجود المغايرِ للكون، وهو الإلهُ، وعلى الملحد -في المقابل- أن يُثبِت أنّ هذا الوجودَ المادي واجبُ الوجود؛ فإنْ عجَز الملحدُ أن يُثبِت ذلك؛ وجَب القولُ إنه ممكنٌ محتاج إلى واجب الوجود ليرجِّحَ وجودَه على عدمه. وهذا الدليلُ هو ما يُسمى بدليل الإمكان Argument from Contingency.

- هل ظاهرُ تصميم هذا الكون يعود إلى العشوائية أم الحكمة؟

يسلِّم الجميعُ أنّ عالَم الأحياء يوحي بالتصميم، ومن ذلك قولُ داوكنز في تعريف البيولوجيا: «البيولوجيا هي دراسةُ الأشياء المعقّدة التي تحمل **مَظهرَ** ما تمّ تصميمُه لغايةٍ» «biology is the study of complicated things that have the **appearance** of having been designed for a purpose.».[1] ولمّا كان التصميمُ ظاهرةً توحي بوجودِ مُصمِّم، لزِم أن ينخرط الملاحدة في حوارٍ علمي لإثباتِ أنّ هذه الظواهرَ خادعةٌ؛ لأنها تعود في الحقيقة إلى العشوائية. ولو جاز لأحدٍ أن يتملّص هنا من عبء الإثبات، لكان هو المؤمن لا الملحد، ركونًا إلى قاعدةِ أنّ **الأمور بظواهرها حتى يثبت خلاف ذلك**. وهي القاعدة التي نلتزمها كلُّنا في حياتنا العلميّة والعمليّة.

(1) Richard Dawkins, *The Blind Watchmaker* (London: WW Norton & Company, 1986), p.1.

ففكُّ عبارة السؤال، بتعريفِ «الإله» بأنه «واجب الوجود» أو «الخالق» أو «المصوّر»... إلخ كاشفٌ أنّ الحجّة قائمةٌ على الملحد كما المؤمن. ففي السؤال عن وجود الله، الجميعُ مُطالَبٌ بالدليل عند المحاججة والمناظرة.

2. امتناع الإيمان بالعقل في الرؤية الإلحادية

لا تقتصر محنة الملحد على مواجهةِ مشكلةِ حاجة العقل إلى الإيمان بالله ليكون عقلًا عاقلًا، وإنّما تتجاوز ذلك إلى ضرورةِ مواجهةِ مشكلةٍ أعظمَ إحراجًا، وهي أنّ رؤيته الكونيّةَ تقوم على مقولاتٍ لا بدّ أن تنتهيَ إلى رفض العقل والعقلانية أو تضعَهما موضعَ الشكّ والرِّيبة.

أ. امتناع الإيمان بالعقل المادي

يتّفق عامة الملحدين اليومَ على أنه لا سبيل للإيمان بالروح إلّا بعد الإيمان بالله، أو أنّ الإيمان بالروح طريقٌ إلى الإيمان بالله؛ ولذلك يتفقون على أنّ الرُّوح خرافةٌ، خاصةً أنّ وجودها يعارض رؤيتهم الطبيعانيّةَ المادية للكون، كما يهدِم الإيمانُ بها فرضيتَهم التطوّريةَ في عالَم الأحياء؛ إذ تُقحِم عنصرًا في الوجود الحيّ الواعي لا سبيل لتفسير نشأته ضِمن آليات الطفَرات العشوائية والانتخاب الطبيعي أو ما تفرّع عنهما.

ما العقلُ عند الملاحدة الطبيعانيين وعامة المؤمنين بالله؟

إنّ العقل عند الملاحدة الطبيعانيين هو الدماغُ حصرًا، ولا شيء مع ذلك، ولا فوق ذلك. وفي تعريفٍ مُحكَمٍ للعقل عند الطبيعانيين، يقول عالما النفس التطوريّان ليدا كوسمديس Leda Cosmides[1] وجون توبي John Tooby[2]: «الدماغ **نظامٌ ماديّ،**

---

(1) ليدا كوسمديس (1395هـ/ 1975م-): عالمةُ نفس أمريكيةٌ، رائدةٌ في علم النفس التطوري. حاصلة على جوائز علمية تكريمية كثيرة. عضو الأكاديمية الأمريكية للفنون والعلوم.

(2) جون توبي (1371-1444هـ/ 1952-2023م): عالمُ أنثروبولوجيا أمريكيٌّ. من روّاد علم النفس التطوّري. درّس في جامعة كاليفورنيا.

تحكُم عملَه قوانينُ الكيمياء والفيزياء فقط. ماذا يعني ذلك؟ إنه يعني أنّ كلَّ أفكارك وآمالك وأحلامك ومشاعرك تنتج من تفاعلاتٍ كيميائية تحدُث في رأسك»[1] أو بعبارة مختصرة، العقل هو حدَثٌ عصبيّ neuronal event. في حين يعتقد عامة المؤمنين بالله بالنظرية الثنوية dualism -أي في أبرز صورها-[2] أنّ العقل أو الوعي أثرٌ عن الرُّوح التي تستعمل الدماغ.

فالعقلُ عند الملاحدة الطبيعانيين هو الدماغُ حصرًا. والدماغُ صندوقٌ مغلَق على نفسه، آلياتُه ماديةٌ صِرفة، ومُخرجاتُه أثرٌ عن تفاعلاتٍ داخليةٍ عمياءَ. وما كانت بدايتُه ماديّةً بصورةٍ صِرفة، ومساحتُه ماديةً حصرًا، لزِم أن يكونَ منفصلًا عن حقيقةِ ما هو خارجه. وبعبارة عالم النفس نيكولاس همفري Nicholas Humphrey[3]: «**إذا لم يكن هناك شيء في العالم المادي يمكن أنْ يمتلك السمات التي يبدو أن الوعي يمتلكها، فلا يمكن عندها للوعي أن يوجد كشيء في العالم المادي.**»[4]

ولا يُشبَّهُ العقل هاهنا بالكمبيوتر؛ لأنّ الكمبيوتر ليس هو مادته الصلبة hardware (السيليكون، والألومنيوم، والنيكل، والنحاس، والزنك) فقط، فإنّ قلبه هو المادةُ المعلوماتية software المبثوثةُ فيه. ولو أنّ الكمبيوتر مجرّدُ صندوقٍ تنتقل الكهرباءُ داخله بصورةٍ آلية دون تنظيمٍ وتوجيه من خارجه؛ لما كان يصدُر عنه معنًى، أو بعبارة

(1) John Tooby and Leda Cosmides, "Neo-Darwinian evolution theories," in *Visions of Culture: An Annotated Reader*, Jerry D. Moore, ed. (Maryland: Rowman & Littlefield, 2018), p.420.

(2) الثنوية مدارس عدّة، منها «الثنوية الجوهرية» «Interactionism»، وهي تميّز جوهريًا بين العقل والجسد، وترى أنّ العقل غير المادي يتفاعل جدليًا مع الجسد المادي، و«الموازاة» «Parallelism» التي تنفي أيّ علاقة سببيّة بين العقل والجسد، و«العرضيّة» «Occasionalism» التي ترى أنّ الله -سبحانه- يتدخل كلّ مرة يحصل فيها تفاعل بين العقل والجسد؛ ليؤثّر في العقل عند حدوث أثر فيزيولوجي أو العكس ...

(3) نيكولاس همفري (1362هـ/ 1943م--): متخصص في علم النفس العصبي. له عناية بدراسة الذكاء في الرئيسيات من الحيوانات.

(4) Nicholas Humphrey, "Consciousness: The Achilles Heel of Darwinism? Thank God, Not Quite," in John Brockman, ed., *Intelligent Thought: Science versus the Intelligent Design Movement* (New York: Vintage, 2006), p.58.

سي. أس. لويس C. S. Lewis [1]: «إذا كانت العقول تعتمد اعتمادًا كليًا على الأدمغة، والأدمغة على الكيمياء الحيويّة، والكيمياء الحيوية (على المدى الطويل) على التدفّق الذي لا معنى له للذرّات، فلا أستطيع عندها أن أفهم كيف يمكن أن يكون لفكر تلك العقول أهميّة أكبر من صوت الريح بين الأشجار». [2]

قد تتّهمني بالتعسّف في استخراج المعنى السابق، رغم أنّ المؤمن والملحد يثقان -**عمليًا**- بمخرجات الدماغ (وإنْ جادل بعضُ فلاسفة الإلحاد **نظريًا** في ذلك). فخُذ إذن كلمةَ عالِم الكيمياء الحيوية **الملحِد** ستيوارت كوفمان Stuart Kauffman [3] تُنبئك أنّ الإيمان بالعقل الواعي لا يلتقي بمفهوم العقل الإلحادي. فقد قال: «وجهةُ النظر الثانية السائدة بين علماء الإدراك cognitive scientists هي أن الوعيَ ينشأ عندما يتّصل عددٌ كافٍ من **العناصر الحاسوبية بعضُه ببعض**. وبحسب هذا الرأي، فالعقلُ عبارةٌ عن **آلةٍ**، ومجموعةٍ مُعقَّدةٍ من دِلاءِ الماء التي يصُبّ بعضُها الماءَ في بعضٍ لتصبحَ واعيةً؛ **وأنا لا يمكنني تصديقُ ذلك**». [4]

لماذا يرفض كوفمان تصديقَ ما يلزَمه الإيمانُ به؟ لماذا لا يُذعِن «للحقيقة» الإلحاديّة الكبرى ضِمن التصوّر الكوني الطبيعاني؟ لماذا لا يقِرُّ أنّنا إذا أنكرنا الرُّوحَ، فلن يبقى لنا غيرُ المادة الرخوة للدماغ والمعلومات التي تُنقَل إلى الدماغ بصورةٍ مادية لا نزال نجهل دقيقَ صفتها، والمادةُ والمعلومات الخام لا تصنعان فكرةً صائبة؟! لماذا لا يعترف -بصدقٍ- أنّ الإلحاد يقتضي اللاعقلانيةَ، وأنّ العقلانيّة قرينةُ الإيمان

(1) سي. أس. لويس (1315-1383هـ/ 1898-1963م): فيلسوفٌ، وناقدٌ أدبيٌّ متخصّص في أدب القرون الوسطى وعصر النّهضة. يُشْهَدُ له أنّه أبرز المناضلين عن عقيدة الإيمان بإلهٍ -خارج الدّائرة الأكاديميّة- في الغرب.

(2) C. S. Lewis, "Is Theology Poetry?" in *The Weight of Glory* (New York: HarperCollins, 1976), p.139

(3) ستيوارت كوفمان (1358هـ/ 1939م-): أستاذ الكيمياء الحيويّة في University of Pennsylvania. عضو «الجمعية الملكية الكندية» التي تضم نخبة المفكرين في التخصصات المعرفية المختلفة.

(4) Dr. Stuart Kauffman, Beyond Reductionism: Reinventing the Sacred, http://www.edge.org/3rd_culture/kauffman06/kauffman06_index.html

بشيءٍ فوق الدماغ يهيمن عليه توجيهًا واختيارًا، وإنْ تأثّر هو أيضًا بكيمياء الدماغ وعلله[1]؟

أو بعبارةٍ مباشِرة؛ لماذا لا يصرّح كوفمان وكلُّ ملحدٍ بالحقيقة التي ذكَرها البيولوجيُّ التَّطوُّرِيُّ **الملحِدُ** المعروفُ ج. ب. أس. هالدين J. B. S. Haldane[2]: «إذا كان عملُ عقلي يتم تحديده بصورةٍ كُليّةٍ من حركاتِ الذرات في دماغ؛ **فلا حُجّةَ لي عندها لافتراضِ أنّ معتقداتي صحيحةٌ**. قد تكونُ عمليّاتُ دِماغي سليمةً كيميائيًّا، ولكنّ ذلك لا يجعلها سليمةً منطقيًّا؛ ولِذا ليس لديَّ أَيُّ سببٍ لافتراضِ أنّ دماغي يتكون من ذرات».[3]

أرجو ألّا تعجب من عجائب الملاحدة؛ فقد عجب منها ريموند تاليس Raymond Tallis نفسه -الفيلسوف **الملحد**، وأستاذ علم الأعصاب-؛ فقد ألّف في موضوعنا هذا كتابه الماتع والساخر في عنوانه « Aping Mankind: Neuromania, Darwinitis and the Misrepresentation of Humanity »؛ وفيه سمّى هؤلاء الملاحدة الذين يعتقدون أنّ العقل هو الدماغ بأصحاب «الهوس بعلم الأعصاب» « Neuromania »؛ بمعنى اختزال الوعي البشري في الظاهرة العصبيّة الماديّة.

وقد كان كتاب تاليس ثورة علميّة وفلسفيّة على التفسيرات الإلحاديّة للإنسان ووعيه؛ فالإنسان والوعي عند تاليس أكبر من خلايا جسده والعصبونات. وظهور العقل الواعي في عالم المادة والعشوائية، وتحوّل الكائن غير المصمَّم إلى مصمِّم

---

(1) يعترض الملاحدة الطبيعانيون القائلون بثنائية الروح والدماغ لصناعة الأفكار، بأثر الأمراض التي تصيب الدماغَ والمؤثّرة في تفكير الإنسان، على أنّ العقل هو الدماغ حصرًا. وهذا اعتراض فاسد؛ فإنّنا لا نقول إنّ التفكير هو الروح حصرًا، وإنّما نقول إنّ هناك عَلاقةً جدليّة -في الاتجاهين- بين الروح والدماغ؛ فكما أنّ الروح تؤثّر في الدماغ عند استعماله، كما تؤثّر يدُ عازف البيانو على قِطع البيانو التي تنتهي إلى إصدار الأنغام المختلفة، تؤثّر الأعطاب التي في البيانو على اللحن الذي يريده العازف بإفساده.

(2) ج. ب. أس. هالدين (1892-1964م): عالِمُ بيولوجيا بريطانيٌّ. من أهم أنصار التطور الدارويني ومُنظِّريه المتأخّرين. كانت له عنايةٌ بنشر الثقافة العلميّة الشعبيّة.

(3) Cited in: Karl Popper, *The Open Universe: An Argument for Indeterminism* (Psychology Press, 1988), p.82.

من عجائب هذا العالم... ولكن كيف يكون الإنسان أكبر من مجموع ذرّاته وخلاياه، إذا كانت الطبيعة هي كلّ شيء؟! **لقد كان تاليس أعقل من بقيّة الملاحدة في إدراك الحماقات التي انتهوا إليها في فهم العقل، لكن كانوا هم أصدق منه في التزام ما ينتهي إليه الإلحاد الطبيعاني.**

إنّ محاولة البحث عن تفسير مادي للعقل في الدماغ حصرًا في عالم الأكاديميا، تعيش أزمة شديدة، وهو ما لخّصه الفيلسوف ج.ب. مورلند J. P. Moreland [1] في كتابه المهم «الوعي ووجود الله» -وهو باب اعتنى ببحثه طويلًا في أكثر من كتاب وفصل ومقال-، بقوله: «الحقيقة هي أن المذهب الطبيعاني ليست لديه طريقة معقولة لتفسير ظهور خصائص/ أحداث عقليّة حقيقيّة في الكون غير قابلة للاختزال المادي... عند مقارنتها بالموارد التفسيرية الغنية للمذهب الألوهي ولحجّة الوعي على وجود الله. يعترف نيد بلوك Ned Block [2] بأنّنا لا نملك أيّ فكرة عن كيفيّة نشوء الوعي من المادة غير الواعية: «ليس لدينا أيّ شيء يستحق أن يطلق عليه برنامج بحثي... **والباحثون في حيرة من أمرهم.**»[3] ويقول جون سيرل John Searle [4] إنّ هذه «مشكلة رائدة في العلوم البيولوجية.»[5] ويلاحظ كولن ماكجين Colin McGinn [6] أنّ الوعي يبدو «طارئًا بصورة راديكاليّة في الكون.»[7] ويتساءل كيف يمكن لوعينا «التقني» أن

---

(1) ج.ب. مورلند (1367هـ/ 1948م-): فيلسوفٌ أمريكيٌّ. له عناية خاصة بمشكلة الوعي وفلسفة العلم.

(2) نيد بلوك (1361هـ/ 1942م-):فيلسوف أمريكي. درّس الفلسفة وعلم النفس في New York University . له عناية خاصة بعلم الإدراك.

(3) Ned Block "Consciousness" in *A Companion to the Philosophy of Mind*, ed. Samuel Guttenplan (Malden, MA: Blackwell, 1994), p.211.

(4) جون سيرل (1350هـ/ 1932م-): فيلسوف أمريكي. له عناية واسعة بفلسفة العقل وفلسفة اللغة.

(5) John Searle, "The Mystery of Consciousness: Part II," *New York Review of Books* (16 November 1995), p.61.

(6) كولن ماكجين (1369هـ/ 1950م-): فيلسوف بريطاني. درّس في عدد من الجامعات في بريطانيا وأمريكا. نشر مؤلّفات كثيرة في مشكلة الوعي. وقد ارتبط اسمه بمذهب «mysterianism» الذي يرى امتناع قدرة البشر على حل مشكلة الوعي.

(7) Colin McGinn, *The Mysterious Flame: Consciousness Minds in a Material World* (New York: Basic Books, 1999). p.14.

«ينشأ من مادة رمادية رطبة.»[1] ويؤكد ديفيد تشالمرز David Chalmers [2] أنّه «لا يوجد تفسير شامل من الناحية الفيزيائيّة يمكن أن يفسّر ظهور التجربة الواعية.»[3] وردًا على السؤال عن سبب نشوء الوعي (المفسّر بشكل ثنائي)، يعترف ديفيد بابينو David Papineau [4] قائلًا: «**يبدو أنّ نظريات الوعي الفيزيائية لا تقدّم أيّ إجابة على هذا السؤال.**»[5] الحلّ الذي يقدّمه بابينو هو **إنكار حقيقة الوعي كظاهرة عقليّة حقيقيّة**[6].»[7]

إنّ الطبيعانيّة لم تقتصر على التشكيك في قدرة الدماغ على إدراك الحقيقة، أي عقلانيّة العقل، وإنّما بلغت ما هو أشنع من ذلك، وهو التشكيك في الحالات الذهنيّة كلّها، حتّى الانفعالات (الرغبة والخوف، والوجع، واللذة...). وهو الرفض الذي تتبنّاه مدرسة الماديّة الإقصائيّة Eliminative materialism... وكلّ ذلك لأنّ الإخلاص للطبيعانيّة ينتهي إلى أزمة تفسير البدهيات.

واسمحْ لي مرّةً أخرى أن أعود لأؤكّد أنّنا أمام ثنائيّةٍ حصريّة، إمّا الدماغ-العقل وإما الدماغُ المحكوم بالروح؛ فإنْ رفضْتَ الرؤيةَ الفيزيقانية الإلحاديّة، لزمك القولُ بالرؤية الدينية؛ ليكون العقل بذلك حجّةً للإيمان. وهو ما أقرّ به الفيلسوفُ **الملحد** جوليان باجيني Julian Baggini [8] في كتابه المبسَّط الشهير عن الإلحاد «الإلحاد: مقدّمة قصيرة جدًا» في حديثه عن إشكاليةِ تفسيرِ ظاهرة الوعي الإدراكي: «ما هو

(1) Colin McGinn, *The Problem of Consciousness* (Oxford: Basil Blackwell, 1991), pp.10-11.

(2) ديفيد تشالمرز (1386هـ/ 1966م-): فيلسوف أسترالي. أستاذ الفلسفة وعلم الأعصاب في New York University. له عناية بفلسفة العقل وفلسفة اللغة.

(3) David Chalmers, *The Conscious Mind* (New York: Oxford University Press, 1997), p.93.

(4) ديفيد بابينو: فيلسوف بريطاني. درّس في في جامعة كامبردج وغيرها. له عناية خاصة بفلسفة الوعي ونظرية المعرفة.

(5) David Papineau, *Philosophical Naturalism* (Oxford: Blackwell, 1993), p.119.

(6) Ibid., 106, 114-18, 120, 121, 126.

(7) J. P. Moreland, *Consciousness and the existence of God: a theistic argument* (New York: Routledge, 2009), pp.192-193.

(8) جوليان باجيني (1388هـ/ 1968م-): فيلسوفٌ بريطاني وناشط ملحد في «الجمعية الإنسانوية البريطانية». مؤسس مَجلة The Philosophers' Magazine.

أفضل ما يفسر العَلاقةَ بين الوعي ونشاط الدماغ ... الفرضيةُ الإلحادية القائلة بأنّ الوعي هو نِتاجُ نشاط الدماغ، أم حكايةٌ غيرُ معقولة عن وجودِ أرواحٍ غيرِ مادية إلى جانب الأدمغة وتتفاعل معها بطريقةٍ ما ».[1]

والروح شيء يأبى أن يكون صنيعة العبث؛ فإنّها تشير إلى القدير العليم في كلّ أمرها؛ فرغم أنّنا نجهل كنهها، إلّا أنّ تعلّقها بالوعي بالكون، وبما وراءه، دال على أنّها أثر عن خالق عظيم. قال ابن الجوزي: «من أكبر الدليل على وجود الخالق سبحانه هذه النفس الناطقة المميّزة، المحرّكة للبدن على مقتضى إرادتها، والتي دبّرت مصالحها، وترقّت إلى معرفة الأفلاك، واكتسبت ما أمكن تحصيله من العلوم، وشاهدت الصانع في المَصنوع، فلم يحجبها ستر، وإن تكاثف! ولا يعرف مع هذا ماهيتها، ولا كيفيتها، ولا جوهرها... ولا كيف تعلّقت بهذا الجسد؟ وهذا كله يوجب عليها أن لها مدبّرًا وخالقًا، وكفى بذلك دليلًا عليه».[2]

- الرؤية الطبيعانية لا تعرف غير المادة لصناعة الفكرة
- مادة الفكرة في الرؤية الطبيعانية هي الدماغ وما تنقُله الأعصاب إلى الدماغ من مادةٍ معلوماتية بدائية
- المادة لا تُنتج رؤيةً عاقلة لأنها تحتاج -ضرورةً- إلى مُوجِّهٍ عاقل
- العقل الواعي يحتاج إلى شيءٍ فوق طبيعي يقود الدماغ
- هذا الشيء فوق الطبيعي هو ما يسميه المؤمنون والملاحدة الرُّوح
- يتفق عامة المؤمنين والملاحدة على أنّ الإيمان بالروح فرعٌ عن الإيمان بالله

= الإيمان بالعقل والعقلانية لا يصحّ إلّا بالإيمان بالله

(1) Baggini, *Atheism: A Very Short Introduction* (Oxford University Press, 2003), p. 30.

(2) ابن الجوزي، صيد الخاطر (دمشق: دار القلم، 1425هـ/ 2004م)، ص265.

ب. امتناع الإيمان بالعقل دون إرادة حرّة

إلحاديًّا، الكونُ هو مجموعُ لبِناته الصغرى، الذرّات -أو أيّ عنصر مادي آخَرَ تتكون منه الأجسام الكبرى-، ولا شيء غير ذلك. والكلُّ خاضعٌ للذرّات وقوانينها؛ لأنّ الكون صُندوقٌ مغلق؛ فلا شيء يصدر إليه من الخارج، وقوانينُه جبريّةٌ؛ من الممكن معرفةُ منتهاها منذ مبتدئها؛ فإنّ الحركات القهريةَ غيرَ الإراديّة تصنع الأحداثَ؛ فلا خيار.

ولا يخرج الإنسان عن قوانين القهر التي تمنعه الاختيارَ والخيار؛ فهو محكومٌ بجبرياتٍ ثلاث، جبريّة بيولوجيا الجسد وكهرباء الدماغ، وجبرية قوانينِ فيزياء الكون الذي يحيط به، وجبرية قوانينِ البيئة التي يسكنها وأحداثها التي تمسّه (الإنسان وبقيّة أشياء المجتمع). كلُّ تلك الجبريات تمنعه ضرورةً أن يختار. . ولذلك لم يجد عالم النفس **الملحد** دانيال ويجنر Daniel Wegner [1] حرجًا في أن يسمّي أهم كتبه: «**وهم الإرادة الواعية**».[2] فالوعي مجرّد وهم، كَسَراب بِقِيعة، إذا دنوت منه لن ترى غير أسلاك الأعصاب تتمايل كأنّها رؤوس الشياطين!

والجَبْرُ الأعظم الذي يقود الإنسانَ، هو جبرُ الدماغ؛ فإنّ الدماغ أداةُ النظر العقلي، وهو الذي يقود الملحدَ إلى الرؤية «التنويرية الإلحادية». فالعقل إلحاديًّا هو الدماغُ، وهو جبريٌّ وأعمى لا يخرج عن دائرة التفاعل المقطوعة صلتها بالمعنى والحق والصواب والخير والفضل. وهي جبريّةٌ ماديّة عمليّة من جهتين، جهة حقيقة العمليّة العقليّة، وجهة حصيلة هذه العمليّة.

- العملية العقلية: تفاعلاتٌ ماديةٌ داخليّة صِرفة.

---

(1) دانيال ويجنر (1367-1434هـ/ 1948-2013م): أستاذ علم النفس في جامعة هارفارد وعضو الأكاديمية الأمريكية للفنون والعلوم.

(2) The Illusion of Conscious Will

- حصيلة العمليّة العقليّة: مجموعة أوامرَ عصبيّة تنتج منها «أفكارٌ» و«مشاعرُ». وبفكِّ هذه الحُزمةِ من الأوامر؛ سنجد أنّ كلَّ نبضةٍ عصبيّة وحدها لا تحمل فكرةً، وإنّما هي محضُ تفاعلٍ ماديٍّ صِرف.

وما سبق عبّر عنه فيلسوفُ العلوم الشهير، **الملحد**، ألكسندر روزنبرج، بقوله إنّ الدماغ ما هو إلّا مجموعُ عصبونات، وكلُّ عصبون يعمل بشكل فرديٍّ، في إطارِ تعاونٍ مشترَكٍ مع بقيّةِ العصبونات. ولو أنّا حَلَّلْنا عملَ كل عصبونٍ بمفرده؛ فلن نجد فيه فكرةً أو بعضَ فكرةٍ؛ فمنتَجُه ماديٌّ صِرفٌ. وأمّا إذا جمعت الصُّورة كاملةً؛ بدَتْ كأنّنا نفكر في شيءٍ ما، وإنْ كنا في الحقيقة لا نفكر في شيءٍ خارجَ أدمغتنا.[1] ولذلك كان الإيمان بالإلحاد الطبيعاني طريقًا ينتهي ضرورةً إلى إلغاء الإرادة الحرة، ومنها إرادةُ العقل في التفكير العقلاني. وهو تلازُمٌ يظهر في قول المفكّر النوبليّ برتراند راسل Bertrand Russell [2] القائل: «العقيدة الأولى التي **تحوّلت عن الإيمان بها هي عقيدةُ الإرادة الحرة.** فقد بدا لي أن جميع مفاهيم المادة تحدّدها قوانينُ الديناميكا، ومن ثَمّ لا يمكن أن تتأثر بالإرادة البشرية».[3]

إنّ الزعم أنّ الإلحاد رؤيةٌ عقلانية، يقتضي وجودَ عقل يفكّر -ضِمن الرؤية الإلحاديّة الكونيّة-. وقد علمتَ أنّ الإلحاد مؤمنٌ بالدماغ لا العقل؛ فالعقلُ على الحقيقة لا يكون عقلًا إلّا إذا كان يعقل (=يحبس) الإنسانَ عن الباطل والشرّ، ولن يحبِسَه عن التورّط في المهالك والسقوط في المهاوي إذا كان عاجزًا عن أن يختار ذلك بإرادةٍ حرّة. ألا ترى أنّ الإبل والضباع والظباء تملك أدمغةً ولا تملك عقولًا،

(1) Alexander Rosenberg, *The Atheist's Guide to Reality* (New York: W.W. Norton, 2011), pp.190-191.

(2) برتراند راسل (1289-1390هـ/1872-1970): فيلسوفٌ وعالم منطقٍ ورياضيات بريطانيٌّ. أحدُ أعلام الفلسفة التحليليّة. حاصلٌ على جائزة نوبل للآداب.

(3) Bertrand Russell, Kenneth Blackwell, *The Collected Papers of Bertrand Russell: A Fresh Look at Empiricism 1927-42* (London: George Allen & Unwin, 1983), p.11.

وأنّ الأنثروبولوجيين يسمّون البشرَ الحالي بالإنسان العاقل على خلافِ بقيّة الأناسيّ السابقين -على فهم القوم لتاريخ الأحياء؟!-.

إنّ إلغاء الإرادة الحرة للدماغ أمر جلل، جَنَاه الفناء؛ إذ يلزم عنه تلاشي «الأنا»؛ فلا شيء؛ وبذلك يذوب الإنسان في حوامض الجبريّة، وتنتفي ذاتيّته في أسر وِثاق الكيمياء. وهي حقيقةٌ ألزمَت عالمةَ النفس **الملحدةَ** سوزن بلكمور Susan Blackmore [1] أن تقول: «إنّ «الذات» ليست هي المبتدِرة للأفعال، فهي لا «تملك» الوعي، ولا «تقوم» بالتدبير. لا توجد حقيقةٌ لفكرةِ وجود «ذاتٍ» داخلية في جسدي تتحكم فيه وتكون واعيةً. وبما أنّ هذه الفكرةَ زائفةٌ، كذلك فكرةُ أنّ ذاتي الواعيةَ لديها إرادةٌ حرة هي فكرةٌ زائفة... **الإرادةُ الحرة وهمٌ، مثل «الذات» التي «تمتلكها»**».[2]

إنّ القول إنّ إلغاء الإرادة نتيجةٌ ضرورية لمذهب الملاحدة؛ قولٌ عليه عامةُ أعلام الإلحاد الشرس اليومَ، ولا أستثني منهم ريتشارد داوكنز الذي أجاب مَن سأله في محفلٍ عام: «هل يوجد أساسٌ علمي لحريّة الإرادة؟»، بقوله: «لديّ نظرةٌ مادية للعالم. أعتقد أن الأمور تتشكّل بطريقةٍ عقلانية من خلال أحداثٍ سابقة. وهذا يُلزِمني بوجهة النظر القائلة بأنّني عندما أعتقد أن لديّ إرادةً حرة، أي **عندما أعتقد أنني أمارس الاختيارَ الحر، فأنا أخدع نفسي. فحالاتُ دماغي تحددها الأحداثُ المادية**».[3]

ويشرَح سام هاريس Sam Harris [4] -عالِمُ الأعصاب وأحدُ «الفُرسان الأربعة للإلحاد الجديد»- سلطانَ الأسباب السابقة -الماديةِ وغيرها- على الإرادة، بما يجعل الإرادةَ الحرة خرافةً، بقوله في كتابه «حريّة الإرادة»: «**الإرادةُ الحرة وهمٌ.**

---

(1) سوزن بلاكمور (1370هـ/ 1951م–): عالمةُ باراسيكولوجيا بريطانيّة، غزيرةُ التّأليف.

(2) Susan Blackmore, *The Meme Machine* (Oxford University Press, 1999), pp. 236-237.

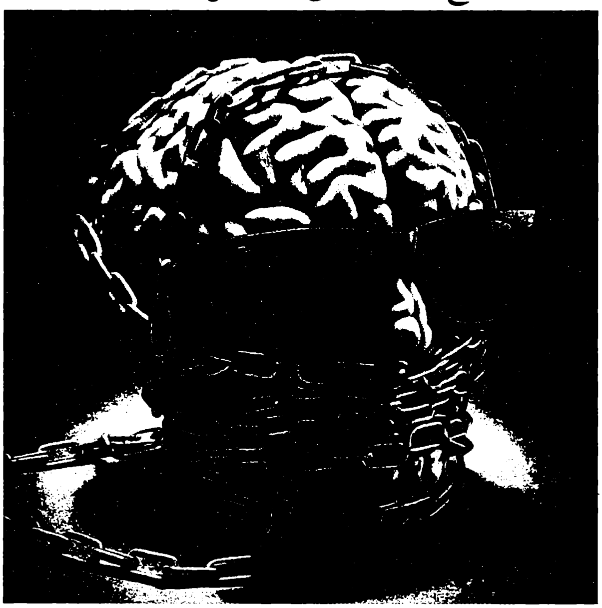
(3) Richard Dawkins, Q&A, Something from Nothing: Richard Dawkins and Lawrence Krauss, ShirleyFilms, 02-04-2012

(4) سام هاريس (1387هـ/ 1967م–): عالمُ أعصابٍ أمريكيٌّ. له اهتمام خاصٌّ بعَلاقة علم الأعصاب بالوعي والأخلاق. نال شعبيّةً كبيرةً بعد نشره كتابَه: «نهاية الإيمان».

فإرادتُنا ببساطةٍ ليست من صُنعنا. إنّ الأفكار والنياتِ تنبثق من أسبابٍ خلفيّة لا نُدرِكها ولا نمارس عليها أيَّ سيطرةٍ واعية. نحن لا نملك الحريةَ التي نعتقد أننا نملكها. فالإرادةُ الحرة هي في الواقع أكبرُ من مجردِ وهم (أو أقل من ذلك)؛ إذ إنه **لا سبيل لجعلها متماسكةً مفاهيميًّا**. فإمّا أن تكونَ إرادتُنا محدّدةً بأسبابٍ مسبقة ونحن لسنا مسؤولين عنها، أو تكونَ نتاجَ الصدفة ونحن [لا نزال] لسنا مسؤولين عنها».[(1)]

إنّ **الإنسان عندما يفقد الإرادةَ الحرّة، يفقد عقلَه ضرورةً**؛ فما الأفكار والمبادرات والمراجعات والمحاججات والانتقادات والقناعات إلّا آثارُ العقل، وبغيرها لا عقل ولا إنسان. والعقلُ الذي لا إرادة له، لا يتجاوز أمرُه حالَ الآلة، لا تفهَم حقيقةَ الخيارات، ولا تُحسِن التمييزَ بينها، ولا ترجيحَ الأَولى والأرقى والأنجع والأحلى ثمرة.

المخ إلحاديًا، أعمى، ومسلسل؛ فلا فكاك



(1) Sam Harris, *Free Will* (New York: Free Press, 2012), p.5.

ولذلك كتَب فيلسوفُ العلوم كارل بوبر karl Popper [1] في بيان النقض الذاتي لفكرةِ نفيِ حريّة الإرادة: «إنّ نظريةَ الحتميّة الفيزيائية إذا كانت صحيحةً، **فلن تكون قابلةً للمناقشة**، لأنه يجب أن تفسّر كلّ ردودِ أفعالنا على أنها ناتجةٌ من ظروفٍ فيزيائية بحتة، بما في ذلك **ما يبدو لنا كمعتقداتٍ مبنيّة على حُجج**».[2] **فالكشفُ عن امتناعِ وجودِ إرادةٍ حرّة يحتاج إلى إرادةٍ حرّة** ليكون العقلُ قادرًا على التفكير الحرّ للوصول إلى فهم موافِق للواقع. وأمّا الدماغُ الجبري، الفاقدُ للإرادة الحرّة، فغيرُ قادر على التفكير ابتداءً.

ومن المدهش بحقّ أن نقرأ عن محاولات إلحاديّة لتجاوز مشكلة غياب الإرادة الحرّة؛ بالإقرار بها والتسليم في الآن نفسه أنّه علينا أن نقبل ظاهرًا الوهم على أنّه حقيقة. ومن ذلك تصريح مارفن مِنسكي Marvin Minsky –المتخصّص في علوم الإدراك Cognitive science– أنّ الدماغ ليس إلّا جهاز كمبيوتر من «لحم» وزنه ثلاثة أرطال؛ ولذلك فلا معنى للحديث عن إرادة حرّة في هذا السياق، ولكن علينا ألّا «نستسلم. **نحن مجبرون فعليًا على الحفاظ على هذا الاعتقاد، على الرغم من أنّنا نعلم أنّه خطأ»!**[3]

إنه لا حلّ لأزْمة العقلانية التي ركِبها الملاحدةُ لتكون طريقَهم إلى الإلحاد، إلّا نفيُ الجبريّة الماديّة. ولكن لا سبيل لنفي الجبريّة الماديّة في كَونٍ ماديّ كليّةً. ولذلك فالحلُّ الوحيد لاستنقاذ العقلانيّة، هو إضافةُ مُعطًى دينيٍّ يعارض الإلحادَ المادي، وهو افتراضُ وجودِ عنصر له دورٌ في العمليّة العقليّة، هو ما يسمّيه المسلمون الرُّوحَ أو النفسَ –على اختلافٍ في ضبط الفارق بين الروح والنفس بين علماء الإسلام–، فهذه الروحُ هي المكلَّفةُ دينيًّا على الحقيقة، وأمّا الجسدُ فمجرّدُ تابعٍ. وهذه الروحُ لا تملك

(1) كارل بوبر (1320–1415هـ/ 1902–1994م): فيلسوفٌ نمساويٌّ له مساهماتٌ بارزةٌ في فلسفة العلوم في القرن الماضي.

(2) Karl Popper, *Objective Knowledge: An Evolutionary Approach*, (Oxford University Press, 1972), p. 223.

(3) Marvin Minsky, *The Society of Mind* (New York: Simon & Schuster, 1986), p.307.

أن تتذرّعَ يومَ القيامة بجبرِ قوانينِ المادة؛ لأنها مُنحَت ملَكةَ الاختيار والمفاضلة، حتّى مع وجودِ إكراهات البيولوجيا والكيمياء.

- دعوى الملاحدة: العقلانيةُ تقود إلى الإلحاد ضرورةً
- العقل أصلُ العقلانية
- العقل هو العملُ الحر للوصول إلى الحق
- الدماغ أداةُ التفكير الوحيدة إلحاديًّا
- الدماغ في وجودٍ مادي صِرف عاجزٌ عن التفكير الحر
- الرُّوح أو النفس ضمانةُ وجود العقل الحر
- الروح والنفس لا توجدان إلّا بوجود الله -كما هو قولُ عامة الملاحدة-
- وجود العقل رهينٌ بوجود الله

= وجودُ العقل دليلٌ على وجود الله

ت. امتناع الإيمان بالعقل الحيواني دون تكريمٍ إلهي

قال الفيلسوف **الملحد** جون غراي John Gray في لقاءٍ صحفي معه: «العقلُ البشري مثل أيِّ عقلٍ حيواني آخَرَ. وإذا كانت الداروينيةُ صحيحةً، وأعتقد أنها أقربُ تفسيرٍ لدينا للحقيقة المتعلّقة بكيفية مجيء البشر إلى العالَم، **فجميعُ جوانبِ الحيوان البشري -عندها- تتشكّل طِبقًا لضرورات البقاء. وهذا يشمل العقلَ البشري**، لذلك هناك مَيلٌ عميق الجذور في العقل البشري لرؤية العالم بطرقٍ تعزّز بقاءَ الإنسان. **والميلُ إلى الاستحواذ على العقل والعقلانية** [عند مَن يدَّعون العقلانيةَ] **يُغفِل هذه الحقيقةَ**».[1]

(1) Why science can't replace religion John Gray on the myths the "New Atheists" tell themselves. Vox. com. Nov 4, 2018.
<https://www.vox.com/2018/10/30/17936564/new-atheism-religion-science-god-john-gray>.

وقد اكتشَف هذه المعضلةَ المخيفة في وقتٍ مبكّرٍ من عمر النظريّة الداروينيّة داروين نفسُه؛ فقد كتَب في رسالةٍ له أرسلها سنةَ 1881م إلى شخصٍ اسمُه ويليام غراهام: «عندي شكٌّ دائم في أن تكون لقناعاتِ عقل الإنسان -التي تطوَّرت من حيوانات أدنى- أيُّ قيمةٍ أو أن تستحق التصديقَ أصلًا. **هل بإمكان أيٍّ منَّا أن يصدِّق قناعاتِ عقلِ قردٍ، إنْ كانت هناك أصلًا قناعاتٌ في مثل ذلك العقل؟**».[1]

وليست مسألة التطابق النوعي شبه التام بين عقل الإنسان وعقل القرد، دعوى شاذة اليوم؛ بل كما يقول همفري: «من أكثر الافتراضات التي **يعتزّ بها علم النفس المعاصر** ... [القول إنّ] عقول القردة وعقول البشر هي في الواقع من النوع والشكل نفسه، وإنّه **لا توجد فجوة نوعيّة كبيرة بين طُرُق البشر في تفسير العالم وطرق القردة في ذلك**، وإنّ **القردة في الواقع مثلنا تمامًا**، ولكن أقل منّا».[2]

إنّنا -في الرؤية الطبيعانية الداروينية- أثرٌ لانتخاب طبيعي أعمى، غايته الوحيدة تحقيق البقاء، لا إدراك العالم. فإنّ تطوّرنا مَدِين -كما قيل- لأربعة محرّكات كبرى، هي الاغتذاء، ومغالبة الخصوم، والفرار من الخطر، والجنس والتناسل. وليس من بين هذه المحرّكات فهمُ العالم على حقيقته لمجرّد المتعة الذهنيّة أو النجاح في اختبارات الذكاء IQ Test.

ويشرح ج. أندرسون تومسون J. Anderson Thomson -الطبيب النفسي التطوّري، وأحد المشرفين على مؤسسة داوكنز لنشر الإلحاد- في كتابه «لماذا نؤمن بإله/ آلهة» الذي كتبه لتفسير الظاهرة الدينية من زاوية تطورية، شارحًا حقيقة العقل داروينيًا أثناء ذلك:

«إنّ كلّ كائن حيّ، بما في ذلك الإنسان، هو مجموعة متكاملة من التكيّفات -

---

(1) To William Graham, 3 July 1881

نص رسالة (داروين) كاملًا:

<https://www.darwinproject.ac.uk/letter/DCP-LETT-13230.xml>.

(2) Cited in: Raymond Tallis, *Aping Mankind: Neuromania, Darwinitis and the Misrepresentation of Humanity* (Durham: Acumen Pub., 2011), p.147.

أجهزة لحل المشاكل - التي شكّلها الانتخاب الطبيعي على مدى فترات زمنية تطوريّة شاسعة. يعزّز كل تكيّف بطريقة ما بقاء الجينات التي وجّهت بناء تلك التكيّفات. إنّنا نرى عمل الانتخاب الطبيعي الداروِيني على كلِ مستوى، من **الجزيئات إلى العقول....**

ينطبق التفسير الداروِيني الحديث أيضًا على العقل البشري والدماغ البشري. فالدماغ هو [مجرّد] عضو، وكما يلاحظ عالم النفس والباحث في جامعة هارفارد ستيفن بينكر، فإنّ العقل هو ما يفعله الدماغ. والدماغ، مثله مثل أيّ قطعة أخرى من الأنسجة الحيّة، هو مجموعة متكاملة بصورة بارعة من الأجهزة **المصمّمة من خلال الانتخاب الطبيعي لحل مشاكل محدّدة للبقاء على قيد الحياة على مدى فترات زمنية تطوريّة شاسعة.** وقد تطوّرت هذه التكيّفات -بما في ذلك التكيّفات الاجتماعية التي ساعدتنا على البقاء على قيد الحياة في مجموعات صغيرة- داخل الدماغ لتعزيز استمرار الجينات التي وجّهت بناءها بطريقة ما...

تشكّلت هذه التكيفات لحل مشاكل اجتماعية وشخصيّة محددة مع تطور البشرية. وبشكل عرضي تقريبًا، ولكن ليس أقل قوة، تجتمع معًا لبناء أساس **كل فكرة ومعتقد** وطقس ديني».[1]

لا شكّ أنّك لاحظت «ظرافة» التفسير الداروِيني الذي يبغي إبطال الإيمان بالله -سبحانه-، بتفسيره تفسيرًا ماديًا عَرَضيًّا، بالنظر في تاريخ التكيّف الجينيّ، معمّمًا الحكم على كلّ «فكرة في الدماغ» أنّها مجرّد أثر للطبيعة البيولوجيّة للإنسان.. ثم يغفل هذا الداروِيني نفسه أنّ الإلحاد «فكرة» استنبطها بشر، وراجت بقوّة في مجتمعات تقرّر اليوم أنّها تجد فيها تكيّفًا[2] أفضل مع البيئة.. والتكيّف مسألة تتعلّق

(1) J. Anderson Thomson, *Why We Believe in God(s) A Concise Guide to the Science of Faith* (Pitchstone Publishing 2014), Ebook version.

(2) التكيّف الداروِيني المؤثّر في البقاء، أوسع من التكيّف البيولوجي الصرف؛ فهو يشمل التكيّف الاجتماعي وغيره.

بالقدرة على تحقيق البقاء لا إصابة الحق. فلِم استثنى «صاحبنا» الإلحاد من حكم «الوهم التطوّري»؟!

إنّه لا تلازم بين «طلب البقاء» و«طلب الحقيقة»؛ فإنّ الانتخاب الطبيعي قد ينتقي صفات تجعلنا نؤمن بخرافات وأباطيل وأساطير، ونتعلّق بها بحرارة، ونتشبّث بها بعنف، ونلتصق بها بحميميّة؛ لأنها تُعِين على تحقيق البقاء بصورةٍ أعظمَ من إدراك الحقيقة، أو بعبارةِ ألكسندر روزنبرج **الملحد**: «الانتخابُ الطبيعي ليس جيدًا في انتقاء المعتقدات الصحيحة»، فإنّ «هناك حجةً قويّة على أن **الانتخاب الطبيعي يُنتج كثيرًا من المعتقدات الباطلة والمفيدة**».[1] وهو ما شرحه الفيلسوف تشارلز بيرس Charles Peirce بقوله: «ربّما كانت أكثر فائدة للحيوان هي أن يمتلئ ذهنه بالرؤى السارة والمحفّزة بصرف النظر عن حقيقتها؛ وهكذا ... **قد يُحدث الانتخاب الطبيعي ميلًا فكريًا فاسدًا**».[2]

إنّ عقل القرد المتطوّر لاحقًا ليصبح عقل إنسان، غير جدير بالثقة؛ لأنّ آلية إنتاجه لم تتّجه عند صناعته إلى طلب الحقيقة، وإنّما إلى طلب البقاء؛ فمطلبُها ليس إبستيمولوجيًّا وإنّما هو مطلبٌ بيولوجي صِرف. ولذلك فالبيولوجيا لا يمكن أن تشرح أصل العقل خارج نطاق طلب الحقيقة، ثم يكون هذا العقل -في الآن نفسه- طريقنا إلى الحقيقة!!

وقد كانت مشكلة عقل الإنسان وعلاقته بدماغ القرد سؤالًا حيًّا في عصر داروين؛ فقد صرّح الأنثربولوجي ألفرد راسل والس Alfred Russel Wallace [3] -أبو التطوّر، والذي عاصَرَ داروين- أنّ قبول عموم التطوّر البيولوجي يجب ألّا يكون حجّة لتفسير

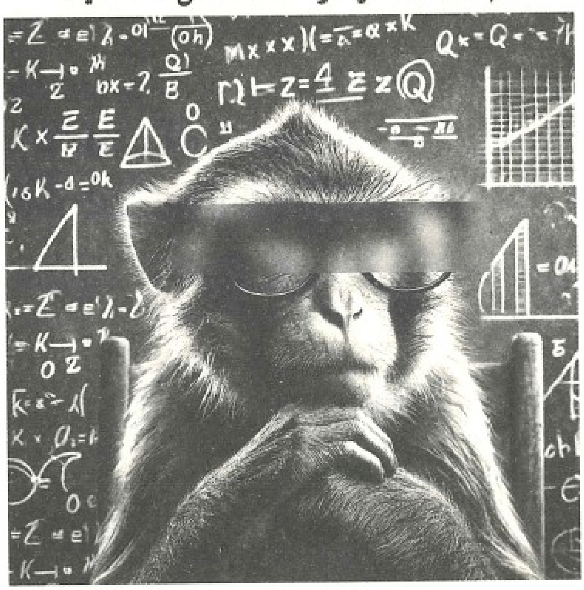
(1) Alexander Rosenberg, *The Atheist's Guide to Reality*, pp.110-111.

(2) Charles Peirce, "The Fixation of Belief," *Popular Science Monthly* 12 (November 1877): 3.

(3) ألفرد راسل والس (1238-1331هـ/ 1823-1913م): أنثروبولوجيٌّ وعالم بيولوجيا بريطانيّ. كانت له عناية خاصّة بدراسة التّوزيع الجغرافيّ للحيوانات.

الطبيعاني للعقل الإنساني؛ إذ إنّ الانتخاب الطبيعي مرتبط حصرًا بخدمة الحاجات الطبيعيّة الضروريّة لكلّ نوع، دون تجاوز ذلك. «فالانتخاب الطبيعي لا يملك إلّا منح «الإنسان المتوحش» عقلًا يفوق قليلًا عقل القرد، في حين أنّ هذا «الإنسان المتوحّش» قد امتلك في الواقع عقلًا أدنى قليلًا جدًا من عقل الفيلسوف». ولذلك قال إنّ **العقل الإنساني يدلّ ضرورة على وجود الله.** وحجّته أنّ الدماغ البشري، حتّى في عصر «الإنسان المتوحّش» -بعبارته- بعيد بصورة واضحة عن أدمغة الحيوانات المتطوّرة عن أسلاف. **إنّ هذا الدماغ فيه زيادة صنعة للتفكير في غير أسباب البقاء، والنظر في الفلسفة والعلوم.** ولذلك انتهى إلى القول: « **لقد وَجَّهَ ذكاءٌ أسمى [=إله] تطوّر الإنسان في اتجاه محدّد، ولغرض خاص**».[1]

الإنسان المفكّر، قرد مختلف عن سلفه قليلًا



(1) Alfred Russel Wallace "The Limits of Natural Selection as Applied to Man." in *Contributions to the Theory of Natural Selection: A Series of Essays* (London, United Kingdom: Macmillan,1870), p.359.

- في الرؤية الإلحادية الطبيعانية، الإنسانُ مجرّدُ حيوانٍ مُتَرَقٍ عن قرد (القرد الجنوبي).
- عمليّة التطوّر تشمل الدماغَ (وغيرَه).
- الدماغ متطوّرٌ بآليةٍ طبيعيانيّة صِرفة، غايتُها انتقاءُ ما يحقّق البقاءَ لا ما يوصلنا إلى فهم العالَم وأنفسِنا بصورةٍ صحيحة (العقل العاقل).

= رفضُنا لعقلانية القردة يجب أن يقترن برفضِ عقلانية الإنسان.

ث. التشكيك الإلحادي في العقل فرارًا من الإيمان بالله

الفِصامُ الذهني الذي يعانيه رؤوسُ الإلحاد شديدٌ. وللأسف، لا ينتبه الملحدُ الشعبي عادةً لهذا الأمر. ومن أعظمِ أوجُهِ هذا الفِصام، ما تجده من تكرارٍ بالغٍ في الخِطابات الدعوية الإلحاديّة لاقتران الإلحاد بالعقلانية، أو المآلِ الإلحاديّ الضروري للقول بالعقلانيّة، رغم أنه يكثُر في الخطاب الإلحادي التشكيكُ في العقل، بل اتهامُ المؤمنين بالله بالسذاجة؛ لأنهم «لا يزالون» مؤمنين بالعقل!

ولا يجهل أحد اليوم أنّ الفلسفة ما بعد الحداثيّة Postmodern philosophy المهيمنة على مساحات كبيرة في الغرب، إلحاديّةٌ. وهي قائمة على النسبويّة المعرفيّة، وترفع شعار نهاية الحقيقة The end of Truth، وتزهو بنهاية العقل The end of Reason، وتهزأ بكلّ من يتحدّث عن «الحقيقة»، وأحاديتها، وتتّهمه بالدوغمائيّة، وترى أنّ لكلّ امرئ «حقيقته». وهذه الحقيقة ليست هي «مطابقة ما في الأذهان لما في الأعيان»، وإنما هي ما يرضاه ذوق المرء، أي ما يستحسنه هواه. وهي الفلسفة التي تنادي في كل حوار مجتمعي بالعبارة المكرّرة -إلى درجة الإملال-: «ما هو حقيقة عندي، هو حقيقة بالنسبة لي، وما هو حقيقة عندك، هو حقيقة بالنسبة لك» «What is true for me is true for me, and what is true for you is true for you». وتقدّس شعار: « لا توجد حقائق، وإنّما فقط تأويلات» «There are no facts, only interpretations»؛ فالواسطة بيننا وبين الواقع، أفهام نسبيّة، ومجرّد تأويلات؛ فلا تماس.

إنّ العقل هو «عمليةُ التفكير العقلي»، و«مآلُ النظر العقلي»، وقبل ذلك «أصولُ النظر العقلي»؛ فالعقلُ اصطلاحٌ يُطلَق على معانٍ مختلفة، تعود إلى المعاني الثلاثة السابقة. والمقصودُ بأصول النظر العقلي، البدهياتُ العقلية التي يقوم عليها كلُّ النظر العقلي، وهي أربعة:

1- **مبدأ الماهية** Law Of Identity: كلُّ شيءٍ هو نفسُه: (أ) هو (أ). مثال: أحمد (الشخص المعيَّن الذي يحمل اسمَ أحمد) هو ذاتُه أحمد.

2- **مبدأ عدم التناقض** Law of noncontradiction: كلُّ شيءٍ هو غيرُ غيرِ نفسِه: لا يمكن أن يكونَ (أ) هو (أ) و(غير أ) في الآنِ نفسِه، وفي العَلاقة نفسِها؛ أي الموحَّدَين في ظروفهما. وهذا أهمُّ مبدأٍ عقليّ، وكلُّ المبادئ العقلية الأخرى تعود إليه. مثال: أحمد لا يمكن أن يكون هو نفسُه غيرَ أحمد، كأن يكون مصطفى أو عكرمة.

3- **مبدأ الثالث المرفوع** Law of excluded middle: الشيءُ إما نفسُه وإما غيرُ نفسِه: إما (أ) وإما (غيرُ أ)؛ فالوسَطُ بينهما مُستبعَدٌ. ولا يمكن للنقيضين ألّا يوجد أحدُهما. مثال: أحمد موجودٌ أو غيرُ موجود، ولا يوجد احتمالٌ ثالث؛ فلا بد أن يكون أحدَهما لا غيرَهما.

4- **مبدأ العلّة الكافية** Principle of sufficient reason: هو -في أعدلِ الأقوال-: لكل شيء تفسيرٌ لوجوده، إما من خارجه أو بسبب طبيعته. ويتفرع عن مبدأ العلة الكافية قانونُ السِّنْخِيَّة الذي يكشِف طبيعةَ السبب في طبيعة الأثر؛ فالقصيدةُ البارعة دالَّةٌ على شاعر بارع، والصَّنعةُ المتقَنة أثرٌ عن طبيعة الإتقان عند الصانع، ﴿ قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾ [الإسراء: 84].

ولا يمكن للعقل البشريّ أن يعمل دون اعتمادِ المبادئ الأربعة السّابقة، حتّى لو أراد أنْ يشكَّ في كلِّ شيء؛ فكلُّ شكٍّ محكومٌ بمبدأ الماهيّة وعدمِ التناقض والثالثِ

المرفوع والعلةِ الكافية. والهروبُ من العقل بالعقل؛ ركونٌ إلى العقل؛ وذاك تناقضٌ ينفي طرفَيه. يقول سي. أس. لويس: «إذا كانت قيمةُ التفكير محلَّ شكٍّ؛ فلا سبيل لك لتثبت ذلك بالنظر العقلي... العقلُ هو نقطةُ البداية لنا، ولا معنى لمهاجمته أو الدفاع عنه. **وإذا كنتَ بمعاملتك للعقل كظاهرةٍ تضع نفسَك خارجه، فلا حلَّ لك عندها إلَّا أن تصادر على مطلوبك بأنْ تدخله مرَّةً أُخرى**»[1].. إنّك لن تستطيع أن تُحاكِمَ عقلَك من خارجه؛ فأنت أسيرُه، وكلُّ محاولةٍ لنقض آلةِ التّفكير تقوم على آلة التّفكير.

والقارئُ للأدبيّات الإلحاديّة الحديثة الطاعنة في أدلّة الإيمان، وعلى رأسها خلق الكون من عدم، والقائمُ على أنه لا بد لكل حادثٍ (= شيء مسبوق بعدمِ نفسِه) من مُحدِث، يرى أنّ عامة الملاحدة يشكّكون في هذا الدليل من جهة التشكيك في أصول العقل الأربعة كلها؛ فهم يشكّكون في السببيّة؛ بالقول إنّ فيزياء الكم قد أثبتت أنّ الإلكترونات قد تظهر وتختفي في الفراغ (الكمومي) دون سبب، كما يشككون في مبدأِ عدم التناقض الذي ينتج منه مبدأُ الماهية ومبدأُ الثالثِ المرفوعِ؛ بالقول إنّ تجربةَ الشق المزدوج double-slit experiment تُثبت أنّ الإلكترونَ يكون في مكانَين اثنين في وقتٍ واحد، كما أنّ الإلكترونَ يحمل طبيعتَين اثنتين، طبيعة مَوجية وأخرى جِسمية.

وأمرُ الخَبال العلمي لا يقتصر على رفضِ أصول التفكير العقلي، وإنّما يزيد على ذلك اختراعَ نظرياتٍ ينكرها العقلُ أو الواقعُ؛ فرارًا من الإقرار بدلائل الإيمان بخالقٍ. ومن ذلك فرارُ فريقٍ من الكوسمولوجيين الملاحدة من حدوث العالم المادي بافتراضِ نموذجٍ كوني فيزيائي يعود فيه الزمنُ إلى الخلف، ومن هؤلاء شون كارول Sean Carroll![2] أو القول إنّ العدم قد انفجر، لتنتج عنه طاقة إيجابيّة وأخرى سلبيّة،

(1) C. S. Lewis, *Miracles* (New York: HarperOne, 1996), p.33.

(2) Sean M. Carroll, "The cosmic origins of time arrows," Scientific American. 1 June 2008. < https://www.scientificamerican.com/article/the-cosmic-origins-of-times-arrow/>

بالقدر نفسه. وهو مذهب يقول به كثير من الكوسمولوجيين من أنصار «المذهب الكمومي الصدفوي»! أو الزعم أنّ الجاذبية بإمكانها أن توجد الكون؛ حتى قبل وجود الجاذبية، كما هو قول ستيفن هاوكنج Stephen Hawking [1]![2]

وهي نماذجُ عجيبةٌ في لا عقلانيتها؛ حتى قال عالمُ الفيزياء النظريّة ويليام غ. أنرو William G. Unrau: «بالنسبة لكل نموذجٍ رياضي صمّمه علماءُ الكون، يحتوي كلُّ نموذجٍ رياضي على الأقل على عنصرٍ أساسيٍ واحد **ليس له نظيرٌ في الواقع المادي أو لا يتوافق مع/ يتعارض مع الواقع المادي**».[3]

وهذا الكفرُ بالعقل في الخطاب الإلحادي، والذي قد علمتَ أنّ من أهم دواعيه طلبَ نقضِ أدلّة الإيمان، دالٌّ بنفسه، وضرورةً، على أنّ العودةَ إلى العقل، تعني قَبولَ الإيمان لُزومًا. فتلازم العقلانيّة والإلحاد خرافة ينقضها البحث في علاقة الرؤية الكونية الطبيعانية بالعقل، كما أنّ نسبة الملاحدة إلى النزوع العقلاني مقارنة بالمؤمنين بالله، محض خرافة. هي دعوى تاب عنها حتّى **التطوّري الملحد** ويل م. غيرفيز Will M.Gervais [4] الذي نشر سابقًا دراسة نشرتها مجلّة Science –الشهيرة– ادّعى فيها أنّ تجاربه[5] قد أثبتت أنّ الذكاء والعقلانيّة والعلم أصل إلحاد عامة الملاحدة.[6] وهي الدراسة التي احتفى بها أنصار «الإلحاد الجديد»، وطاروا بها كلّ مطار. وقد عاد غيرفيز لاحقًا عن دعواه، بعد أن ثبت أنّ الدراسات التي تمّت بعد نشر مقالته

---

(1) ستيفن هاوكنج (1361–1439هـ/ 1942–2018م): عالم فيزياء نظريّة إنجليزيّ شهير. عضو الجمعية الملكية للآداب.

(2) Stephen Hawking and Leonard Mlodinow, *The Grand Design* (New York: Random, 2010), p.180.

(3) Kirk Durston, "The Fantasy of the Gaps Response". 13 Feb. <https://www.kirkdurston.com/blog/2024/2/8/fairydodge>.

(4) ويل م. غيرفيز: عالم نفس أمريكي، متخصص في علم النفس التطوّري الثقافي. يدرّس في University of Kentucky.

(5) experiments

(6) Will M. Gervais, Ara Norenzayan, "Analytic Thinking Promotes Religious Disbelief," *Science* 336,493-496 (2012).

قد عجزت أن تنتهي إلى النتائج نفسها التي انتهى إليها. وقد لخّص حصيلة نظره في قوله: «بعيدًا عن الإخفاقات التجريبية عن تكرار النتائج نفسها، تبيّنَ لي أن **العلاقة بين التفكير العقلاني والإلحاد ضعيفة**، ويختلف أمرها عبر الثقافات».(1)

إنّ النظر في الساحة الفكريّة الغربيّة التي ازدهر فيها الإلحاد -على تفاوت بين البلاد الأوروبية والولايات المتحدة، وبين البلاد الإسكندنافية وغيرها-، يلاحظ هيمنة الخطاب الشعبوي في المسألة الدينية، وغفلة عامة الناس عن أثر العلم في تغيير مسيرة جدل الإيمان والإلحاد. ويكفي أن أضرب لكلّ من الأمرين السابقين مثالًا واحدًا؛ فمن علامات هيمنة الخطاب الشعبوي، شيوع القول بين العامة والمثقّفين إنّ عيسى عليه السلام شخصية أسطورية لم توجد، رغم أنّ الإجماع بين النقّاد المتخصّصين في دراسات «البحث عن يسوع التاريخي» «The Quest of the Historical Jesus» ثابت على الإقرار بتاريخية عيسى عليه السلام.(2) ومن علامات جهل جماهير الغربيين بدلالة كشوف العلم الحديث على الحاجة إلى الإيمان بخالق، الاحتفاء الكبير في فرنسا بصدور كتاب «الله، العلم، الأدلّة»؛(3) فإنّ كلّ ما ساقه مؤلّفا الكتاب من دلالات الفيزياء والبيولوجيا على حاجة الكون إلى خالق، و«مصمّم» -بالعبارة السائدة-، معلوم عند المهتمين بهذه المباحث منذ أكثر من خمسين سنة. وما صُدمت الجماهير إلّا لوقوعها سابقًا في أسر الخطاب الشعبوي الإلحادي، الجامع بين لذاعة النقد وإيهام القرّاء بغير ما يشهد له أهل التخصّصات العلميّة.

---

(1) Will Gervais, Atheism is not as rare or as rational as you think. Big Think. April 15, 2022. <https://bigthink.com/the-well/atheism-rare-rational/ >.

(2) نقل غير واحد من النقّاد الأكاديميين هذا الإجماع، ومنهم بارت د. إيرمان Bart D. Ehrman-الناقد اللاأدري المعروف- في كتابه: «?Did Jesus Exist» الصادر منذ سنوات قليلة. وراجع أيضًا هذا البحث في: سامي عامري، الوجود التاريخي للأنبياء (الكويت: مركز رواسخ، 1442هـ/ 2021م) ص، 215-231.

(3) Dieu - La science Les preuves

وبعيدًا عن ذلك، لا شكّ أنّ العقل الذي يبحث عن تفسير كلّيّ لهذا الوجود، ويربط النتائج بأسبابها، والمقدّمات بغاياتها، ويرفض حسُّ البداهة في صدر صاحبه أن يتمخّض الكون العظيم الهائل عن عدميّة سخيفة؛ لَهُوَ العقل الجدير بالاحترام والإكبار؛ لأنّه يأبى السكون الكسول والاستسلام لعادة طلب اللذّة وإخماد الجَوعة؛ فهو يفكّر بحرارة لا تهمد ولا تخبو، ويطلب المعاني الشريدة، والآفاق البعيدة، بل وما بعد الآفاق التي تبصرها العين. إنّه العقل الذي يأبى أن تأسره هموم الطين اللازب، وتطلب نفسه ربط الأزل بالأبد، بالنظر في السماوات والأرض حتى يُقضى الأجل.

العقل الذي هو حجّة الإلحاد، قائم تصديقه على التصديق بما ينتهي إلى الإيمان!

الخلاصة:

- يزعم الملحدُ أنه اختار الإلحادَ لسببين؛ قيام الإلحاد على الحجّة العقلية، ورفضه قَبولَ أي دعوى إلّا بحجّة.
- امتناعُ أن يكون الإلحادُ عقلانيًّا؛ بمعنى قيامِ كلِّ دعوى على حجّة؛ لاقتضاء ذلك التسلسلَ. والتسلسلُ باطلٌ.
- امتناعُ أن يكون الإلحادُ عقلانيًّا؛ لأنّ الرؤيةَ الماديّة الإلحاديّة تجعل عمليّةَ التفكير غيرَ موثوقٍ بها؛ فهي عمليّةٌ ماديّة صِرفة، لا تتجاوز حقيقتُها التفاعلَ الكيميائي داخل الدماغ.
- امتناعُ أن يكون الإلحاد عقلانيًا؛ لأنّ الدماغَ الإنساني في صورته الحالية أثرٌ عن تطوراتٍ طبيعانية بآلياتٍ عشوائية -وإنْ هذَّبها الانتخابُ الطبيعي- لطلب البقاء لا فهمِ العالَم كما هو.
- لا وجودَ للعقل دون وجودِ الله، فالعقلُ هو الأداةُ التي تدل على الحق، والدماغُ لا ثقة به إذا كان صنيعةَ ذاتٍ غيرِ حكيمةٍ ولا خَيِّرةٍ، أو مجرّدَ أثرٍ عرضي لتطوُّرٍ أعمى.
- يرفع رؤوسُ الإلحاد شعارَ العقلانية رمزًا لمذهبهم، إلّا أنهم عند الدخول في سِجالٍ مع المؤمنين في اللاهوت الطبيعي[1]، يكفرون بمبادئ العقل التي هي العقلُ نفسُه؛ لأنها تدلُّ على وجود الله.

---

(1) اللاهوت الطبيعي Natural Theology: نسَقٌ معرفي يجمع اللاهوتَ والفلسفة. يهتم بالبحث في وجود الله وصفاته اعتمادًا على العقل والتجرِبة البشرية دون الالتجاء إلى نصوص الكتب المقدسة.

العلم، حجةٌ للإلحاد أم للإيمان؟

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد:3]

«ربّما أفضل حجة لصالح الطرح القائل إنّ الانفجار العظيم يؤيّد الإيمان بالله هو التململ الواضح الذي قوبل به من طرف بعض الفيزيائيين الملاحدة. وقد أدّى ذلك إلى ظهور أفكار علمية، مثل (الخلق الدائم) (continuous creation) أو (الكون المتذبذب) (oscillating universe)، وقد تمّ تقديمها بحماسة تفوق بكثير قيمتها الحقيقية، ممّا يلزم المرء بأن يرى دوافع نفسيّة أعمق بكثير من الرغبة المألوفة للمنظّر لدعم نظريّته».(1)

عالم الفيزياء الفلكية كريستوفر إشام

الدعوى الإلحادية ودليلُها

يستدلّ عامةُ الملاحدة اليومَ بالعلم لإثبات أنّ الدين خرافةٌ، وأنّ كشوف العلم قد ألحقت الدينَ بجنس الأساطير القديمة، مؤكّدين أنّ الإيمان بالعلم والإله لا يلتقيان أبدًا؛ فإمّا الانحيازُ إلى العلم، وحقائقه، وإما الإيمانُ بالإله، والخوارق، والخرافات، وعجائبِ الأساطير.

وعامةُ استدلال الملاحدة بالعلم لإبطال معقولية الإيمان بالله -سبحانه- قائمٌ على الدعاوى التالية:

- العلم (القوانين الكونية) أبطلَ الحاجةَ إلى التفسير الديني لفهمِ قوانين الكون.

(1) C. Isham, "Creation of the Universe as a Quantum Process" in R.J. Russell, W.R. Stoeger and G.V. Coyne, eds. *Physics, Philosophy and Theology: A common quest for undestanding* (Vatican City: Vatican Observatory, 1988), p.378

- العلم (نظرية الانفجار العظيم) أبطلَ دليلَ خلق الكون.
- العلم (نظريات التطوّر الكيميائي) أبطلَ دليلَ خلق الحياة.
- العلم (الداروينية) أبطلَ دليلَ خلق الكائنات الحيّة.

قلْبُ الدليل:

السطحيةُ آفة العقل الذي لا يحاول أن يفهم حقيقةَ الدعاوى بتتبّع أصولها للكشف عن بذورها. ولو أنّ امرأً نظَر في العالم ودلالاته المعرفيّة؛ لأدرَك أنّ العلم لا ينتهي إلّا إلى الإشارة إلى أنّ الحاجة إلى الإله ضروريّةٌ. وبيانُ ذلك في أجوبة الاعتراضات الأربعة السابقة.

1. الكون بين دعوى الإلحاد ودعوى الإيمان

انتشر في الخطاب الإلحادي القولُ إنّ العلم قد أثبت من خلال نظريّة الانفجار العظيم أنّنا لسنا في حاجةٍ إلى افتراضِ وجودِ إلهٍ خلَق الكونَ؛ فقد خرج الكونُ بنفسه إلى الوجود، من خلال سُننٍ ماديّة بحتة، لا أثر للخوارق فيها.

ونحن نقول في المقابل إنّ أقوى كشوف الكوسمولوجيا والفيزياء الكونيّة دالةٌ على وجوب القول بوجودِ إله، خلَق الكونَ ونظَّمه... بل نقول ما هو أعظمُ من ذلك، وهو: إنّ العلم الطبيعي نفسَه مدِينٌ في وجوده لوجود الله؛ ولولا وجودُ الله، لما وُجد العلمُ الطبيعي. وبهذه الحقيقة نبدأ حديثَنا التالي.

أ. العلم فرع عن الإيمان بالله

يُعَدُّ باروخ سبينوزا Baruch Spinoza [1] أهمَّ فيلسوفٍ كتَب في الاعتراض على

(1) باروخ سبينوزا (1041-1088هـ/ 1632-1677م): فيلسوف هولندي من أسرة يهودية. يُنسَب إلى الاعتقاد بوحدة الوجود. اعتبره نيتشه علَامةً فارقة في الفلسفة المعاصرة. كان له اهتمامٌ خاص بنظرية المعرفة والأخلاق وفلسفة الدين. من أهم مؤلفاته «الأخلاق» و«في اللاهوت والسياسة».

المعجزات ودَلالتها الدينية على النبوة. ولا ينافسه في ذلك غيرُ هيوم Hume [1]. وقد قرَّر سبينوزا رغم معاداته للأديان، وقولِه بوَحدة الوجود، أنّ نظام الكون أعظمُ دَلالةٍ من الخوارق على وجود الله[2] وصفاته.[3] وقد أصاب في ذلك؛ فإنّ عظمةَ قوانين الكون أعظمُ من خرْقها من جهة الدَّلالة على عظمة الخالق سبحانه ووَحدانيته.

ومن العجيب أنّ أينشتاين -الذي يُنسَب أيضًا إلى الفريق القائل بوَحدة الوجود- قد انتهى أيضًا إلى أنّ قوانين الكون ذاتُ دَلالةٍ رُوحيّةٍ عظيمة؛ إذ قال: «إنّ كل مَن ينخرط بجديّة في طلب العلم، يصبح مقتنعًا بأنّ هناك رُوحًا تتجلّى في قوانين الكون؛ روحًا أسمى بكثيرٍ من رُوح الإنسان، رُوحًا يجب أن نشعر نحن أمامها -بقوانا المَهينة- بالتواضع».[4]

ولتوضيح الأمر؛ نسألُ السؤالَ الأوّلي الذي لا سؤال قبله عند مناقشةِ عَلاقة العلم بالإيمان بالله: **ما هو العلم؟**

والجوابُ هو أنّ العلم كما عرّفه الفيلسوفُ الفيزيائي ستانلي جاكي Stanley Jaki [5] «الدّراسةُ المنهجيّةُ للظواهرِ الفيزيائيّةِ والطبيعيّةِ من خلال الملاحظة الدّقيقةِ والتجرِبة»[6]، أو هو كما في تعريف الأكاديمية القومية للعلوم الأمريكية: «استخدامُ الأدلة لبناءِ تفسيراتٍ للظواهر الطبيعية ونبوءاتٍ لها، قابلةٍ للاختبار، ويشمل كذلك المعرفةَ الناتجةَ من هذه العمليّة».[7] فالعلمُ إذن هو -باختصارٍ سهلِ العبارة- دراسةُ

(1) ديفيد هيوم (1123-1190هـ/ 1711-1776م): مؤرخ وفيلسوفٌ تجريبي إسكتلندي. يُعرَف بنزعته الشكوكيّة الغالية.

(2) بعيدًا عن اضطراب سبينوزا في فهم حقيقة الذات الإلهية.

(3) Benedict Spinoza, *Tractatus Theologico-Politicus* (London: Trubner, 1862), pp

(4) Letter to Phyllis Wright, January 24, 1936.

(5) ستانلي جاكي Stanley Jaki (1342-1430هـ/ 1924-2009م): مفكر حاصل على دكتوراه في الفيزياء وأخرى في اللاهوت. من الأسماء العلمية البارزة في فلسفة العلوم وعلاقة العلم (الفيزياء) بالإيمان.

(6) L.S. Jaki, *The limits of the limitless science*, p. 5.

(7) National Academy of Sciences, *Definitions of Evolutionary Terms*. <http://www.nas.edu/evolution/Definitions.html>.

القوانين الكونية للعالَم المادي. والقوانينُ هي العملُ المطَّرد للمادة أو الطاقة في الظروف نفسِها.

فالعلمُ إذن لا يمكن أن يوجد إلّا مع وجود النظام؛ فإنه لو كان هذا الكونُ مجرّدَ حركةٍ عشوائيةٍ مضطربةٍ غيرِ مطردة، ولا تعرف التّكرارَ؛ لكان وجودُ العلم ممتنِعًا ضرورةً. فالوجودُ العابث لا يبذُل لنا وجودًا له خاصيتان، وهما: **النظامُ، والطبيعةُ الإلهامية الساحرة لهذا النظام**. وهو ما أومَأ إليه عالِمُ الفيزياء الكونية **اللاأدريُّ** بول ديفيس Paul Davies [1]، في قوله: «توجد **وَحدةٌ** رياضية أساسية **عميقة وأنيقة** تربِط كلَّ شيء معًا في مخططٍ مفاهيمي مجرد. ومن ثَمّ هناك **نظامٌ عقلاني** كامن [وراء هذا الكون] ... لا يمكننا أبدًا الوصولُ إلى هذا النوع من **الوَحدة الرياضية** العميقة **إلا باستخدام العلم**، ومن **المدهش** أن نصِل إليه أصلًا؛ لأنه يبدو أنه لا يحمل قيمةً متعلّقة ببقاء [الكون أو الكائنات الحيّة]».[2] فهو نظامٌ عقلاني أكبرُ من توفير الحاجة البسيطة إلى البقاء ومقاومةِ الموت؛ فليس من الممكن تفسيرُه بالتطور الداخلي الذاتي للمادة.

إنّنا أمام وجودٍ طبيعتُه الكبرى الافتقارُ إلى تفسيرٍ أعلى يجعل مجموعَ الوجود معقولًا. وقد كان سببُ نُفورِ الفيلسوفِ **الملحد** أنتوني فلو[3] من الإلحادِ، وإقرارِه بوجود اللهِ، بعد عقودٍ من ريادة الفلسفة الإلحاديّة كتابةً ومناظرةً ومُشاكسةً، ما لاحظَه في هذا الوجود من **نظام** يشِفُّ عن حكمة؛ ولذلك قال: «لا يقتصر الأمرُ على وجودِ أشياءَ منتظمةٍ في الطبيعةِ، وإنّما هذا الانتظامُ مترابطٌ في دقته وعالميته الرياضية. كيف

---

(1) بول ديفيس Paul Davies (1365هـ/ 1946م-): فيزيائي إنجليزيّ شهير. درَّس في عدد من كبرى الجامعات الغربية. من أبرزِ الشخصيات الفكرية في الغربِ كتابةً في عَلاقة العلم والإيمان.

(2) Paul Davies, Are We Alone? Philosophical Implications of the Discovery of Extraterrestrial Life (New York, NY: Basic Books, 1995), 124.

(3) أنتوني فلو Antony Flew (1341-1431هـ/ 1923-2010م): فيلسوفٌ إنجليزيٌّ شهيرٌ. حدَّدَتْ مؤلّفاتُه بعضَ معالم الحوار الإيمانيِّ-الإلحاديِّ في النصف الثاني من القرن العشرين. فصَّل سببَ عودته إلى الإيمان بخالقٍ في كتابه: «هناك إلهِ».

أصبحت الطبيعةُ قائمةً بهذه الطريقة؟ لقد أجاب العلماءُ من نيوتن إلى أينشتاين حتى هايزنبرغ بقولهم إنّ ذاك عن حكمة الله».[1]

إنّ الإيمان بالله مقدّمةٌ ضرورية لمعقوليّةِ وجودِ هذا النظام؛ لأنّ هذا النظامَ مَدِينٌ لله -سبحانه- بالوجود. يقول الفيلسوفُ ريتشارد سوينبرن[2] دائمًا: «أنا لا أفترض وجودَ «إلهِ الفجوات»؛ إلهٍ وظيفتُه الوحيدةُ تفسيرُ الأشياء التي لم يفسرها العلمُ بعد. **أنا أفترض وجودَ إلهٍ لشرحِ سببِ تفسيرِ العلمِ الكونَ.** أنا لا أنكر أنّ العلمَ يفسر الكونَ، وإنّما **أنا أفترض وجودَ الله لشرحِ لماذا يفسر العلمُ الكونَ.** إنّ نجاحَ العلم ذاتِه في توضيحِ مدى روعةِ العالَم الطبيعي يوفر أسبابًا قويةً للاعتقاد بوجودِ سببٍ أعمقَ لهذا النظام».[3]

أي إنّ علْمَنا أنّ وجودَ القانون رهينٌ وجود الانتظام الرائق والجميل والمركَّب والمعقَّد لأجزاء المادّة والطّاقة، وأنّ النظامَ لا يمكن أن يكون فضيلةً للعشوائية الأُولى، وإنما هو أثرٌ عن حكمةٍ، وقَصْدٍ، وتصميم.. كلُّ ذلك يجعل القانونَ الطبيعي بُرهانًا على وجود الله؛ حتّى وإن كان الإيمان بهذا النظام مستترًا في لاوعي العالِم.

ولذلك قالت الفيلسوفة ماري مِدْغلي Mary Midgley[4]: «يمتلك العِلم وجهة نظر خاصة به، تتضمّن افتراضات إرشاديّة حول طبيعة العالم. وقد عبّر مؤسسو العلم الحديث عن هذه الافتراضات بوضوح في عصرهم. فقد قالوا إنّ النظام الكوني ينبع بالكامل من [الإيمان] بالله، وبالتالي فإنّ العلم يمجّد عظمته.»[5] وهو ما صرّح به أيضًا أينشتاين في قوله: «لا يمكن أن يُنشئ العلم إلّا من تشبّع بالشعور بالتطلّع نحو الحقيقة والفهم. غير أنّ مصدر هذا الشعور ينبع من الدين. وينتمي أيضًا إلى الدين

(1) Antony Flew, *There is a God* (London: Harper One, 2007), p.96.

(2) ريتشارد سوينبرن Richard Swinburne (1352هـ/ 1934م-): أحدُ أشهرِ فلاسفة الدين البريطانيين. درّس في أُكسفورد.

(3) Richard Swinburne, *Is there a God?* (Oxford, Oxford University Press, 1996), p. 68.

(4) ماري مدغلي (1337-1439هـ/ 1919-2018م): فيلسوفة بريطانية معروفة. لها عناية بفلسفة العلم والأخلاق.

(5) Mary Midgley, "Does Science Make Belief in God Obsolete? Of Course Not," John Templeton Foundation, www.templeton.org/belief/.

الإيمان بإمكانية أن تكون قوانين الوجود عقلانية، أي قابلة للفهم بالعقل. **لا أستطيع أن أتخيّلَ عالـمًا بدون هذا الإيمان العميق**».(1)

وقد جاء خبرُ ذلك في القرآن، في بيانِ قدرةِ الله وحكمته. قال تعالى: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥﴾ [الرَّحمن/ 5] أي: يجريان متعاقبَين بحساب مُقنَّن لا يختلف ولا يضطرب.(2) وقال تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ۝٤٠﴾ [يس/ 40]، وقال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٩٦﴾ [الأنْعَام/ 96].

وهذا الكون، بنظامه المطّرد، وسحر تركيبيّته المستفزّة للنّظر؛ حافز للتفكّر في الله -سبحانه- وصفاته. وممّا يعكس ذلك في الرؤية الإسلاميّة أنّه لمّا نـزلَ قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝١٩١...﴾ [آل عِمْران/ 190-191]، بكى رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم ليلَهُ كُلَّهُ، وقال: «**لقد نَزَلَتْ عَلَيَّ الليلةَ آيةٌ وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَها ولم يَتَفَكَّرْ فيها**».(3)

ولذلك يقول الباحثون في تاريخ العلوم إنّ العلم كان رؤيةً ساذَجة في الحضارات القديمة التي كانت تؤمن بآلهةٍ لكل ظاهرةٍ طبيعية؛ فظواهرُ الطبيعة وما يطرأ عليها من تغيّراتٍ هي عند هؤلاء أثرٌ لأمزجة الآلهة المتقلّبة كلَّ حين بين الفرح والكدَر، والإفضال والانتقام. وفي ذلك كتَب مؤرّخُ العلوم وعالِمُ الكيمياء الحيويّة -جوزيف نيدام Joseph Needham - في سياقِ حديثه عن المنهج العلمي في الصين التي غلَبت

(1) Albert Einstein. "Religion and Science." *New York Times Magazine*, November 9, 1930.

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة (دار طيبة للنشر والتوزيع الطبعة: الثانية 1420هـ - 1999م)، 7/ 489.

(3) رواه ابن حيان، كتاب الرقائق، باب التوبة (ح/ 626). وصححه الألباني.

عليها البوذيةُ الملحدة والكونفشيوسية اللاكتراثية: «لم تكن هناك ثقةٌ بإمكانيةِ كشفِ شفراتِ قوانين الطبيعة وقراءتِها، لأنه لم يكن هناك أيُّ تأكيدٍ بأنّ إلهًا، أكثرَ عقلانيةً منّا، قد صاغ مثلَ هذه الشفراتِ التي من الممكن قراءتُها».[1] وقد عبَّر عالِمُ الرياضيات والفيلسوفُ ألفريد نورث وايتهاد Alfred North Whitehead [2] عن ذلك بقوله الشهير: «إنّ **الإيمان بإمكانية العلم the possibility of science**، والذي تولَّد قبل تطوّر النظريّة العلمية الحديثة، هو **أمرٌ نابعٌ بصورةٍ غيرِ واعيةٍ من لاهوت القرون الوسطى**».[3] فالعلمُ أصلُه إمكانيّةٌ ذهنيّة لا تتحقّق إلّا في كونٍ خلَقه إلهٌ حكيم، وأظهَر فيه حكمتَه من خلال شبكة النظام العقلاني.

والحقيقةُ هي أنّ معضِلةَ الإلحاد أعظمُ من وجود النظام؛ فهي ترقى إلى أنّ هذا **النظامَ يقوم على مبدأَي البساطة والجمال**، وهما أبعدُ شيءٍ عن العشوائية التي يُقال لنا إنها أصلُ هذا الكون، والمتوقَّعُ أن تهيمن على كونٍ نشأ من فرقعةٍ عمياءَ؛ **فالبساطةُ تعارض الفوضى، والجمالُ يعارض العبثَ غيرَ القصدي**، ولكنّ الكون محكومٌ بالبساطة والجمال. والمظهرُ الأعظم للجمال، هو ما يراه الفيزيائيون من جمال المعادلات التي تحكُم بنيةَ الكون.

ولذلك قال فرنر هايزنبرغ Werner Heisenberg [4] لأنشتاين -وهما أكبرُ قامتَين في الفيزياء في القرن 14هـ/ 20م-: «قد تعترض عليّ بأنّني بحديثي عن البساطة والجمال أُقدِّم معاييرَ جماليّةً للحقيقة. وأنا أعترف صراحةً أنّني منجذِبٌ بشدةٍ إلى بساطةِ وجمال المخططات الرياضية التي تقدّمها لنا الطبيعة. ولا بد أنّك قد شعرت بهذا أيضًا».[5]

---

(1) Joseph Needham, *The Grand Titration. Science and Society in East and West* (Toronto University Press: 1969), p.327.

(2) ألفريد نورث وايتهاد (1278-1366هـ/ 1861-1947م): عالِمُ رياضيات وفيلسوف إنجليزي شهير. تُنسَب إليه المدرسة الفلسفية Process philosophy.

(3) Whitehead, *Science, and the Modern World* (New York: The Macmillan company, 1925), p. 9.

(4) فرنر هايزنبرغ (1319-1396م/ 1901-1976م): عالمُ فيزياء نظرية ألماني شهير. أحد آباء علم ميكانيكا الكون.

(5) Paul Davies, *God and the New Physics* (New York: Simon and Schuster, 1983), 220-21.

وقال بما هو أعظمُ من ذلك روبرت مليكان[1] -الحائزُ على جائزة **نوبل** في الفيزياء سنة 1923-: «بدأ العِلمُ يُظهِر لنا كونًا منظمًا **وجمالًا متآلفًا مع النّظام**، كونًا لا يعرف النَّزَواتِ، كونًا يتصرف بطريقٍ معروفٍ وقابلٍ للتنبؤ به، كونًا من الممكن التَّعويلُ عليه. وفي كلمةٍ: إلهٌ يعمل من خلال السُّنن الطبيعية».[2]

بل تتجاوز شهادةُ الفيزيائيين ذلك إلى الإقرار بأنّ جمالَ رياضيات الكون، ونسيج بنائه، يجعل عالِمَ الطبيعة يهتدي بالجمال بدءًا للكشف عن حقيقةِ بنية الكون؛ حتى قال عالِمُ الفيزياء النظريّة والرياضيات هيرمان فايل إنه إذا تعارض جمالُ المعادلات مع التجربة، يُقدِّم الجمالُ على التجربة؛ لأنّ الجمالَ أهدى سبيلًا، رغم أنّ «المنهج العلمي» المدرسيّ لا يرضى ذلك، ولا يدعو إليه.[3] وليس الكونُ الإلحادي في ذلك من شيء؛ فإنّ الجمال غريبٌ عنه؛ لأنّ الجمال دالٌّ على غائيّةٍ في الصنعة المادية **تتجاوز تحقيقَ غايةِ استمرار الحياة إلى تحقيقِ إمتاع الذهن بطبيعة الكون.**

إنّ العلم الذي يرى الملحدُ أنّه قد أغنانا عن «افتراض» وجود إله؛ هو في حقيقته لا يتناول أصل تفسير العالم، وإنّما قصارى أمره أن يكشف قوانين تصف طريقة عمل العالم.[4] هذه القوانين نفسها في حاجة إلى تفسير. ولا تفسير لوجودها إلّا حكمة القدير -سبحانه- وعلمه.

> إنّ كونًا نشأ عن فرقعةٍ (انفجار) يبعُد بصورةٍ كبيرة أن تنشأ عنه قوانينُ ليكون مفهومًا، فضلًا عن أن تكون قوانينه جميلةً. إنّ العلم الذي يدرُس النظامَ ويهتدي بجمال المعادلات الرياضية لَدليلٌ هادٍ إلى اللهِ لا الإلحادِ.

(1) روبرت مليكان Robert Millikan (1285-1372م/ 1868-1953م): فيزيائيٌّ أمريكيٌّ. نال نوبل عن أبحاثه في قياس شِحنة الإلكترون. كان له اهتمامٌ فلسفيٌّ ببيانِ حال التّوافق بين العلم والإيمان، والتّكامل بينهما.

(2) Robert Millikan, *Science and Religion* (New Haven: Yale University Press, 1930), p.79.

(3) S. Chandrasekhar, *Truth and Beauty: Aesthetics and motivations in science* (Chicago; London: University of Chicago Press, 1990), pp.56-66

(4) Interview with Wirtschaftswoche, August 2007. Cited in: John C. Lennox, *Gunning for God: Why the New Atheists are Missing the Target* (Oxford, UK: Lion Hudson, 2011), p.228.

ب. بداية الكون، والحاجة إلى الله

يبدأ الوعي الكونيّ للمسلم بالعلم بالتقرير الأكبر: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴿٦٢﴾﴾ [الزمر/ 62]. وهو -سبحانه- الأوّل، فليس معه شيء. وأمّا علم الفيزياء الكونيّة؛ فالسائد فيه قديمًا القول إنّ كوننا أزليّ، بلا بداية. وقد كانت دعوى أزليّة الكون الحجة الكبرى للملاحدة، مع تقريرهم هم أنفسهم أنّ نقض أزليّة كوننا ينتهي ضرورةً إلى إثبات القول الديني إنّ إلهًا غير مادي قد أخرج الوجود المادي من الليس إلى الأيس، من العدم إلى الوجود..

فما الذي جدّ في بداية القرن 14هـ/ 20م؟

تراكمت الأدلة العلمية مع بداية القرن السابق على أنّ لكوننا بدايةً، ولكنْ عاند فريقٌ من الفيزيائيين هذا الكشفَ المخالف لميراثهم العلمي، والمعارضَ لتصوّرهم الديني، غير أنّ تنامي هذه الأدلةِ ونجاحَها في اختبارات التكذيب العلمي انتهى إلى اتفاق الجماعة العلمية على أنّ كوننا هذا غيرُ أزلي. وهو ما عبَّر عنه عالِمُ الفيزياء والفلك ورأسُ علماءِ وكالة (ناسا) (NASA) -**اللاأدريُّ**- روبرت جسترو Robert Jastrow [1] بقوله في **موقفٍ تخيُّليٍّ ظريف** في ختامِ كتابه الماتع «الله والفلكيون»: «**تنتهي القصّة بالنسبة إلى العالِم (scientist) الذي عاش بإيمانه بقوّة العقل، كمَنامٍ سيئ. لقد تسلّق جبالَ الجهل، ويكاد يقهر أعلى قمّةٍ، وبينما هو يرفع نفسَه إلى الصخرة الأخيرة، يُفاجأ بتهنئةٍ من جَمْعٍ من اللاهوتيين الجالسين هناك منذ قرون**».[2]

ولستُ هنا في حاجةٍ إلى سَوقِ الأدلة العلميّة على أنّ لكوننا بدايةً؛ فقد عرَضتُ ذلك مفصَّلًا في غير هذا الكتاب،[3] ولذلك يكفيني هنا أن أنقُل الإجماعَ العلمي على

(1) روبرت جاسترو (1343-1428هـ/ 1925-2008م): فلكيٌّ أمريكيٌّ وأحدُ أعلام علماء وكالة الفضاء الأمريكيّة «ناسا» في القرن الماضي.

(2) Robert Jastrow, *God and the Astronomers* (Toronto: George J. McLeod, 1992), p.116

(3) انظر: سامي عامري، فمَن خلق الله؟ (الكويت: مركز رواسخ 1445 هـ/ 2023م).

هذا المذهب في قول الفيزيائي **الملحد** لورنس كراوس Lawrence Krauss [1] في كتابه: «كونٌ من لا شيء» بقوله: «**يعرف الجميعُ الآن** (باستثناء المشرفين على بعض المدارس في الولايات المتحدة[2]) أنّ الكون ليس مستقِرًا وإنما هو يتمدد، وأنّ هذا التمدُّدَ **قد بدأ في انفجارٍ كبير حارٍّ جدًّا وكثيفٍ منذ قرابةِ 13.72 بليون سنة**».[3] وهو بذلك ينقُل **إجماعَ العلماء** على أنّ لكوننا بدايةً من خلال ملاحظةِ تمدُّده بعد انفجارٍ أوّل، مُشيرًا إلى أنّ الطائفة الوحيدة التي تنكر ذلك هي جماعةٌ من النَّصارى الذين يؤمنون أنّ لكوننا بدايةً لكنّهم ينكرون الروايةَ العلمية السائدة لذلك لأنها تعارض ما جاء في كتابهم المقدّس، وهي طائفةٌ تنتصر لفرضيّةِ «الأرض الفَتِيَّة» القائلةِ إنّ عمر كوننا بضعةُ آلافٍ من السنين.

والآن، قد يسأل سائلٌ: **وماذا كان قبل كوننا؟**

لخَّص الفيزيائي **الشكوكي** نيل ديغراس تايزن[4] **الشهيرُ** الجوابَ العلمي للعلماء عن السؤال السابق، في كلام طويل يحسُن نقلُه بتمامه هنا: «**ليس لدى علماءِ الفيزياء الفلكية أيُّ فكرةٍ عن ذلك.** أو بالأحرى، أكثرُ أفكارنا الإبداعية لها أساسٌ ضئيل في العلم التجريبي أو لا أساس لها أصلًا. وردًّا على ذلك، يؤكد بعض المتدينين، مع شيءٍ من الصواب، أن شيئًا ما يجب أن يكون قد تسبّب في بدايةِ كلِّ شيءٍ: قوةٌ أعظمُ من كل القوى الأخرى، مصدرٌ صدَر عنه كلُّ شيء. محرِّكٌ أوّلُ. وهو عند هؤلاء المتدينين، بالطبع، الله.

---

(1) لورنس كراوس (1373هـ/ 1954م-): عالمُ فيزياءٍ نظريّةٍ أمريكيٌّ. اشتُهِر بزعمه سذاجةَ الإيمان الدينيِّ في مقابل دقة التّفكير العلميِّ.

(2) يشير بكلامه هذا إلى الأُصوليّين النّصارى الذين يؤمنون أنّ عُمْرَ الكونِ بضعةُ آلافٍ من السّنين، متابَعةً لظواهر الكتاب المقدّس النّصرانيّ!

(3) Lawrence M. Krauss, *A Universe from Nothing: Why There Is Something Rather than Nothing* (New York: Free Press, 2012), p.3.

(4) نيل ديغراس تايزن Neil deGrasse Tyson (1377هـ/ 1958م-): عالمُ فيزياء فلكية أمريكي مشهور. عُرِف شعبيًّا ببرامجه العلمية في تبسيط العلوم، وأشهرُها برنامَجه «Cosmos».

ولكنْ ماذا لو كان الكون موجودًا دائمًا، في حالةٍ أو وضعية لـم نعرفها بعد -على سبيل المثال، أكوانٌ متعدّدة تُنجِب بصورةٍ مستمرة أكوانًا أخرى؟ أو ماذا لو كان الكون قد ظهر إلى الوجود من العدم؟ أو ماذا لو أنّ كلَّ ما نعرفه ونحبّه كان مجرّدَ محاكاةٍ حاسوبية أُوجِدت للتسلية من قِبل كائناتٍ فضائيةٍ فائقة الذكاء؟

هذه الأفكار الماتعة فلسفيًّا لا تُرضي أحدًا في العادة. ومع ذلك، فهي تذكّرنا بأنّ الجهل هو الحالُ الطبيعي للعالِم الباحث...

الأمرُ الذي نعلمه، وهو ما يمكننا أن نؤكده بدون تردُّد، هو أنّ الكون له بدايةٌ. والكونُ مستمرٌ في التطور. ونعم، كلُّ ذرَّةٍ من ذرَّاتِ جسمنا يمكن تتبُّعُ أصلها إلى الانفجار العظيم وإلى الأفران النووية الحرارية داخل النجوم ذات الكتلة العالية التي انفجرت منذ أكثرِ من خمسةِ بلايين من السنين مضت».[1]

ما هي **حقيقةُ** كلامِ تايزن **ولوازمُه**؟:

- هذا الكون الذي نعيش فيه له بدايةٌ بلا شك.
- الحقيقة العلميّة المتاحة تنصُر القولَ السابق.
- الملاحدة يتعلّقون اليومَ بفرضياتٍ مختلفة، ومتضاربةٍ أشدَّ ما يكون التضاربُ، ولذلك لا يمكن أن تقوم عليها عقيدةٌ لادينية لحاجتها إلى أصلٍ ثابت. فكلُّ نظريّة عن وجودٍ مادي قبل هذا الكون هي مجرّدُ دعوى علميّةٍ فاقدة للدليل العلمي الصُّلب الذي يجعلها راجحةً، فضلًا عن أن تكون يقينيّةً. أو بعبارةِ الفيزيائي روبرت جاسترو عند حديثه عن النظريات الباحثة عن حقيقة الكون قبل الثانية 10^{-43}: «يبدو لي أنه من السذاجة صناعةُ نظرياتٍ مفصَّلة تريد أن تجيب عن أسئلةٍ فلسفية ودينية وكذلك علمية على أساس التخمين حول ما

(1) Neil deGrasse Tyson, *Astrophysics for People in a Hurry* (New York: W.W. Norton & Company, 2017), pp.32-33.

وقع في زمنٍ لم تتم ملاحظته مباشَرةً أو بطريقٍ غيرِ مباشِرةٍ».[1]

- العلم إذن لم ينصُر أزليةَ الكون، تلك الفرضيةُ التي تشبّث بها الإلحادُ حتى عقودٍ قليلة من اليوم.

ولكنْ قد يصرّ ملحدٌ معاند، مجادلٌ بلجاجة، على أنّ هناك نظرياتٍ علميةً قويّة تنصُر نماذجَ أزليةٍ لأكوانٍ سابقة لكوننا. ولن أمنح الملحدَ هنا جوابًا من كِيسي، وإنّما سأردُّه إلى أحدِ أكبرِ علماءِ الفيزياء الكونية، وأبرزِ المشتغلين بدراسة النماذج المطروحة لأصل الوجود المادي فيزيائيًا، وهو الفيزيائيُّ الكبير- **اللاَّأَدْرِيُّ**- ألكسندر فلنكن Alexander Vilenkin[2]. فقد كتَب سنةَ 2007 مؤكِّدًا أنّ كلّ نظريةٍ تقرِّر توسُّعَ الكونِ بقيمةٍ لا تنزل تحت الصفر، مهما كانت ضآلةُ هذا التوسُّع، يجب أنْ تَؤُولَ إلى الإقرارِ ببدايةِ هذا الكونِ أو هذه الأكوانِ المتعاقِبةِ، دون حاجةٍ إلى الدُّخول في أيّ تفاصيلَ أُخرى للأكوانِ التي تفترِضُها هذه النّظريّاتُ، بما في ذلك أمرُ الجاذبيّةِ وغيرِها.[3] وهو نفسُه القائلُ في كتابه الذي نشره منذ بضعِ سنواتٍ «عوالِمُ في عالَمٍ واحد: البحثُ عن أكوانٍ أخرى»: «مع قيام الدليل الآن، ما عاد للكوسمولوجيّين أنْ يَتَخفَّوا وراء إمكانيّةِ وجودِ كونٍ لانهائيٍّ في الماضي. **لا مَهرَبَ: عليهم أنْ يواجهوا مشكلةَ البدايةِ الكونيّةِ**».[4]

---

(1) Henry Margenau and Roy Abraham Varghese, eds. *Cosmos, Bios, Theos* (La Salle, Ill.: Open Court, 1992), p.47

(2) ألكسندر فلنكن (1368هـ/ 1949م-): كوسمولوجيٌّ شهيرٌ من أصولٍ روسيّةٍ. مديرُ مؤسّسة الكوسمولوجيا في جامعة (تافتس). غزير التّأليف في الدراسات العلميّة في أصل الكون.

(3) "A remarkable thing about this theorem is its sweeping generality. We made no assumptions about the material content of the universe. We did not even assume that gravity is described by Einstein's equations. So, if Einstein's gravity requires some modification, our conclusion will still hold. The only assumption that we made was that the expansion rate of the universe never gets below some nonzero value, no matter how small. This assumption should certainly be satisfied in the inflating false vacuum. The conclusion is that past-eternal inflation without a beginning is impossible." Alexander Vilenkin, *Many Worlds in One: The Search for Other Universes* (New York: Hill and Wang, A division of Farrar, Straus and Giroux, 2006), p.175

(4) Alexander Vilenkin, *Many Worlds in One: The Search for Other Universes* (New York: Hill and Wang, A division of Farrar, Straus and Giroux, 2006), 176.

وأهمُّ من شهادة العلم في آخِرِ أطواره، شهادةُ العقل؛ فإنّ افتراضَ أكوانٍ سالفةٍ بلا بدايةٍ، لا يمكن أن يُسعِف دعوى أزليّةِ المادة؛ ذلك أنه إذا لم يكُن للوجود المادي بدايةٌ، لم يكن لنا أن نوجد اليومَ؛ فإنّ وجودًا زمنيًا متعاقبًا لا بداية له، لا يمكن أن يبلُغ لحظةَ «الآن»؛ كما أنّ الإنسان لا يمكن أن يقفز من بئرٍ لا نهاية لعمقها إلى سطح الأرض، فما لا يبدأ في زمانٍ كيف ينتهي زمانُه إلى لحظة الحاضر؟!

وخلاصة الحديث هي أنّ **العلم اليوم لم ينصر غير أنّ لكوننا بداية، وكل ما عدا ذلك فظنون من جهة النظر العلميّ الصرف**؛ باعتراف جميع الكوسمولوجيين. وقد أخبرنا الفيزيائي **الملحد** ستيفن هاوكنج أنّ «كثيرًا من الناس [الملحدين] لا يحّبون فكرة أن الزمن له بداية، ربما لأن ذلك ينم عن تدخل إلهي».[1] فنشأة الكون إذن ليست حجّة للإلحاد، وإنّما هي **حجّة للإيمان بالله**.

ت.طبيعة بداية الكون، والحاجة إلى الله

أصلُ كوننا حجّةٌ على الإلحاد لا حجّةٌ له، وذلك من وجهين، الأوّلُ قد عرفتَه، وهو أنّ لهذا الكون ميلادًا؛ بما يقتضي أنه في حاجة إلى خالق، والثاني هو أنّ **النشأة الأولى كانت دقيقةً جدًا**، رغم طبيعتها الانفجارية. وهو ما اصطلح عليه الفيزيائيون بعبارة «الضبط الدقيق للكون»، أي إنّ الكون في بدايته -ولاحقًا- كانت له طبائعُ دقيقةٌ جدًا، لو غُيّر بعضُها أدنى تغييرٍ؛ لانهار الكونُ كُليّةً أو امتنَعت الحياةُ كُليّةً. وذاك بعض الخبر القرآني عن الكون وصنعته. قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾[الفرقان/ 2]. قال الطبري في تفسير الآية: «فسوّى كل ما خلق، وهيّأه لما يصلح له؛ فلا خلل فيه ولا تفاوت.»[2]

(1) Stephen Hawking, *A Brief History of Time. From the Big Bang to Black Holes* (London: Bantam Press, 1988), p. 46.

(2) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (القاهرة: دار هجر، 1422هـ/ 2001م هـ)، 17/ 396.

يقول الفيزيائي **الحائز على نوبل**، تشارلز تاونز Charles Townes [1] -في لقاءٍ صحفي معه-: «يبدو التصميمُ الذكي [للكون] -كما يراه المرءُ من وجهةِ نظرٍ علميّة- حقيقيًّا بصورةٍ واضحة. فكونُنا هذا مميَّزٌ للغاية، ومن الرائع أنه جاء بهذه الطريقة. **ولو لم تكن قوانين الفيزياء كما هي، لما كنّا هنا على الإطلاق.** لا يمكن أن تكون الشمس موجودةً، ولا أن تكون قوانينُ الجاذبية والقوانين النووية والمغناطيسية وميكانيكا الكم كما هي عليه، لكي نكونَ هنا». [2]

ويُعبّر علماءُ الفيزياء عن ظاهرة الضّبط الدّقيق بعبارةٍ أثيرة في كتاباتهم؛ بقولهم إنّ ظاهرةَ الحياة في هذا الكون «متوازِنةٌ على حَدِّ السّكين» «balanced on a knife-edge»؛ فإنّك لو غيَّرتَ من طبائعِ المقادير والقوانين في أقلِّ القليل؛ لانهار الكونُ أو فسدَت الحياةُ؛ غيرَ أنّ الفيزيائيَّ بول ديفيس -وهو من أغزرِ العلماء تأليفًا في هذا الباب- يشرَح الحالَ بصورةٍ أدقَّ بقوله: «التعبيرُ المستهلَك القائل إنّ «الحياةَ متوازِنةٌ على حدِّ السّكّين» يبدو مُغرِقًا في السَّطحية؛ **إذ لا يوجد سِكّينٌ في الكون يبلغ هذا الحدَّ من الدقة»**. [3]

ولِيدرِكَ المرءُ مَبْلَغَ النّظام والدِّقَّةِ المهيمِنَيْنِ على بدايةِ كَوْننا بما يكشِفُ نكارةَ القَوْلِ بِسُلطانِ العشوائيّةِ في صياغة نسيجِ الوجودِ الذي نَرْفُلُ في نَعيمِه، يُخْبِرُنَا روجر بنروز Roger Penrose -الحائزُ على **نوبل** في الفيزياء- أنّ استمرارَ الكونِ في حالٍ من الانتظامِ والتّفاعُلِ بما آلَ إلى ظُهورِ الحياةِ **كان رَهِينَ حالِ الكونِ في بَدْئِهِ**؛ وأنَّ الظُّروفَ الأُوْلى كان يجب أن تكون على حالٍ دقيقةٍ من الانتظامِ، وأنَّ الاحتمالَ

(1) تشارلز تاونز (1333-1436هـ/ 1915-2015م): فيزيائيٌّ أمريكيٌّ. له اهتمامٌ بدراسة quantum electronics. أشرَف على مجموعةٍ من المشاريع العلميّة الكبرى للحكومة الأمريكيّةِ.

(2) 'Explore as much as we can': Nobel Prize winner Charles Townes on evolution, intelligent design, and the meaning of life," by Bonnie Azab Powell. UC Berkeley NewsCenter. 17 June 2005 <https://newsarchive.berkeley.edu/news/media/releases/2005/06/17_townes.shtml>.

(3) Paul Davies, *Goldilocks Engima: Why Is the Universe Just Right for Life?* (New York: Houghton Mifflin Harcourt, 2008), p.170.

الرِّياضيَّ لِظُهورِ ذاك الظَّرْفِ الفيزيائيِّ الدَّقيقِ يبلغ 1 من 10 أس 10 أس 123،[1] وهو رَقْمٌ ضَخْمٌ جِدًّا لو جَمَعْتَ الكُتُبَ الموجودة على الأرض كُلَّها، وعَمَدْتَ إلى صفحاتها مُجَمَّعةً وأَرَدت كتابةَ هذا الرّقم فلن تملكَ أنْ تكتُبَهُ لكَثْرَةِ أَصْفارِهِ.. بل دَعْ عنك ذاك.. **إنّك لو أردت أن تكتُبَ أصفارَ هذا الرقمِ على جميعِ ذَرّاتِ الكونِ فلن تبلغ كتابَتَهُ!** إنَّهُ رقمٌ مَهُولٌ!

ما هو التفسير المنطقي لهذه الظاهرة؟

يجيبنا الفيزيائي **الملحد** ستيفن هاوكنج -مرّة أخرى- بقوله: «يجب أن تكون الحال الأوّلية للكون قد اختِيرت بعناية فائقة بالفعل إذا كان نموذج الانفجار العظيم الساخن صحيحًا منذ بداية الزمن. سيكون من **الصعب جدًا** تفسير سبب بدء الكون بهذه الطريقة فقط، **إلّا إذا كان ذلك من فعل إله أراد أن يخلق كائنات مثلنا**».[2]

ما هو المهربُ الإلحادي من معضلة الضبط الدقيق للكون؟

لا مهرب إلّا افتراضُ عددٍ من الأكوان غيرِ مُتناهٍ أو عظيم جدًا يتجاوز بلايين البلايين عددًا، أحدُها كوكبُنا السعيد بصُدفة الضبط الفيزيائيِّ الدقيق الاعتباطيّة، والمنعَّمُ دون داعٍ فيزيائيّ بأسباب الحياة المُرهَفة؛ ليوجَدَ الكائنُ الذي سيتمتّع فيه بحياةٍ رغدة. وهو **افتراضٌ لا زاد له غيرُ الخيال الرغبوي**، والخيالُ زادُ مَن لا زاد له! ثمّ إنه لا سبيل لنا أصلًا أن نتعامل مع خارج حدودِ كوننا، فحصًا، أو قياسًا، أو اختبارًا.

الأمرُ في حقيقتِه دعوى إيمانيّةٌ بلا دليلٍ جاد، كتلك التي يُقرّرها المؤلِّهةُ من أنصار «المذهب الإيمانَوِيِّ» «Fideism». يقول الفيزيائي رودني هولدر Rodney Holder[3]:

(1) Roger Penrose, *The Emperor's New Mind* (New York: Oxford University Press), p.344.

(2) Stephen Hawking, *A Brief History of Time. From the Big Bang to Black Holes* (London: Bantam Press, 1988), p. 127.

(3) رودني هولدر (1369هـ/ 1950م-): عالم فيزياء فلكيّة ورياضيات. مدير مؤسسة «Faraday Institute for Science and Religion» في كلية «St. Edmund». له عناية خاصّة بالرد على الفيزيائيّين الملاحدة.

«يُقدِّم استدعاءُ الأكوان المتعدّدة **تفسيرًا ميتافيزيقيًّا** للحياة لا تفسيرًا علميًّا لها؛ بسبب عدمِ وجودِ آثارٍ قابلة للملاحظة. كما أنّ هذه النظريّةَ هي أيضًا غيرُ علميّةٍ بمعنًى آخَرَ، وذلك أنها تقدّم نوعًا «جامعًا» لكلّ تفسيرٍ».[1]

إنّ الإلحاد الذي يقول إنّ العلم يقود إلى الإلحاد؛ بدعوى أنّ العلم قد فسّر ظاهرةَ الضبط الدقيقِ بالأكوان المتوازية؛ **ينتهي إلى إبطال العلم رأسًا**؛ لأنه أصبح يحرّك العلمَ بلا دليل؛ لأجلِ إبطالِ دلائل الإيمان؛ فأصبح يفترض أكوانًا لا نهائيةَ العدد، كلٌّ واحدٍ منها يخالف الآخَرَ طبيعةً، حتى يتوصلَ إلى إثباتِ أنّ كونَنا صُدفةٌ فيزيائية سعيدة، ولو كانت هذه الفرضيةُ تقوم على التمنّي والتشهّي بناءً على قاعدةِ «آمِن ثم استدلّ»، وغيرَ قابلةٍ للاختبار العلميّ.[2]

الفيزياء الكونيّة المعاصرة لم تخدم كشوفها الكبرى غير الإيمان. ولم يساهم الإلحاد إلّا في كثرة الظنون «العلميّة» لتفادي المآلات الدينيّة لتقريرات هذا العلم.

2. الحياة بين دعوى الإلحاد ودعوى الإيمان

جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾ [الروم/ 19]؛ فنشأة الحياة من اللاحياة، وما ينمو ممّا لا ينمو، من خصائص الربوبيّة. ويخبرنا في المقابل فريقٌ من الملاحدة أنّ الإلحاد حقٌّ؛ لأنه جعلنا -من خلال العلم الطبيعي- نُدرِك أنّ نشأة الحياة من اللاحياة أمرٌ طبيعي لا يحتاج إلى خوارقَ؛ فالطبيعةُ تفسِّر نفسَها، من

(1) Rodney Holder, 'Fine-Tuning, Many Universes, and Design,' *Science & Christian Belief*, Vol 13, No. 1. 20.

(2) أحرج برهان الضبط الدقيق الملاحدة بصورة بالغة؛ حتّى إنّ ج.ب. مورلند قد ذكر في كتابه «العلم والعلمويّة» أنّ زميله الفيلسوف ديفيد هورنر David Horner أخبره أنّه لمّا كان يدرس في جامعة أكسفورد، سمع أحد كبار الملحدين في العالم (لم يذكر اسمه) يتحدّث عن الضبط الفيزيائي الدقيق، مقرًّا أنّ هذا الدليل الحديث يقدم حجّة عظيمة على وجود الله، وأنّه عاجز عن الردّ على هذا الدليل المعارض لإلحاده.
J. P. Moreland, *Scientism and Secularism: Learning to Respond to a Dangerous Ideology* (Wheaton, Illinois: Crossway, 2018), p.145.

خلال آلياتٍ طبيعيّة صِرفة. لقد استطاع العلماء المهتمون بنشأة الحياة أن يُظهِروا أنّ الخلق الإلهي خرافةٌ، وأنّ النشأة الطبيعية هي الحقُّ.

وتلك دعوى منتقَضةٌ بدلالاتِ كشوف العلم نفسِه؛ فإنّ العلم دالٌّ على أنّ نشأة الحياة تشير إشارةً ضروريّةً إلى وجوب الإيمان بالحكمة المتعالية عن المادة، أي بلُغةِ المتدينين: الحكمة الإلهية.

أ. طبيعة مشكلة نشأة الحياة

يرى فريق من الملاحدة أنّ العلم قد فكّ شفرةَ الحياة، وأدرَك أصلَ الخلية الأولى التي تطوّرت عنها كلُّ المنظومة الأحيائيّة؛ فلا حاجة إذن إلى الإله الذي يسمّيه المؤمنون الخالق والبارئ والمحيي. وتلك دعوى مَن يُذعِن للمعرفة الواردة عن طريق المنصّات الإلحاديّة، دون أن يُدرِك أنّ أصل الحياة، هو أحدُ أعظمِ حُجج المؤمنين بالله؛ فإنّ الحياة ناطقةٌ بمعاني الحكمة والقدرة التي تتجاوز حدودَ طبيعة المادة.

وقد أدرَك أعلامُ الإلحاد أنّ الخيارَين المطروحين أمام العقلاء في شأن أصل الحياة، أي «العشوائية» و«الحكمة»، لا يسمحان للبصير أن ينحاز إلى العشوائية؛ لعُقْمها الواضح؛ فغيّروا الأمرَ إلى خيارَي «التفسير العلمي المادي» أو «الإله الغيبي». وهذا من جنس اللعب بالكلمات؛ ليتم إحراج المؤمن حتّى يقبَلَ التفسيرَ «العلمي» ولو كان سخيفًا، ويرفضَ التفسيرَ «الغيبي» الذي لا يمكن إثباتُه علميًّا؛ فإنْ أبى؛ فهو يقبَل التفسيراتِ الغيبيةَ التي لا شاهد لها ويكذِّبها العلمُ، أو هو يرفض بعنادٍ أن يوجد في المستقبل تفسيرٌ علمي مادي معقول لأصل الحياة؛ فالإيمانُ الديني بهذا المعنى خَصمٌ للعلم، مانعٌ للعقل أن يبحث في مجاهيلِ ما لم يُدرِكه بعدُ، أو «science stopper» بعبارتهم.

إنّنا هنا أمام ظاهرة طبيعية، **إذا رفضنا تفسيرها بالعشوائية، فلا بد من ردّها إلى الحكمة**. وأمّا البحث في أنّها حكمة إلهية، تخصيصًا؛ فنظر آخر عقلي، بعد الانتهاء من الفهم العلمي لظاهرة نشأة الحياة؛ فالمؤمن بالله لا يقول: «إنّ العشوائيّة عاجزة عن إنشاء هذه الحياة بصفاتها الدقيقة والعظيمة؛ ولذلك فالله هو خالق الحياة!» وإنّما يقول إنّ عجز العشوائية عن إنشاء هذه الحياة، يُلزمنا أن نعتقد أنّ الحياة البيولوجيّة حصيلة حِكمة. وهذه الحكمة متعالية على المادة؛ لأنّ المادة لا عقل لها؛ ولذلك فخالق الحياة؛ بالِغ الحكمة والقدرة، ومفارق للطبيعة. وذاك هو الله. فالوصول إلى خالق الحياة، أثَرٌ عن عمليّة عقليّة مركّبة، تنتهي أوّلًا إلى «الحكمة»، ثم تبحث لاحقًا في المتّصف بها. ولا يُجدي الملحد هنا أن يقول إنّ إقحام التفسير الإلهي قائم هنا على منهج «إله الثغرات» «God of the Gaps» ؛ -أي إنّ كلّ ما يعجز العلم عن تفسيره اليوم يُردّ إلى الإله الغيبي؛ فالتفسير الديني بذلك قائم هنا على المعلوم لا المجهول-؛ فإنّ التفسير بالحكمة أصله العلم بحقيقة الطبيعة وعظيم صنعها -كما سيأتي لاحقًا- لا الجهل بها.

وليس من الصواب القولُ إنّ الجواب عن أصل الحياة لا بدّ أن يكون ماديًّا، ضِمن سُنن الكون؛ لأنه لا دليل على ذلك، فإنّ ذلك تحكُّمٌ سببُه الإيمانُ الأعمى بالرؤية الطبيعانية للكون، والحقُّ هو وجوبُ الإذعان للتفسيرات الأفضل inferences to the best explanation، أيًّا كان هذا التفسيرُ، سواءٌ كان ماديًّا أو غيرَ مادي.

إنّ المقدمات الأولى للجدل حول أصل الحياة قائمةٌ على ثلاثِ حقائقَ كبرى تجعل الإلحادَ في أزمة:

1- الداروينية لا عَلاقة لها بالبحث في أصل الحياة؛ فحتى لو افترضنا صحةَ التطوّر لأدلّةٍ يدعيها، فسيبقى أنّ أصل الحياة موضوعٌ آخَرُ -باعتراف الدراونة أنفسِهم-، يحتاج إلى أدلةٍ مخصوصة؛ تتعلّق بنشأة الحياة من اللاحياة لا تطوّرِ الحياة من حياةٍ سالفة.

2- ظاهرُ الخليّة الأولى وبقيّةُ مظاهر الحياة، دالٌّ على التصميم لا العشوائيةِ، ومن ذلك قولُ جيري كوين Jerry Coyne[1]، البيولوجيِّ التطوري **الملحدِ** العنيد: «إذا كان هناك شيءٌ يصّح قولُه عن الطبيعة، فهو أنّ النباتاتِ والحيوانات **تبدو مصمَّمةً** بشكلٍ معقّدٍ ومثالي تقريبًا لتعيش حياتَها. فالحبّارُ والأسماك المفلطَحة تُغيّر لونَها ونمطها لتنسجمَ مع محيطها... والخفافيشُ لديها رادار لتقتنصَ الحشراتِ في الليل... والطيورُ الطنانة أكثرُ رشاقةً من أي طائرة مروحية بشرية».[2] ومن ثَمّ فالحجّةُ على منكِر التصميم لا مثبتِه؛ فالأمورُ على ظواهرها حتى يثبُت خلافُ ذلك.

3- الجميع مقرٌّ أنّ إثباتَ وجودِ تصميمٍ في أصل الحياة حجةٌ لصالح الإيمان لا الإلحادِ.

ونحن إذا استحضرنا المقدماتِ الثلاثَ السالفة، وتفكَّرنا في أصل الحياة في ضوء ذلك؛ فلا بدّ أن ننتهيَ إلى أنّ «نشأة الحياة» حجّةٌ للإيمان لا الإلحادِ؛ فإنّ الدلائل العلميّةَ على ذلك كثيرةٌ ومتنوّعة. ومن هذه الدلائل ما سنبحثه الآن.

ب. الحد الأدنى للحياة

الصورةُ الأدنى للحياة، والتي نشأت عن غيرِ تطور، هي على درجةٍ عظيمة من التعقيد. وهو تعقيدٌ شديد، ومركَّب، يحتاج ردُّه إلى العشوائيّة إلى قدرٍ من الإيمان الديني الذي يفوق إيمانَ المسلِم بأنّ الله سبحانه قد خلَق الحياةَ عن غيرِ سلَفٍ.

يصوّر لنا **الدارونيُّ المتطرف**، والحاصل على جائزة نوبل، والمهتمُّ بموضوعِ أصل الحياة، جاك زوزستاك Jack Szostak هذا التعقيدَ بقوله: «كلُّ خليّةٍ حيّة، حتى

(1) جيري كوين (1368هـ/ 1949م-): بيولوجيٌّ أمريكيّ، من أصلٍ يهوديّ. مهتمٌّ بالترويج لدعوى تعارض العلم والدين. من أهم خصوم «تيار التصميم الذكي» في أمريكا.

(2) Jerry Coyne, *Why Evolution is True* (Oxford: Oxford University Press), p. 1.

أبسط بكتيريا، **تعجُّ** بالغرائب الجزيئية التي من شأنها أن تكون **موضعَ حسدِ أيِّ عالِم في مجالِ تكنولوجيا النانو** nanotechnologist.[1] فبينما تهتزّ هذه الآلاتُ أو تدور هذه الأشياءُ حول الخلية بلا توقف، تقوم أيضًا بقصٍّ ولصقٍ ونسخ الجزيئات الجينية، ونقلِ المواد الغذائية أو تحويلِها إلى طاقة، وبناءِ وإصلاح الأغشية الخلوية، ونقلِ الرسائل الميكانيكية أو الكيميائية أو الكهربائية، والقائمةُ تطول وتطول، وتضاف اكتشافاتٌ جديدة إليها طوال الوقت».[2]

لا يمكن للكائنِ الحيّ أن يعيشَ ويتكاثر دون حدٍّ أدنى من الجينات تتيح له التواصلَ مع بيئته للاغتذاء والتكاثر. وقد قام عالِمُ الكيمياء الحيوية التطوّريُّ كريج فنتور-الذي سبق له الكشفُ عن تفاصيلِ جينوم الإنسان-مع مجموعةٍ من العلماء بالبحث عشرين سنةً للتوصل إلى أقصى حدٍّ أدنى لكائنٍ حيٍّ ليستوفيَ شروطَ الحياة، وأعلَن الفريقُ نتيجةَ جهده منذ أشهُرٍ قلائلَ، وهو أنّ الحدَّ الأدنى من الجينات المطلوبة لحياةِ خليّةٍ مستقلّةٍ عن غيرها وقادرةٍ على النُّمو السّليم هو 473 جينًا؛[3] أي أكثر من نصفِ مليونِ حرفٍ نيكلوتيديٍّ بترتيبٍ مخصوصٍ.[4]

وبعيدًا عن أنّ هذا الرّقْمَ مَحلُّ نظَرٍ لأنّ الفريقَ استبعد جيناتٍ لا يعلَم وظيفتَها وأخرى يبدو أنها غيرُ أساسيّة رغم أنّ ترابُطَ العمل الجينيِّ قد يكشفُ ضروريتَها لعملِ بقيّة الجيناتِ، إلّا أنه على كُلِّ حالٍ كافٍ ليهدِمَ كُلَّ نظريّات التطوّر الكيميائيِّ لأصل الحياة؛ فإنّ هذا العددَ الضخم من المعلومات التي صيغت في قالبِ تعقيدٍ

(1) تكنولوجيا النانو: عِلمٌ هندسي يهتم بالتعامل مع الذرّات والجزيئات التي لا تتجاوز أبعادها 100 نانومتر (100 مليون جزء من المليمتر) لتصميم وإنتاج الأجهزة والأنظمة المجهرية.

(2) "The Origin of Life on Earth," *Scientific American*, August 19, 2009, p. 54.

(3) J. Craig Venter *et al.*, 'Design and synthesis of a minimal bacterial genome', *Science* 25 Mar 2016: Vol. 351, Issue 6280.
<http://science.sciencemag.org/content/351/6280/aad6253>.

(4) C.M. Fraser, *et al.*, 'The minimal gene complement of Mycoplasma genitalium', *Science* **270** (5235):397-403, 1995

مخصوص لا يتآلَفُ مع العشوائيّة؛ فإنّ **احتمالَ الظُّهور العشوائيّ للحدّ الأدنى من الجينات يفوق ببلايين مُبلَيَنَةً عمرَ الكون**، أو بعبارةٍ أخرى هو يفوق بدرجةٍ كبيرةٍ الحدَّ الأقصى للاحتمالات الممكنة في حدودِ عمرِ هذا الكونِ وسعتِه: 1 من (10^{150})[1]، وهو ما يساوي **الصفرَ الرياضي!**

ت. المعلومة المخصوصة

هذا الكونُ وِعاءٌ ضخم لعددٍ هائلٍ من «المعلومات» التي بها تتشكّل مظاهرُ الوجود. وهذا أمرٌ ظاهرٌ حتّى في أدنى أوعية المعلومات في الكون؛ فالخليةُ البسيطة -رغم صِغرها- تضم قُرابةَ 10^{12} بايت من المعلومات. وهو عددٌ هائل، إذا علمتَ أنّ ذلك يوازي 100 مليونَ صفحةٍ كصفحات الموسوعة البريطانية.[2]

والمعلومةُ مهيمنةٌ على الخلية، وساريةٌ في كلِّ أجزائها. وقد كان يُعتقَد أنّ المعلوماتِ ترِد إلى عُضيّات الخلية من النواة، في حركةٍ تدفّقٍ بسيطة، ثم تبيَّن أنّ الأمر أعقدُ من ذلك، وأنّ الوصف القديم بسيطٌ جدًا؛ فالمعلوماتُ موجودةٌ في كلِّ مكانٍ في الخلية، والتبادلُ المعلوماتي لا يتوقف بين أجزاء الخليّة؛ ولذلك قيل إنّ أفضل وصفٍ للمعلومات في الخلية ليس هو انتقالها من أعلى إلى أدنى، وإنّما أنّ الخليّة تحتفظ «بدفترِ ملاحظاتٍ تعاوني» «collaborative notebook»، وتستخدمه جميعُ مكونات الخلية لتتبّع أنشطتها والمساعدةِ في الحفاظ على الخلية.[3]

ومشكلةُ المعلومة إلحاديًا، تتجاوز مسألةَ الحد الأدنى المطلوبِ منها للحياة إلى أنّ المعلومة لا يمكن أصلًا أن تَنتُج من العشوائيّة. يقول بول ديفيس: «**لا يوجد قانونٌ**

(1) Behe, Dembski and Meyer, *Science and Evidence for Design in the Universe* (San Francisco: Ignatius Press, 2000), p.76

(2) "Life" *Encyclopedia Britannica Macropaedia*, 15th ed. (Chicago: Encyclopedia 1974), pp. 893-894.

(3) Charudatta Navare, "The cell is not a factory," *Aeon*, 26 March 2024 <https://aeon.co/essays/biology-is-not-as-hierarchical-as-most-textbooks-paint-it>.

فيزيائيٌّ معروفٌ قادرٌ على إنشاء معلوماتٍ من لا شيء».[1] وبعبارةٍ أوسعَ على لسانِ فرنر غيت[2] -المتخصّصِ في علم المعلومات-، وصاحبِ الكتاب المهم: «في البَدء كانت المعلومةُ»: «لا يوجد قانونٌ طبيعيٌّ معروفٌ تقوم المادة من خلالهِ بإنشاءِ معلومةٍ، وليس ذلك موجودًا في أيِّ عمليّةٍ فيزيائيّةٍ أو ظاهرةٍ ماديّةٍ معروفة».[3]

ويدور جهدُ فيلسوفِ العلوم ستيفن ماير Stephen C. Meyer [4] -الذي أكَّدَ على عَلاقة المعلومة بالذكاء ضرورةً في كُتبه ومقالاته ومناظراته، دون أن يجد عند الملاحدة ردًّا عاقلًا على تقريراته- حول الأمر ذاتِه. وقد لخَّص جوهرَ التحدّي الذي عرَضه على مدى العقود الثّلاثة الأخيرة في قوله: «إنّ لدينا تجارِبَ متكرّرةً حول ذواتٍ عاقلةٍ وواعيةٍ -خاصةً أنفسنا- تُولِّد تعقيدًا مخصوصًا للمعلومات أو تتسبّب فيه، سواءٌ كان تسلسُلًا مخصوصًا للشفرات أو على شكلِ أنظمةٍ تضم أجزاءً، مرتَّبةً هرميًّا. ... إنّ معرفتَنا حول تدفق المعلومات، والقائمةُ على التجربة تؤكّد أنّ الأنظمة التي تضم كَميّاتٍ كبيرةً من التّعقيد المخصوص (خاصة الشفرات واللغة) تنشأ دائمًا من مصدرٍ ذكيّ؛ من عقلٍ أو ذاتٍ شخصيّةٍ (personal agent)».[5]

إنّ جدَلَ النّشأة ليس متعلقًا فقط بوجود المادّة في هذا الكون، وإنّما يتجاوز ذلك إلى صياغة المادّة على صورةٍ تجعلها قادرةً على تشكيل الوجود الحي على الأرض. ولذلك كتَب عالِمُ البيولوجيا الجزيئية كومفيلد الحائزُ على جائزة **نوبل**: «كثيرًا ما يغمُرُني شعورُ الحكمة اللّامتناهية لله عندما أعمل بجدٍّ في دراسة الجزيئات المعقّدة

---

(1) Paul Davies, 'Life force,' *New Scientist* **163** (2204):29, 18 September 1999.

(2) فرنر غيت Werner Gitt (1356هـ/ 1937م-): ألمانيٌّ. رئيسُ قسمِ تكنولوجيا المعلومات في «German Federal Institute of Physics and Technology».

(3) Werner Gitt, *In the Beginning Was Information* (New Leaf Publishing Group, 2006), p.80.

(4) ستيفن س. ماير (1378هـ/ 1959م-): أمريكيٌّ. أحدُ أئمّة تيّار التّصميم الذكيّ. ناقَش في كُتبه أصولَ المنهج العشوائيِّ للدّاروينيّة، عارِضًا البديلَ التّصميميَّ وأدلتَه.

(5) Stephen C. Meyer, 'The Origin of Biological Information and the Higher Taxonomic Categories,' *Proceedings of the Biological Society of Washington* 117.2 (2004): 213-39.

والدقيقة جدًّا في المختبر... إنّ المرء ليُدهَش كيف أنّ آليّةً بذاك التعقيد من الممكن أن تعمل بصورةٍ سليمة أصلًا.. إنّ أصغر آليّةٍ صنَعها الإنسانُ تحتاج إلى مخطِّط وصانعٍ؛ ولذلك فإنّ **تصوُّرَ أنّ آليّةً أعقدُ من ذلك عشْرَ مرّاتٍ قد كُوِّنت وتطوّرت بنفسها، أمرٌ يتجاوز فهمي بصورةٍ تامّة**».[1]

والمعلومةُ التي نتحدّث عنها ليست هي تلك التي يريد الدّراونةُ صَرْفَ الناس إليها في هذا النّقاش، أي ما يُعرفُ بـ«Shannon information»[2] والمتعلّقةُ بمحضِ إمكانِ حصولِ سلسلةٍ من الأحداث؛ أي الجانب الكَمّي المحض للأحداث، مثل طفَراتٍ تُبعثِر ترتيبَ نيوكليداتِ «الحَمض النووي الصِّبغي» وتُتلِفُ المعلوماتِ الوظيفيَّةَ التي فيه. وإنّما نحن نتحدث عن ما يُسمّى «التعقيد المتفرّد» «specified complexity»، وهو مصطلحٌ سكَّه عالِمُ الكيمياء الشّهيرُ المتخصّص في موضوعِ أصل الحياة لزلي أُورجل[3]، وقصَد به التَّمييزَ بين الكائنات الحيّة والأخرى غيرِ الحيّة. وقد طوَّر هذا المفهومَ عالِمُ الرياضياتِ الفيلسوفُ ويليام دمسكي في كتابه «The Design Inference».

وما الحياةُ سوى معلومةٍ تتميّز بالتعقيد المتفرّدِ ظهرَت آثارُها في صورةٍ ماديّة، ولذلك يقول البيولوجيُّ الشّهير، **الملحدُ** كريغ فنتر: «الحياةُ نظامُ برمجيّاتٍ للحَمض النووي الصِّبغي» « life is a DNA software system».[4]

ولا يمكن للطّفرات العشوائيّة أن تصنَعَ «معلومةً»؛ إذ إنّ هناك فرْقًا بيّنًا بين أن تكون الطّفرةُ نافعةً -بسببِ فقْدِ «المعلومة»- وبين أن تُضيف إلى الحوض الجيني

(1) E.C Komfield, "The Evidence of God in an Expanding Universe," *Look*, January 16, 1962, p.16.

(2) في ضوء هذه النّظريّة، المعلومةُ هي: كُلُّ ترتيبٍ مُعقّدٌ.

(3) لزلي أورجل Leslie Orgel (1345-1428هـ/ 1927-2007م): كيميائيٌّ بريطانيٌّ. درَّس في عدد من الجامعات الأمريكيّةِ وتعاوَن مع وكالة ناسا في عددٍ من المشاريع العلميّةِ. تحدَّث عن «التّعقيد المخصوصِ» في كتابه «أصول الحياة» للتّمييز بين الكائنات الحيّة والكائنات غير الحيّة.

(4) J. Craig Venter, "The Big Idea: Craig Venter On the Future of Life," *The Daily Beast*. October 25, 2013. <www.thedailybeast.com/articles/2013/10/25/the-big-idea-craig-venter-the-future-of-life.html>.

معلوماتٍ تتسم بالجِدة لا التَّكرارِ،[1] وهذا ما عجَز الدَّراونةُ عن بذْله إلى اليوم. وقد فنَّد عالمُ الفيزياء الحيويّةِ لي سبتنر[2] كُلَّ دعاوى إضافةِ معلوماتٍ إلى الحوض الجيني للكائنات الحيّة في كتابه «ليس عن صُدفة!».[3]

ومن الظَّريف هنا التّذكيرُ بالمقطع الشّهير في الفيلم الوثائقي «مِن ضِفدعٍ إلى أمير» «A Frog to a Prince» حيث سأل المذيعُ داوكنز أن يُقدِّم له مثالًا واحدًا على زيادة المعلومات في الحوض الجيني للكائن الحي بسبب طفرةٍ جينيّة أو مسارٍ تطوّري. وكان رَدُّ فِعلِ داوكنز أن رفَع رأسَه إلى السَّماء متفكّرًا طويلًا.. ثم لم يُعْطِ جوابًا![4]

أين حجّتُنا هنا؟

يجيبنا ستيفن ماير بقوله: «تؤكد خبرتُنا الموحدة أن المعلومات المخصوصةَ - سواءٌ كانت منقوشةً في كتاباتٍ هيروغليفية أو مكتوبةً في كتابٍ أو مشفَّرة في إشارةِ راديو أرضيةٍ أو منتَجةً في تجرِبةِ «هندسة ريبوزومية» في عالَم الحَمض النووي الريبي - تنشأ دائمًا من مصدر ذكي، من عقلٍ وليس من عمليةٍ مادية بحتة. لذا فإنّ اكتشافَ المعلومات الرقمية المحددة وظيفيًّا في الحَمض النووي الصِّبغي والحَمض النووي الريبي يوفر أساسًا قويًّا للاستدلال على أنّ الذكاء لعِب دورًا في أصلِ هذه الجزيئات.

---

(1) محاولةُ استنقاذ العُقْم الدارويني بالزعم أنَّ تضاعُفَ الجينات (Gene-duplication) يحلّ المشكلةَ؛ إذ تؤدّي الطفَراتُ في الجين الجديدِ إلى صناعة جينٍ بوظيفةٍ جديدةٍ، محاولةٌ فاسدةٌ؛ إذ إنّ المعلومات بهذا المعنى لا ترفَع الرصيدَ الكيفيَّ للجِين.
والمشكلةُ الأساسيّة في دعوى تحوُّلِ الجين إلى وظيفةٍ جديدةٍ هي أنّ الدَّراونةَ لم يقدموا لذلك تصورًا عمليًّا له تفاصيلُ بعيدًا عن العناوين، حتّى اعترفَ -حديثًا- مجموعةُ علماءَ في مَجلّة «Nature» بقولهم: «المبادئُ العامّة التي تحكُم هذه العمليّةَ لا تزال مجهولةً إلى حدٍّ كبير» (Ilan Wapinski, Avi Pfeffer, Nir Friedman & Aviv Regev, "Natural history and evolutionary principles of gene duplication in fungi," *Nature*, Vol. 449:54-61 (September 6, 2007)).

(2) لي سبنر Lee Spetner (1345هـ/ 1927م): عالمُ فيزياء وفيزياء حيوية أمريكيٌّ. درَّس في «Johns Hopkins University».

(3) Lee Spetner, *Not by Chance* (New York: Judaica Press, 1999), pp.125-174

(4) Richard Dawkins gets intellectually trounced by clever creationist <https://www.youtube.com/watch?v=gSr7S3mPW9I>.

فكلّما وجدنا معلومات محددةً وعرفنا القصةَ السببية لكيفيةِ نشأة هذه المعلومات، نجِد دائمًا أنها نشأت من مصدرٍ ذكي. ويترتب على ذلك أن التفسير الأفضل والأكثر ترجيحًا لأصل المعلومات المحددة المشفَّرةِ رقْميًّا في الحَمض النووي والحَمض النووي الريبي هو أن مصدرها ذكيٌّ أيضًا. ويفسِّر التصميمُ الذكي أفضلَ تفسيرٍ للمعلومات الوراثية المحددة اللازمة لإنتاجِ أوّلِ خليةٍ حية».[1]

ث. التعقيدُ غيرُ القابل للتّبسيط

قال داروين في كتابه «في أصل الأنواع» إنه «إذا تم إثباتُ وجودِ أيِّ عضوٍ معقّدٍ ليس بالإمكان أن يتشكّلَ من خلال تغييراتٍ متعددة ومتتالية وطفيفة، فستنهار نظريتي انهيارًا تامًّا».[2] وقال داوكنز لاحقًا -مؤيّدًا تحدي داروين-: «لقد أصاب القائلون بالمذهب الخَلْقي في أنه إذا تم إثباتُ وجودِ تعقيدٍ حقيقيٍّ سليمٍ غيرِ قابلٍ للتبسيط، فإنّ ذلك من شأنه أنْ يُدمِّرَ نظريةَ داروين».[3]

خلاصةُ ما سبق الإقرارُ بأنّ وجودَ عضوٍ يأبى تفسيرُه التطوُّرَ البطيء التصاعدي، ويقوم وجودُه على ظهورٍ مفاجئ لا يمكن اختزالُه في تدرُّجٍ بسيط، يهدِم أصلَ التفسير المادي العشوائي؛ لأنّ التطوُّرَ يقتضي التغيُّرَ السَّلِسَ والبَسيطَ ولا يسمَح بالقفَزات المعقَّدة الوظيفيّة.

ومن أبرزِ مظاهرِ التعقيد غيرِ القابل للتبسيط في الطبيعة، ما تراه في الخلايا من آلات. والمقصودُ بالآلة هو كلُّ «تجمُّع لأجزاءٍ ينقُل القُوى أو الحركةَ أو الطاقة من جزء إلى آخَرَ بطريقةٍ محدَّدة مسبقًا».[4] وهذه الآلاتُ كثيرةٌ جدًا في الطبيعة؛

(1) Stephen C. Meyer, "Evidence of Intelligent Design in the Origin of Life," in *The Mystery of Life's Origin: The Continuing Controversy* (Seattle, WA: Discovery Institute Press, 2020), 455-456.

(2) Charles Darwin, *On the Origin of Species*, p.175.

(3) Richard Dawkins, *The God Delusion* (London: Bantam Press, 2006), p.125.

(4) Tinh-Alfredo V. Khuong, Jose E. Junez, Carlos E. Godinez, and Miguel A. Garcia-Garibay, "Crystalline Molecular Machines: A Quest Toward Solid-State Dynamics and Function," *Accounts of Chemical Research*, Vol. 39(6):413-422 (2006).

حتى إنّ بحثًا نُشر سنةَ 2006م ذكَر اكتشافَ ما يزيد عن 250 آلةٍ جزيئية جديدة في الخميرة وحدها![1]

ومن أعظم وأظرف هذه الآلات العظيمة، والتي لا تبصرها العينُ المجردة، وإنّما تُرى فقطَ من خلال مِجهرٍ إلكتروني متطور جدًا، ودقيقٍ جدًا، العتّالُ المسمّى كينيسين kinesin [2]، وهو آلةٌ لا يفوق حجمُها 70 من 1000.000.000 جزءٍ من المتر الواحد. ويُعَدّ أكثرَ المحرّكات ظرافةً في شكله، وبراعةً في وظيفته[3]؛ إذ إنّ

- له ذراعَين على الحقيقة لا المجازِ لحَمْل الأثقال.
- له رجلان للمشي على الحقيقة لا المجازِ.
- ينقُل العُضَيّاتِ الثّقيلةَ التي تفوق حجمَه مرّاتٍ كثيرةً.
- يستعمل في حركته في الخلية على الطريق السّريعة، وهي «أنابيب» دقيقةٌ جدًا ممتدةٌ داخل الخلية.
- يقوم بتغييرِ حجمِ خُطواته تبعًا لِثقَل الحمولة.
- تبلغ سرعتُه مئةَ خُطوةٍ في الثّانية الواحدة، وهو ما يقابل في عالَم البشر -إذا قارنّا أمرَ السرعة بالحجم- «جَرْيَ» الإنسان بسرعةِ 1300 ميلٍ في الساعة!
- يُسلِّم بضاعتَه إلى عتَّالٍ آخَرَ (OSM-3) في الطّريق ليُتِم الرّحلةَ الطّويلة بسرعةٍ أعلى منه.[4]

(1) "The Closest Look Ever at The Cell's Machines," *European Molecular Biology Laboratory*. ScienceDaily.com (January 24, 2006).

(2) هذا فيديو تقريبيٌّ لعمله:
<https://www.youtube.com/watch?v=y-uuk4Pr2i8>.

(3) أرجو مشاهدةَ الفيديو التالي لتصوُّرِ تفاصيلِ هذا الكائن ووظيفته:
<https://www.youtube.com/watch?v=Dn6i91NRMu8>.

(4) O'Hagan, R., Barr, M. A motor relay on ciliary tracks. *Nature Cell Biology,* 17, 1517-1519 (2015).

- عنده قدرةٌ على معرفةِ عوائقِ الطّريق، وتجاوُزِها. وهو في ذلك يملك منظومةً شبيهة بـ(GPS) تؤهّله لإعادةِ ترتيبِ سَيرِ الرّحلة إذا حصل طارئٌ في إعادةِ ترتيبِ خارطةِ الوصولِ إلى مقصِده.
- لإنتاج الطاقة التي يحتاج إليها، يقوم بتحويل الطاقة الكيميائية إلى طاقةٍ ميكانيكية.
- يمتلك نظامَ اقتصادٍ عاليًا؛ إذ يعود إلى مركز الخليّة في مجموعاتٍ حفاظًا على الطّاقة، أو يتفكك لتتم إعادةُ تدويرِ (recycle) أجزائه.[1]
- يقوم بالانطواء على نفسه بطريقةٍ بارعة للحفاظ على الطاقة عندما يكون خارج العمل.[2]
- درجة فاعليته عاليةٌ جدًّا؛ حتى قال ماتياس ريف Matthias Rief، من قسم الفيزياء في جامعة ميونخ التقنيةِ: «لا يزال هذا الجزيءُ متفوقًا على **كل جهودِ تكنولوجيا النانو الحديثةِ**، وهو مثالٌ رائع لنا جميعًا [في هذا الباب]».[3]

إنّ الخليّةَ لا تستغني عن هذا العَتّالِ لحاجتها إلى نقل العُضَيّات من مكانٍ إلى آخَرَ لاستمرارِ عملها؛ فإنّ استمرار الخليّة في الحياة رهينٌ بعمليةِ نقْل العُضيات من مكانٍ إلى آخَرَ حتّى تؤدّيَ الخليّةُ وظيفتَها الحيوية. وهو يتسلّم البضاعةَ من (Golgi apparatus) بعد تغليفها وتحديدِ عنوانِ المستلِم. وقد كشَف البحثُ عن أهميّةِ دورِ هذا العَتّالِ في عمليّةِ انقسامِ الخليّة. وهو ما يُظهِر أنّ الحياةَ الأُولى لا تستغني عن

(1) Jonathan Sarfati, *By Design: Evidence for Nature's Intelligent Designer* (Powder Springs, GA: Creation Book Publishers, 2008), pp.139-140.

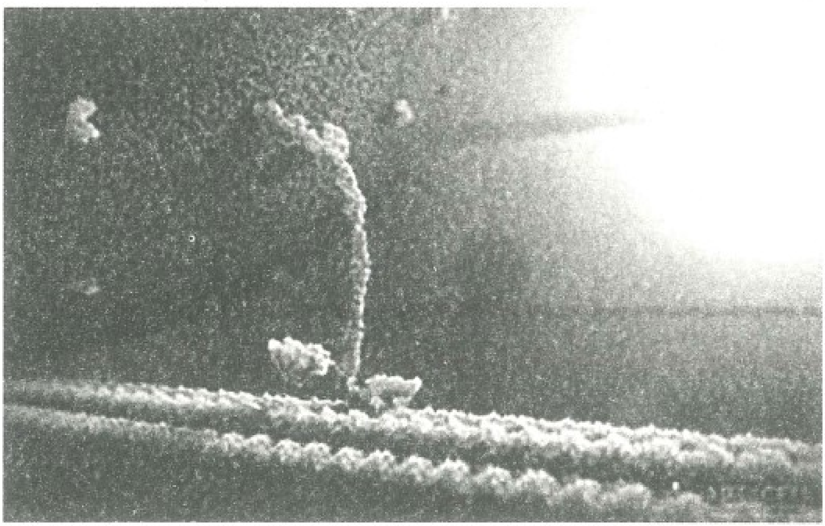
(2) H. Y. K. Kaan, D. D. Hackney, F. Kozielski. The Structure of the Kinesin-1 Motor-Tail Complex Reveals the Mechanism of Autoinhibition. Science, 2011; 333 (6044): 883

(3) "It is still far superior to all the efforts of modern nanotechnology and serves as a great example to us all."
Technische Universitaet Muenchen. "Intracellular express: Why transport protein molecules have brakes." ScienceDaily, 11 October 2010. <www.sciencedaily.com/releases/2010/05/100521191233.htm>.

جنسٍ عمله لضمانِ بقاءِ الحياة قبلَ ظهورِ الانتخاب الطبيعي. والكينيسين -كإحدى آلات العتالة- قد ظهر بعد عصرٍ قريب من نشأة الحياة.

يقول ستفن م. بلوك Steven M. Block [1] -رئيسُ جمعيّة الفيزياء الحيويّة الأمريكيّة-: «الحركةُ على مستوى الخليّة هي السِّمةُ المميِّزة للكائن الذي على قيد الحياة. والسؤالُ الأساسي هو: كيف تعرِف الكائناتُ الحيّة كيف تتحرّك؟ الجواب هو أنها تُنشِئ كينيسين وعددًا آخَرَ من المحرّكات البروتينيّة الفعّالة جدًّا. فلو فشِل الكينيسين تمامًا في ذلك؛ لكنتَ فشِلتَ في أن تكون جنينًا، لأنّ خلاياك ما كانت لتعيش. والأمرُ على هذه الدرجة من الأهميّة».[2]

صورةٌ مرسومة تحاكي الشكلَ الحقيقي للكينيسين



(1) ستيفن م. بلوك (1371هـ/ 1952م-): عالمُ فيزياء حيوية أمريكيٌّ. عضو الأكاديمية الوطنية للعلوم.

(2) Charles L. Asbury, Adrian N. Fehr, Steven M. Block, 'Kinesin Moves by an Asymmetric Hand-Over-Hand Mechanism,' *Stanford News Service*, 12/5/03

ج. الوعي والطِّبابة والصيانة

قال موسى عليه السلام في محاورته فرعون: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه/ 50]. قال قتادة السدوسي المفسّر: أعطى كل شيء ما يصلحه، ثم هداه له.[1] وهي هداية تظهر على المستوي الكُبروي في بناء القندس بيته بصورة هندسيّة صلبة، وبناء النحل الخلايا السداسية الجميلة بصورة اقتصاديّة باهرة. كما تظهر أيضًا في المستوى الصغروي. وهو الأمر الذي تحدّث عنه علماء البيولوجيا الجزيئية بصورة تأخذ بتلابيب النفس ولا تتركها تستسلم للغفلة بعدها.

ومن ذلك ما كتبه البيولوجيُّ **التطوّري** جيمس أ. شابيرو James A. Shapiro[2] في مقالة بعنوان «**البكتيريا صغيرة لكنّها ليست غبيّة**»، فيه من عجائب الوعي فيما لا عقل له ما يثير الدهشةَ. وقد قال ملخِّصًا هذا البحثَ: «علّمتني خبرتي على مدى أربعين سنةٍ في علم الوراثة البكتيرية أنّ البكتيريا تمتلك العديدَ من القُدُرات المعرفية والحسابية والتطورية التي لا يمكن تصوّرُها في العقود الستة الأولى من القرن العشرين. وتحليلُ العمليات الخلوية [المتعلّقة بالخليّة] مثل التمثيل الغذائي، وتنظيمِ تخليق البروتين، وإصلاحِ الحَمض النووي يُثبِت أنّ البكتيريا ترصُد باستمرارٍ بيئاتِها الخارجيةَ والداخلية وتحسِب نواتجها الوظيفيةَ على أساس المعلومات التي يقدمها جهازها التحسّسيُّ. وقد كشفَت دراساتُ إعادة التركيب الجيني، والاستذابةِ، ومقاومةِ المضادات الحيوية، وبحثي الخاصِّ في العناصر القابلة للنقل، عن عدةِ أنظمةٍ بكتيريةٍ واسعة النطاقِ لتعبئةِ جزيئات الحَمض النووي الصِّبغي وهندستِها.

(1) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، 16/ 81.

(2) جيمس شابيرو (1362هـ/ 1943م-): بيولوجي أمريكي شهير متخصص في علم الجينات البكتيري. درَّس في جامعة شيكاغو. أسَّس مشروعَ «الطريق الثالث للتطوّر» مع البيولوجي دنيس نوبل.

وقد دفعتني دراسةُ تطوير المستعمرات وتنظيمِها إلى أنْ أُكبِر مدى التعاون الواسع للخلايا في معظم الأنواع البكتيرية. وتُبيّن البحوثُ المعاصرة في العديد من المختبرات والمتعلِّقة بظاهرة التواصل بين الخلايا والتكافل وتطوّرِ الأمراض أن البكتيريا تستخدِم آلياتٍ متطورةً للاتصالات الخلَويّة، كما أنّ لديها القدرة على قيادةِ بيولوجيا الخلية الأساسية من «أعلى» النباتات والحيوانات لتلبيةِ احتياجاتها الخاصة. هذه السلسلةُ الرائعة من الملاحظات تتطلب منا مراجعةَ الأفكار الأساسية حول معالجة المعلومات البيولوجيّة والاعترافَ بأنّ أصغر الخلايا هي أيضًا كائناتٌ حية».[1]

إنّ طابَع العمل الذكيّ صفةٌ ضروريّة لكلِّ ظاهرةٍ يسعى أفرادها من خلال مراحلَ مترابطةٍ ومتعاضدة إلى الوصول إلى هدفٍ أعلى يُراد منه تحقيقُ منفعةٍ عاجلةٍ وضروريّة ودفعِ فسادٍ قائم ومهلك، وذاك أمرٌ لا ينكِرُه عاقلٌ سوِيٌّ لم تنتهك نفسَه الوساوسُ المرَضيّة؛ إذ إنّ ردَّ هذا **التقسيم والتمهيد والترتيب والترقّي والرجاء والخشية والجهد والأمل** إلى العشوائيّة يلزَم منه **إلغاءُ مفهوم الذكاء والحكمة** بصورةٍ كليّة من الرصيد البياني والمفاهيمي للإنسان. والناظرُ في عمل الخليّة يُدرِك بوضوحٍ أنّ الغائية تحكم كلَّ أعمال الخليّة، فهي قاعدةُ نشاط العُضيّات فيها.

تُعَدّ -مثلًا- عملياتُ مراجعة النَّسخ في «الحَمْض النووي الصِّبغي» من غرائبِ عالَم العُضيّات في الخليّة؛ إذ إنّ المراجعة والتصحيح لا يمكن عزوُهما إلى العشوائيّة ولا ردُّهما إلى تطوّرٍ أعمى يقوده الانتخاب الطبيعي، فنحن هنا أمام عمليّةٍ بيولوجيّةٍ تتحرّك بإرادةٍ واعيةٍ لها غايةٌ مرسومة سلَفًا؛ تقوم على رصد الخطأ، وإصلاحِه، وطلبِ الصورة النموذجيّة للبناء العضوي. وهي عملياتٌ مدهشة، استغرق الجهد العلمي لكشفها وبيانِ روعتها دراساتٍ خلويّةٍ دقيقةٍ ومعقَّدة.

(1) James Shapiro, 'Bacteria are small but not stupid: cognition, natural genetic engineering and socio-bacteriology', *Stud Hist Philos Biol Biomed Sci.* 2007 Dec; 38(4):807-19.

ومن المهم هنا التذكيرُ بأنّ العلماء اليومَ على اتّفاق أنّ الحَمْض النووي الصِّبغي[1] بنيانٌ عُرضةٌ للفساد السريع بما يصيبه بأعطابٍ مهلكة؛ فكيف استطاع الوجود الحيُّ الأوّل أن يستمر في الحياة ويتوالد رغم كثرةِ أسبابِ هلاكه عند تعرُّض الحَمض النووي لأيِّ عَطَب؟

جوابُ السؤال السابقِ ببساطةٍ في وجودِ آلياتٍ كثيرةٍ، ومتنوعةٍ، ومعقَّدةٍ، وذكيّةٍ في الخليّة تقوم بإصلاحِ ما يُصيب الحَمْضَ النووي الصِّبغي من عَطَب. ولا شكّ أنّ هَشاشة الحَمْض النووي الصِّبغي تستدعي وجودَ آلاتِ الإصلاح **منذ الزمن الأول لظهور الحياة على الأرض.**[2]

وقد أثبَت بحثٌ أُجري منذ عَقدَين من الزمان أنّ **هناك 130 جينًا في الإنسان لإصلاحِ أعطاب الحَمْض النووي الصِّبغي، وأنّ المستقبلَ مُنْبِئٌ بالكشف عن مزيدٍ منها.**«[3]» كما جاء حديثًا في مقالٍ عن تفاعل الخليّة مع ما يصيبها من ضررٍ -في واحدةٍ من أهم المجلّات العلميّة المختصّة في دراسة الخليّة-: «يتمّ إصلاح الحَمْض النووي الصِّبغي من قِبل مجموعةٍ كبيرةٍ من الأنشطة الإنزيميّة التي تُعدِّل كيميائيًّا الحَمْضَ النووي الصِّبغيَّ لإصلاح التلف الذي يصيبه، ومنها (nucleases) و(helicases) و(polymerases) و(topoisomerases) و(recombinases) و(ligases) و(glycosylases) و(demethylases) و(kinases) و(phosphateases). ولا بد أن تكون هذه الأدواتُ الخاصّةُ بإصلاح الأعطاب موجودةً كُلُّها لأنّ كُلًّا منها بإمكانه أن يعبَث بسلامة الحَمْض النووي الصِّبغي إذا أُسيء استعمالُه أو سُمِح له أن يتعامل مع الحَمْض النووي الصِّبغي في غير الوقت أو المكان المناسبَين».[4]

(1) كذلك الحَمْضُ النووي الريبوزيّ RNA.

(2) يتضاعَفُ الحَمْضُ النووي الصِّبغي بخطأ واحد لكلِّ 3 بلايين نوكليوتيد، في الخليّة، و1 لكلِّ 100 نوكليوتيد في أنبوبِ الاختبار، و1 لكلِّ 10 ملايين عند إضافة الإنزيمّات البروتينية المناسبة إلى أنبوب الاختبار!

(3) R. D. Wood, *et al.* Human DNA repair genes. *Science* 2001. 291:1284.

(4) Stephen J. Elledge and Alberto Ciccia, 'The DNA Damage Response: Making It Safe to Play with Knives' in *Molecular Cell* **40** (2), October 22, 2010, 179-180.

ويشرَح جيمس شابيرو عمليّةَ المراجعة بقوله: «كلُّ الخلايا، من البكتيريا إلى الإنسان تملك **طائفةً مدهشة** من أنظمة الإصلاح التي تعمَل على إزالة المصادرِ العرَضيّة والعشوائيّة لمصادر الطّفَرات. توجد مستويات عديدةٌ لآليات التّدقيق تتعرّفُ على الأخطاءِ التي تحدُث حتمًا خلال تضاعف الحَمْض النووي الصِّبغي وتُلغيها... ولنا أن نقولَ بسببِ أنظمة التّدقيق والإصلاح هذه: إنّ الخلايا الحيّةَ لا تُعَدّ ضحايا سلبيّةً للقوى العشوائيّةِ للكيمياء والفيزياء. إنها تُكرِّسُ مصادرَ كبيرةً لحذف الاختلاف الجيني العشوائي».[1]

وقد نال ثلاثةٌ من كبار العلماء جائزةَ نوبل مشاركةً سنةَ 2015 لاكتشافهم أعماقًا جديدةً لآليّة إصلاحِ أعطابِ الحَمْض النووي الصِّبغي. ونشَر موقعُ (BBC) مقالًا جاء فيه عن عمَل الفائز الأوّل بالجائزة أنه كان اعتقادُ العلماء في السبعينيّات أنّ الحَمْضَ النووي الصِّبغيَّ جُزيءٌ مستقِر، لكنّ البروفسورَ لندهال Lindhal أثبَت أنه ينحَلُّ بمعدّلٍ سريعٍ مفاجئ.[2]

واكتشَف بول مودريتش[3] -الفائزُ الثاني بالجائزة- آليةً سمّاها «mismatch repair»؛ إذ تقوم إنزيماتٌ بالبحث عن الأخطاء بعد تضاعُف الحَمْض النووي الصِّبغي، وتقوم أُخرى بإصلاحها. وهي آليّةٌ بالغةُ الدقّة حتّى إنّ اللّجنة المانحةَ لجائزةِ نوبل قالت إنها «**تستخرِجُ تردُّدَ الأخطاء أثناء نسْخ الحَمْض النووي الصِّبغي إلى درجة 1 من الألف**».

وتقوم هذه العمليّة على العناصر التالية:

1- يقوم بروتين بفحص الحمض النووي الصبغي بحثًا عن أخطاء.

2- يتم قطع سلسلة الحمض النووي الصبغي.

---

(1) James Shapiro, “A third way,” *Boston-Review*, 2.

(2) P. Rincon, “Chemistry Nobel: Lindahl, Modrich and Sancar win for DNA repair,” bbc.com, 7 October 2015
<http://www.bbc.com/news/uk-england-34464580>.

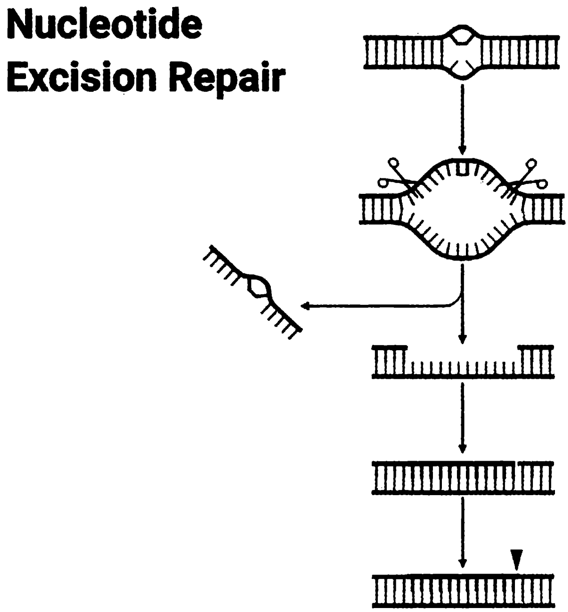
(3) بول مودريتش Paul Modrich (1365هـ/ 1946م-): كيميائيٌّ أمريكيّ. أستاذ الكيمياء الحيوية في «Duke University».

3- إزالة الجزء المتباين.

4- ملء الفجوة بقواعد صحيحة.

5- ربط القطع المكمّلة.

أمّا ثالثُ الفائزين بالجائزة -عزيز سنكار[1]-، فقد اكتشَف وجودَ إنزيماتٍ تقوم بقطْعِ جزءٍ من شريط الحَمْض النووي الصِّبغي المعطوب، وإزالتِه، وتبديلِه بآخَرَ صحيحٍ، وهو ما يُسمّى «nucleotide excision repair».



وتتعاظمُ مشكلةُ التّفسير الماديِّ لأنظمةِ إصلاحِ أعطاب الحَمْض النووي الصِّبغي في أنها مكوَّنةٌ من الحَمْض النووي الصِّبغي؛ فالحَمْضُ النووي الصِّبغي يحتاج إلى الحَمْض النووي الصِّبغي لكيلا يهلِك..

(1) عزيز سنكار Aziz Sancar (1365هـ/ 1946م-):: عالمُ كيمياء حيوية وبيولوجيا جزيئية تركيٌّ. أستاذ الكيمياء الحيوية والفيزياء الحيويّة في «University of North Carolina School of Medicine».

إنّ حقيقةَ هَشاشةِ الحَمْض النووي الصِّبغي، وعدمِ استغنائه عن آليّة التنبُّه للخطأ والإصلاحِ والتخلُّصِ من العُضَيِّ الفاسدِ لا تلتقي معَ أمرَين أساسيَّين في التّفسير الماديِّ العشوائي للحياة:

أ- الظهورُ العفويُّ للخلية بعد مسارٍ عشوائيٍّ أعمى، فإنّ جانِبَ التوقع، والقصدِ الإرادي، والقدرةِ على ابتكارِ حلولٍ حكيمة ومختصَرةٍ ومعقَّدة في شبكتها العلائقية، كلُّ ذلك لا يحمِلُ من دعوى العشوائية شيئًا، خاصةً أن هذه الآلياتِ ضروريةٌ لعمل الخلية الأولى.

ب- حاجةُ الحَمْض النووي الصِّبغي الضروريةُ والآنية إلى الإصلاح تقتضي وجودَ آلية الإصلاح في الآن نفسِه الذي ظهر فيه الحَمْضُ النووي؛ إذ لا يستطيع هذا الحَمْضُ تحقيقَ البقاء في ظلِّ ضَعفِ مقاومته الذاتيةِ لعوامل الفساد، لكنَّ المذهبَ العشوائي لا يعترِف بالمعجزات، ولذا يرفض الظهورَ المفاجئ للآليات البيولوجيةِ المعقدة والمتكاملةِ دُفعةً واحدة دون تدرج، ولا معنى لتدرجِ آليات الإصلاح قبل ظهور المادة التي يتم إصلاحها. وقد عبَّر بول ديفيس عن هذه الحقيقةِ بقوله إن الحَساء الكونيَّ الأول عليه أن يواجه عواملَ الفساد وحده دون عونٍ من منظومةِ إصلاح؛ فهو بذلك يسير ضد احتمالاتِ فشلٍ ليست كبيرةً فقط، وإنما هي أيضًا **مرهِقةٌ للعقل**![1]

وقد اكتُشِف مؤخرًا الدورُ العظيم لبروتين (TP53) الذي يقوم بتفعيل الجينات التي تقوم بإصلاح الخلية. وبيَّن باحثون بلجيكيون أن 50٪ من حالات السرطان تزامنت مع وجودِ مشكلات في هذا البروتين؛ ففقْدُ الخلية -مثلًا- هذا البروتينَ يُحفِّز ظهورَ السرطان.[2] وهو ما يؤكد الحاجةَ الدائمة إلى جيناتٍ أو بروتيناتٍ تمنع هلاكَ الكائن الحي بسبب ما يصيب الحَمْضَ النووي من فساد.

---

(1) Paul Davies, *The Fifth Miracle*, p.93.

(2) KU Leuven, Cancer-preventing protein finds its own way in our DNA http://www.eurekalert.org/pub_releases/2016-06/kl-cpf061416.php

ومن عجائبِ نُظُم الحماية في الخلية ما يقع للبروتين إذا أصابه عَطَب؛ إذ ينحَلُّ ليظهَر حَمْضُه الأمينيُّ من داخله، ثم يتعرفُ أحدُ الإنزيمات[1] على هذه الأجماض، فيضعُ في البروتين المعطوب جزيئًا بروتينيًّا صغيرًا بما يُخبِر الخليةَ عن حالِ هذا البروتين، ليتم بعد ذلك التخلصُ منه.[2]

كما كشَف فريقٌ علمي عن دورِ جزَيءٍ (UFD2) في حسمِ أمر الحَمْض النووي الصِّبغي، فهو الجزيء المسؤولُ عن الاختيار بين قرارَي إصلاحِ كسر الحَمْض النووي بتوجيه الآلات الخلوية للقيام بالمَهمة، أو الموتِ المُسمَّى علميًّا (apoptosis)، علمًا أن الخلية التي ليس فيها هذا الجزَيءُ تعجَز عن التخلص من مَقطَع الحَمْض النووي الصِّبغيِّ المعطوب، بما قد يكون سببًا لإصابة الإنسان بالسرطان. يقول أحد هؤلاء العلماء: «بعد ثوانٍ من الحادث المؤذي، تبدأ الآليات في العمل. وبطريقةٍ فِصاميةٍ تبدأ الخلية في عملية الإصلاح وفي الآن نفسِه الإعدادَ لعملية الموت المبرمَج. لقد لاحظنا عمليةً غيرَ محدَّدةٍ تُدمج إشاراتٍ لعملية الإصلاح الجاري وآليةِ موت الخلية. يُشكِّل بروتينٌ يُدعى (UFD2) تجمعاتٍ ضخمةً .. ويتأكد من الخيار المطلوب؛ أهو في التقدم للإصلاح أم هو موعدُ الموت».[3] إننا إذن أمام جزَيءٍ قادرٍ على اتخاذِ قراراتٍ مصيرية في أوقاتٍ حرِجةٍ تبعًا لحساباتٍ علميةٍ دقيقة.

ومن العجائب أيضًا ما كشَفه البحثُ العلمي مؤخرًا في أمر العلاجات العاجلة إثرَ تكسُّرِ جدائلِ الحَمْض النووي الصِّبغي؛ إذ تُنشئ الخليةُ بصورةٍ عاجلة خيوطًا «nuclear actin filaments» لصناعةِ طُرُقٍ سريعة إلى حافَة النواة. ثم يأتي دورُ

(1) اسمه: E3 ubiquitin ligase.

(2) Stryer, *Biochemistry*, 794-95. (Cited in: Fazale Rana: *The Cell's Design*, pp.120-121)

(3) Leena Ackermann *et al.* "E4 ligase-specific ubiquitination hubs coordinate DNA double-strand-break repair and apoptosis," *Nature Structural & Molecular Biology* (2016).

المساعد الطبي، البروتينات «myosins» التي يملك كلٌّ منها رِجلَين ليمشي في هذه الطُرُق السريعة، فيلتقطَ الجديلةَ المكسَّرة، ويأخذَها إلى غرفة العمليات، في المسامّ في محيط النواة، لإتمامِ مَهمّة الصيانة.[1]

إنّ هناك مسافة لا يَعْبُرها الخيال بين الطفرات العشوائيّة والانتخاب الطبيعي من جهة، وآلات إصلاح الخلل الجيني من جهة أخرى؛ فإنّ الطفرات لا تصنع آلية تعمل بوعي، ولها خطّة لا تقبل الاختزال أو التبسيط، وتظهر وتستمر قبل ظهور الخلل نفسه، بل وتميّز بين النافع والضار مما يطرأ على عضيّات الخليّة. وأمّا الانتخاب الطبيعي فإنّه لا يصنع آلة إصلاح جيني، وإنّما أقصى أمره أن ينتقي آلة موجودة، وتعمل بفاعليّة، ويحتفظ بها.. إنّ مفهوم «الإصلاح» يختزن مجموعة من المعاني التي لا يعارضها شيء في الموجود مثل العشوائية.

هل من الممكن أن ينشأ مستشفى بالصدفة الكيميائية؟!

ح. التشفير

ما هي الطَّبيعة الأبرزُ للْجِين؟

يُجيبنا ريتشارد داوكنز بقوله: «يحمِل الحَمْضُ النووي الصِّبغي معلوماتٍ مماثلةً بصورةٍ كبيرة جدًّا لنوعِ معلومات الحاسوب. وبإمكاننا أن نقيسَ سَعَةَ الجينوم بـ«البيتات» (bits) أيضًا إذا أردنا ذلك. لا يحمِل الحَمْضُ النووي الصِّبغيُّ شفرةً ثنائية، وإنما هي شفرةٌ رباعية؛ ففي حينِ يُمثِّل (1) و(0) وَحدةَ المعلومة في برمجة الحاسوب، تُمثِّلُ (T) و(A) و(C) و(G) وَحداتِ الجينوم».[2]

(1) Christopher P. Caridi, *et al.*, Nuclear F-actin and myosins drive relocalization of heterochromatic breaks, *Nature* 559, 54-60 (2018)

(2) Richard Dawkins, *A Devil's Chaplain,* p.95.

ما حقيقةُ التشفير داخل الجِين؟

يُجيبنا بول ديفيس بقوله: «تكمُن داخل كلِّ واحدٍ منا رسالةٌ. إنها مكتوبةٌ بشفرةٍ قديمة، ضاعت بداياتُها مع الزمن. تحتوي الرسالةُ بعد فك تشفيرها على تعليماتٍ حول كيفيةِ صناعةِ إنسان.... لم تُكتَب الرسالةُ بحِبرٍ أو حرْف مطبعيٍّ، بل بذرَّاتٍ... وعلى الرغم من أن الحَمْض النووي الصِّبغي بناءٌ مادي إلا أنه يحمل في رحِمه معنًى. إن ترتيب الذرَّات على طول الشريطِ الحلزوني لحَمْضك النوويِّ هو الذي يحدد مَظهرَك وحتى -إلى درجةٍ كبيرة- كيف تشعُر وتتصرّف. فالحَمْضُ هو مخطَّط (blueprint)، أو بصورةٍ أدقَّ خوارزميةٌ، أو دليلُ تعليماتٍ لبناء إنسانٍ حي يتنفسُّ ويُفكِّر».[1]

تطرَح قضيةُ التشفير إشكالاتٍ لا يحُلُّها الحلُّ المادي العشوائي، ومنها:

المشكلة الأولى: التشفيرُ لغةٌ لها قواعدُ نحوية وصرفية، ورسالةٌ من جنس المعلومات.. وليس في عالَم المادة ما يسمح للّغةِ والمعلومةِ أن تنبجسا من العدم في انفجارٍ، من غيرِ رَحِمٍ. وقد اعترف بالطبيعة اللغوية الكاملة للتشفير عددٌ من البيولوجيّين غيرِ المتعاطفين مع ما يُعرف «بالتصميم الذكي».

المشكلة الثانية: التشفير يقتضي -ضرورة- وجود:

أ- شَفرة

ب- مُشفِّر

ت- قواعد تشفير

ث- قواعد لفكِّ التَّشفير..

(1) Paul Davies, *The Fifth Miracle*, p. 22

فمن أين جاء كلُّ ذلك إذا كان الوجودُ المادي بلا حكمةٍ ولا غاية؟

هو سؤالٌ أصاب الماديين بالحَيرة، ولذلك قال البيولوجيُّ التطوّري جون مينارد[1]: «ربما يُشكِّل أصلُ الشفرة [الجينية] أكبرَ مشكلةٍ محيِّرة في البيولوجيا التطورية. فآليةُ الترجمة الحالية هي في الآن نفسِه معقَّدةٌ جدًّا، وشائعةٌ جدًّا، وأساسيةٌ جدًّا حتى إنه من الصعب تصوُّرُ كيف جاءت إلى الوجود».[2] كما اعترف الملحدُ العنيد -المحرِّرُ العلمي في مَجلة «Nature»- جون مادوكس[3] بالأزمة بقوله: «إنه إذن أمرٌ مُخيِّبٌ للآمال -ولكنه مع ذلك ليس بالأمر المفاجئ- أنّ أصْلَ الشفرة الوراثية لا يزال غامضًا كما هو أصْلُ الحياة نفسُه».[4]

المشكلة الثالثة: التعقيدُ والفاعلية العاليان لنظام التشفير في الخليّة بما يتجاوز الحدَّ الأدنى المطلوبَ لحياة الكائن الحيِّ حتّى إنه من الممكن تخزينُ 215 جيجابايت من المعلومات المشفَّرة في جرامٍ واحد من «الحَمْض النووي الصِّبغي»[5]؛ وذاك يتعارض مع المفهوم الداروينيِّ الذي لا يعترف بقدرة النظام الطبيعيِّ على تزويد الكائن الحيِّ بما يفوق حاجتَه إلى تحقيق البقاء.

المشكلة الرابعة: يقرّ الدَّراونةُ بأنّ «الحَمْض النووي الصِّبغيَّ» لم يتطوّرْ منذ ظهوره منذ بلايين السنين بعد ظهوره بصورةٍ عشوائيّة، فهو كما وصَفه فرنسيس كريك: «صدفةٌ متجمِّدة» «frozen accident». ولكنّ الدَّراونةَ عجزوا عن تقديمِ قصّةٍ

---

(1) جون مينارد John Maynard (1338-1424هـ/ 1920-2004م): عالمُ أحياء تطورية ووراثة بريطانيٌّ. رأَس «مؤسسة دراسة التطوّر».

(2) John Maynard Smith and Eors Szathmary, *The Major Transitions in Evolution* (OUP Oxford, 1997), p.81.

(3) جون مادوكس John Maddox (1344-1430هـ/ 1925-2009م): فيزيائي بريطانيّ. عضو فخري في «الجمعيّة الملكيّة» البريطانيّة. عمِل محررًا في مجلة (Nature) العلمية 22 سنةً. كان عضوًا في جمعيات إلحاديّة مثل «British Humanist Association».

(4) John Maddox, 'The genetic code by numbers', *Nature* **367**:111, 1994.

(5) DNA could store all of the world's data in one room <http://www.sciencemag.org/news/2017/03/dna-could-store-all-worlds-data-one-room>.

تفصيليّةٍ معقولة لظهور الحَمْض النووي الصِّبغيِّ الذي لا يشكّ دارويني أنه احتاج إلى مراحلَ تطوّريةٍ لبلوغ الصورة التي نعرفها اليومَ.

خ. أصلُ الحياة والحاجةُ إلى معجزة

تعيش الأبحاثُ العلميّة المتعلقةُ بأصل الحياة البيولوجيةِ أزمةً خانقة سببُها تزايدُ عِلمِنا بحقيقة الشروط الدنيا للحياة. وهو ما عبَّر عنه لي هارتويل Lee Hartwell -الحائزُ على نوبل في الطب سنةَ 2001م-، بقوله في أحد المؤتمرات العلمية: «فيما يتعلق بأصل (الحياة)، أجد أنه **كلّما ازددنا علمًا بالخلايا، بدت الخلايا أكثرَ تعقيدًا؛** فهي أشياءُ معقَّدةٌ بشكلٍ لا يُصدَّق، والانطلاقُ ممّا نراه اليومَ ومحاولةُ التفكير من أين ظهرت [الحياة] أعتقد أنه **أمرٌ مستحيل حقًّا**».[1]

إنّ نشأةَ الحياة أمرٌ خارق للعادة، أو بالاصطلاح الدينيِّ: «معجزة»!

معذرة.. ليست عبارةُ «معجزة» مصطلحًا دينيًّا صِرفًا؛ فإنّك ستراه في كتاباتِ طائفةٍ من أكبرِ البيولوجيين والفيزيائيين المعتنين بمعضلةِ أصْلِ الحياة. وهاك بعضَ الشهادات لهذه «المعجزة»:

كتَب البيولوجيُّ الشهير أوجين كونن Eugene Koonin[2]: «من الضروريِّ وجودُ سلسلةٍ متعاقبة من الخُطُوات غيرِ المحتملة للغاية لأصل الحياة، بدءًا من تخليق النيوكليوتيدات وتراكمِها إلى أصلِ الترجمة، وبسببِ تضاعف الاحتمالات، **تبدو النتيجةُ النهائية كأنها معجزةٌ the final outcome seem almost like a miracle**».[3]

---

(1) "What is Life? The Great Debate," ASU Origins Conference. <https//www.youtube.com/watch?v=xIHMnD2FDeY>.

(2) أوجين كونن (1375هـ/ 1956م-): بيولوجيٌّ من أصلٍ روسيٍّ. له عنايةٌ خاصّةٌ بالدّراسات الجينيّة. عضوُ الأكاديميّة الوطنيّة للعلوم.

(3) Eugene V. Koonin, *The Logic of Chance: The Nature and Origin of Biological Evolution* (Upper Saddle River, NJ: FT Press, 2011), 391.

- كتَب عالِمُ الكيمياء الحيويّةِ فرنسيس كريك Francis Crick[1]، الحائزُ على نوبل: «لا يمكن لرجُلٍ نزيه، متسلّحٍ بكل المعارف المتاحةِ لنا الآنَ، إلّا أن يقول إنّ أصلَ الحياة يبدو في هذه اللحظةِ **معجزةً تقريبًا almost a miracle**».[2]
- كتَب بول ديفيس: «**نشأةُ الحياة أذهلت الكثيرين على أنها تقريبًا أمرٌ معجز Abiogenesis strikes many as virtually miraculous**».[3]
- كتَب غراهام كيرنز سميث Graham Cairns-Smith[4]: «لا تكمن [الإشكالية] في الحجم الهائل لأصغرِ مكتبات [أبسط الكائنات الحية] فقط، ولا في أنّ وَحدات النيوكليوتيدات معقّدةٌ إلى حدٍّ ما... ويصعُب ربطُ بعضِها ببعضٍ فقط... ولا في الحاجة إلى الإنزيمات فقط... ولا في أنّ الريبوسوماتِ متطورةٌ للغاية فقط. فيبدو أن هناك صعوبةً أكثرَ جوهريةً. فكلُّ نوعٍ من الكائنات الحية يمكن تصوُّرُه يجب أن يحتويَ على رسائلَ من نوعٍ ما ومُعدَّاتٍ لقراءة الرسائل وإعادةِ طباعتها؛ ومن ثَمّ فإنّ أيَّ كائنٍ حيٍّ يمكن تصوُّرُه يبدو أنه يجب أن يكون مليئًا بالآلات ومن ثَمّ **يحتاجُ إلى معجزةٍ need a miracle** (أو شيءٍ من هذا القَبيل) لظهورِ أوّلِ كائنٍ حيٍّ من نوعه».[5]
- كتَب عالِمُ الجيولوجيا في جامعة لندن أوآن نسبت Euan Nisbet: «إنّ [ظهور] الحياة أمرٌ غيرُ محتمَلٍ. وقد تكون الحياةُ فريدةً من نوعها على هذا الكوكب، ولكنْ مع ذلك فقد بدأَت بالفعل، ومن ثَمّ فإنّ مَهمتنا هي اكتشافُ **كيف حدَثت المعجزةُ how the miracle happened**».[6]

(1) فرنسيس كريك (1334-1424هـ/ 1916-2004م): عالمُ بيولوجيا جزيئية وفيزياء حيوية بريطانيٌّ. نال جائزةَ نوبل (مشاركة) على اكتشافه تركيبَ الحَمْض النووي الصِّبغي.

(2) Francis Crick, *Life Itself: Its Origin and Nature* (New York: Touchstone, 1981), 88.

(3) Paul Davies, *The Fifth Miracle: The Search for the Origin and Meaning of Life* (New York: Simon and Schuster, 2000), p.82.

(4) غراهام كيرنز سميث (1350-1437هـ/ 1931-2016م): كيميائي وبيولوجي. درَّس في University of Glasgow.

(5) Cited by G.C. Smith, *Seven Clues to the Origin of Life* (Cambridge: Cambridge University, 1985), p.30.

(6) Euan Nisbet, *The Young Earth* (Kluwer Academic Publishers, 1987), http://www2.glos.ac.uk/ GDN/ origins/life/index.htm

وأرجو إعذاري إنْ أطلْتُ في سرد الشهادات؛ فإنّ الملحدَ عندما يرى كلمةَ «معجزة» ينتفض؛ لأنه يراها خرافةً نقَضها العلمُ الحديث.. واستعمالُ العلماء لعبارةِ «معجزة» قد يُقصَد به المعنى الحرفيُّ للكلمة أو المعنى المجازيُّ الدالُّ على عمق الأزمة التفسيريّة الماديّة.

فلماذا لا يزال العلماءُ يبحثون عن أصلٍ مادي للحياة، رغم الحاجة إلى شيءٍ «معجزة» أو شيءٍ قريب من ذلك؟

يُجيبك الكيميائيُّ هارولد أُري Harold Urey -الحائزُ على جائزة نوبل- بقوله: «نحن جميعًا -الدارسين لأصل الحياة- نجد أنه كلّما أنعمنا النظرَ في أصل الحياة، **شعرنا أنها أكثرُ تعقيدًا من أن تكون قد تطوّرت** في أيِّ مكان. **نحن جميعًا نعتقد بصورةٍ إيمانيّة We all believe as an article of faith** بأنّ الحياة تطوّرت من مادةٍ ميتة على هذا الكوكب. كلُّ ما في الأمر أنّ تعقيدها كبيرٌ جدًّا، ومن الصعب علينا أن نتخيّل أنها تطوّرت [عن سلَفٍ]».(1)

هذه الأزمةُ هي التي دفعَت عددًا من العلماء إلى ترحيلِ مشكلةِ أصْل الحياة إلى الفضاء، إلى كوكبٍ آخَرَ أو مَجرّةٍ أخرى، ومن هؤلاء 23 أكاديميًّا في مقالٍ حديث لهم قالوا فيه: «يبدو أن تحوُّلَ مجموعةٍ من المونومرات البيولوجية المختارة بشكلٍ مناسبٍ (مثل الأحماض الأمينية والنيوكليوتيدات) إلى خليةٍ حيةٍ بدائيةٍ قادرة على مزيدٍ من التطور يتطلب -على ما يبدو- التغلبَ على عقبةٍ معلوماتيةٍ ذاتِ أبعادٍ خرافيّةٍ في حجمها، وهو حدَثٌ **لا يمكن أن يحدُث في الإطار الزمني للأرض إلا إذا كان معجزةً كما نعتقد**».(2)

---

(1) *Christian Science Monitor*, January 4, 1962.

(2) Edward J. Steele, Shirwan Al-Mufti, Kenneth A. Augustyn, Rohana Chandrajith, John P. Coghlan, S.G. Coulson, Sudipto Ghosh, Mark Gillman, Reginald M. Gorczynski, Brig Klyce, Godfrey Louis, Kithsiri Mahanama, Keith R. Oliver, Julio Padron, Jiangwen Qu, John A. Schuster, W.E. Smith, Duane P. Snyder, Julian A. Steele, Brent J. Stewart, Robert Temple, Gensuke Tokoro, Christopher A. Tout, Alexander Unzicker, Milton Wainwright, Jamie Wallis, Daryl H. Wallis, Max K. Wallis, John Wetherall, D.T. Wickramasinghe, J.T. Wickramasinghe, N. Chandra Wickramasinghe, Yongsheng Liu, "Cause of Cambrian Explosion - Terrestrial or Cosmic?," *Progress in Biophysics and Molecular Biology*, 16, 2018, 3-23. <https://www.sciencedirect.com/science/article/pii/S0079610718300798>.

وأعجبُ من ترحيل المشكلة إلى كوكبٍ آخَرَ فيه كائناتٌ فضائيةٌ عجيبة، افتراضُ البيولوجي الكبير أوجين كونن أنّ **تضاعُف الحَمْض النووي الريبوزي RNA replication** [1] **غيرُ ممكنٍ احتماليًّا في أيِّ مكانٍ في هذا الكون؛ مما اضطرَّه إلى افتراضِ وجودِ عددٍ لا نهائيٍّ من الأكوان**؛ حتى تقعَ الصُدفةُ السعيدة لهذا التضاعُف؛ فإنه في **أكوانٍ لا نهائيةِ العدد، كلُّ شيءٍ غيرِ مُحالٍ عقلًا، لا بد أن يقع**.

وذاك عينُ العبَث والجنون؛ فأمّا العبثُ فلافتراضه أكوانًا خارج كوننا لا يمكن أن نعرف عنها شيئًا لامتناع ذلك في حدود أدواتنا العلميّة، وأمّا الجنون؛ فلافتراضه عددًا لا نهائيًّا من الأكوان؛ رغم أنّ اللانهائية في عالَم الأشياء مُحالةٌ بداهةً؛ لأنّ الأشياء إذا وُجدت فلا بد أن تكون محصورةَ العدد. وسببُ الرضا بهذا الجنون، أقرَّ به كونن نفسُه، بقوله في آخِرِ ورقته العلميةِ هذه إنّ افتراضَه هذا العددَ اللانهائيَّ من الأكوان، حتّى «**لا يتركَ أيَّ مجالٍ على الإطلاق لأيِّ شكلٍ من أشكال التصميم الذكي**» «leaves no room whatsoever for any form of intelligent design» !![2]

الفرار من الإقرار بوجود الله، حافز للعمل العلميّ اليوم، في بيئة تحكمها الميتافيزيقية الطبيعانيّة! وقد أنتج نظريات لا تستحي من تبنّي الجنون مآلًا لها!

(1) الحَمْض النووي الريبوزي RNA عنصرٌ أساسيّ في النظريّة التي يتبناها كونن وكثيرٌ من الباحثين في نشأة الحياة، والمعروفة باسم RNA world hypothesis والتي تقوم على أنّ أوّل عنصرٍ للحياة ظهَر على الأرض هو الحَمْض النووي الريبوزي

(2) Eugene Koonin, «The cosmological model of eternal inflation and the transition from chance to biological evolution in the history of life,» *Biology Direct* volume 2. 15 (2007)

3. التطور بين الإلحاد والإيمان

يسود في الخطاب الإلحادي الشعبوي تأكيدُ أنّ القولَ إنّ تطوُّرَ الأحياء كلِّهم عن سلَفٍ أوّلَ -لا خلقَهم أجناسًا متباينين- يهدِم الإيمانَ بالله. ونحن هنا سنناقش ثلاثَ نبوءاتٍ للتطوّر الداروينيّ، قد تقضي صحّتُها بانتفاء الدليل على السلطان الإلهي في ظهورِ عوالمِ الأحياء بعد النشأة الأحيائية الأولى، ويقتضي فسادُها الحاجةَ إلى إثباتِ وجود الله. وهي:

1- دلالةُ الأحافير على شجرة الحياة.

2- دلالةُ الجينات على شجرة الحياة.

3- دلالةُ غزارة الحَمْض النووي الصِّبغي الخُرْدة على التطوُّر عن أسلاف.

وسبب طرح هذين السؤالين الأوّلين، قيام النظريّة التطوريّة على وجوب القول بتسلسل عالم الأحياء بلا انقطاع بينها إلى أصلٍ حيٍّ أوّل مشترك؛ فإنّ الانقطاع موجب للقول بتدخّلٍ خَلْقي لإنشاء كائنات حيّة جديدة. وأمّا موضوع ما يُسمّى بالحمض النووي الصبغي الخردة Junk DNA؛ فمتعلّق بنبوءة أطلقها الدراونة منذ عقود، زعموا فيها أنّ القول بالتطوّر الداروينيّ لا ينفك عن الإيمان بوجود كم هائل من الحمض النووي الخردة، أي الذي توقّف عن أن تكون له وظيفة اليوم. وفي نقاشنا لذلك كلّه، لن نعتمد سوى المادة العلميّة التي وفّرها الدراونة وغلاة التطوريين.

وقبل ذلك سنبحث في شأنِ سؤالٍ عاجلٍ وجوهريٍّ، وهو: هل التطوّرُ البيولوجي بذاته حجّةٌ لنفيِ وجودِ إله؟

أ. التطور البيولوجي ليس حجةً للإلحاد

التطوّرُ البيولوجي ليس حجّةً للإلحاد؛ إذ إنه لا يتعلّق البتّةَ بمسألةِ وجودِ إله؛ فهو خاصٌّ بإثباتِ أنّ الكائنات الحيّةَ لم تظهر دُفعةً واحدة، وإنّما ظهرَت تِباعًا عن أصْلٍ أوّلَ يعود إلى قُرابةِ 4 بلايين سنة.

ونحن نُسلِّم بأمرين هنا:

- يتعارض المذهبُ التطوري مع النصرانية واليهودية اللتين تؤمنان بما جاء في الفصول الثلاثة من سِفر التكوين، أوّلِ أسفار الكتاب المقدس؛ حيث جاء خبرُ ظهور الكائنات الحيّة مفصّلًا، خلْقًا لا تطويرًا، كما يتعارض مع القرآن والسنّة النبوية في خلْقِ آدمَ -عليه السلامُ- عن غيرِ سلَف.
- تتعارض الداروينيةُ العشوائية مع القرآن والكتاب المقدس في أنّ عالَمَ الأحياء مَظهرٌ لحكمة الله وقدرته؛ ففي هذا العالَم تظهَر الآياتُ الدالة على وَحدانيته وعظمته -جلَّ جلالُه-.

ولكنَّ كلَّ ذلك متعلِّقٌ بمعارضة النبوّات لتطوّرِ عالَم الأحياء أو تطوّرِ آدمَ -عليه السلامُ-، وليس الأمرُ متعلّقًا بمسألةِ وجود الله أو وَحدانيته. والوجهُ الوحيد الذي من الممكن أن يكون فيه تنافرٌ بين الإيمان بالله والإلحاد، هو أنّ الصيغةَ العشوائيّة من التطوّر، إنْ صحَّت، فهي تُبطِل أحدَ الأدلّة على وجود الله، وهو دليلُ النَّظْم في عالَم الأحياء، أي ما نراه من حُسنِ صنعة الكائنات الحيّة وإتقانِ تصويرها لتؤدّيَ وظائفَها على الأرض. وهو اعتراضٌ لا يمَسُّ الأدلةَ الأخرى على وجود الله؛ مثل خلق الحياة نفسِها؛ فإنّ الداروينيةَ بإقرار الدراونة تتعلّق بتطوُّرِ عالَم الأحياء لا ظهورِ الحياة؛ فالأوّلُ هو التطور البيولوجيُّ Biological evolution، أي ظهورُ أنواعٍ من الحياة من حياةٍ سالفةٍ أو تغيّرُ طبيعةِ حياة الكائن الواحد، وأمّا الثاني فهو التطوّر الكيميائيُّ Chemical evolution، أي ظهورُ الأسباب الضرورية للحياة من لا حياة. كما لا تمَسُّ الداروينيةُ حجيّةَ الأدلّة الأخرى، كدليل الإمكان، ودليلِ الخلق، ودليلِ الجمال، والدليلِ الأخلاقي...

ومن المعلوم أنّ القائلين بالتطوّر غيرِ العشوائي، يؤمنون بالله ضرورةً؛ لأنهم يرَون أنّ التطوّر وإنْ كان عن أصلٍ واحدٍ أوّلَ قديمٍ، إلّا أنه مُوجَّهٌ من الله، سواءٌ

ببرمجته منذ البَدء لينتهيَ إلى ما انتهى إليه اليومَ، أو كان ذلك بضخّ المعلومات في عالَم الأحياء عند كلِّ طفرةٍ أحيائية. وأمّا القائلون بالتطوّر العشوائيِّ **من البيولوجيين في الغرب**، ففريقٌ منهم مؤمنٌ بالله، مثل كينيث ر. ميلر Kenneth R. Miller - الخصم الألدِّ لأنصار الخلق والتصميم الذكي في أمريكا- وصاحبِ كتاب «العثور على إلهِ داروين: بحثُ عالِمٍ عن أرضيةٍ مشتركة بين الله والتطور»[1]، والفيزيائي كارل و. غبرسون Karl W. Giberson صاحب كتاب «إنقاذ داروين: كيف تكون مسيحيًا وتؤمن بالتطور»[2]، وهو الرئيس السابق لمؤسسة « BioLogos Foundation» الشهيرة، والتي تضم لاهوتيين وعلماء طبيعة يجمعهم الإيمان بإله للكون وبالداروينية. وعامة مَن كان منهم ملحدًا أو لا أدريًّا، لا يردّ مذهبَه في نفيِ وجود الله إلى الداروينية. وقد كان داروين نفسُه لا أدريًّا، ولم يردّ مذهبَه إلى سببٍ علمي، وكذلك مايكل روس، أشهرُ فلاسفة العلوم الدراونةِ اليومَ؛ فمن المعلوم أنه لا يرى تعارضًا بين الإيمان بالله والداروينية والتطوّرِ البيولوجي، وهو يردّ إلحادَه إلى مشكلة الشرّ.

فالتطوّر بكلّ صوره لا يقود إلى الإلحاد؛ لغياب الرابط المنطقي بين الرواية الداروينية لتطوّر الحياة، ونفي وجود إله بلا ابتداء أخرج الوجود من عدم ويملكه وما ملَك. ولذلك علّق المفكّر الأيرلندي أليستر ماكغراث Alister McGrath [3] ساخرًا: «هناك **فجوة منطقيّة** كبيرة بين الداروينية والإلحاد، وهي الفجوة التي يبدو أن داوكنز يفضل سدّها عن طريق **اللغة الخطابيّة**، بدلًا من الأدلة».[4]

ونحن إنْ سلّمنا جدلًا بالتطوّر البيولوجي، أي تطّور عالَم الأحياء كلِّه عن سلسلةٍ

---

(1) *Finding Darwin's God: A Scientist's Search for Common Ground Between God and Evolution*

(2) *Saving Darwin: How to be a Christian and Believe in Evolution*

(3) أليستر ماكغراث (1372هـ/ 1953م-) : لاهوتيّ وعالم كيمياء بريطانيّ. من أوسع المفكّرين تأليفًا في الرد على تيّار الإلحاد الجديد.

(4) Alister McGrath, *Dawkins' God* (Oxford: Blackwell, 2005) p. 81.

تعود إلى أصلٍ أوّلَ أو أصولٍ أُولى «بدائيةٍ» -**وهو مذهبٌ لا أقول به، وإنّما أقبَله هنا تنزّلًا في الحوار مع الملحد الرافض للخلق**- فلا بدّ أن ننتهيَ إلى **استمرار الحاجة إلى التدخّل الإلهي لتكونَ شجرةُ الحياة الأحيائية مفهومةً، ولتفسيرِ فشلِ نبوءةِ سيادة الحَمْض النووي الخُرْدة في الجينات**. وهو ما سنناقشه في النقاط التالية.

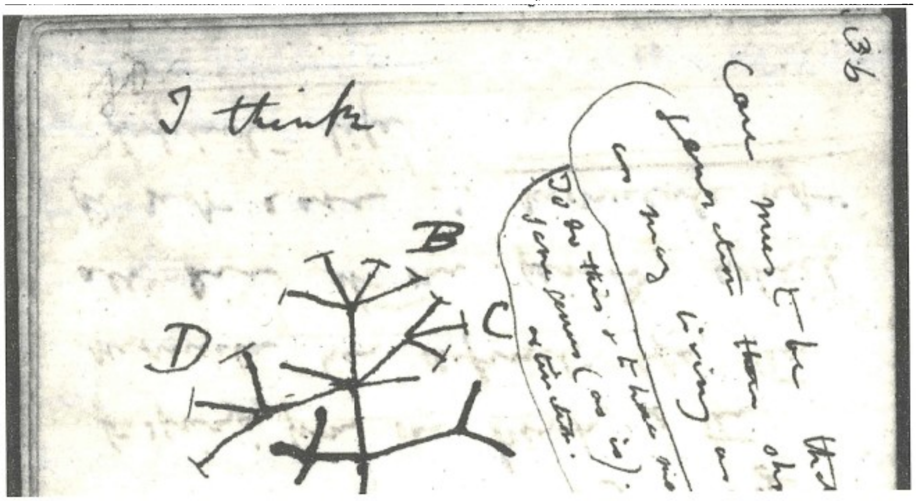
ب.شجرة الحياة الأحفورية (المورفولوجية) والحاجة إلى خلق وسائط

تعود دلالةُ التطوّر على بطلان التصميم في عالَم الأحياء إلى الاستغناء عن خلْقِ كلِّ نوعٍ من الكائنات الحيّة خلقًا خاصًّا؛ فكلُّ الكائنات تعود إلى أصلٍ أوّلَ قديمٍ، من خلال سلسلةٍ متّصلة، وبآلياتٍ طبيعية غيرِ موجَّهة. وهذا أمرٌ يلزَم منه أن يكون التطورُ على شكلِ جذعٍ واحد تتفرّع عنه أغصانٌ كبرى، وعن الأغصان الكبرى تتفرّع أغصانٌ أخرى...ولذلك يرسُم الدراونة تاريخَ الأحياء على شكلِ شجرة، هي «شجرة الحياة».

والسائدُ في الخطاب الدعوي الدارويني، الزعمُ أنّ شجرة الحياة حقيقةٌ تشهد لها الأحافير؛ فإنّنا بترتيب الكائنات الحيّة على صورةٍ متّصلة، تربط الأصلَ وفرعَه، سننتهي إلى إنشاءِ شجرةٍ كاملة، بجميع تفاصيله أو جلّها. وقد كان داروين مُدرِكًا أنّ نظريّته لا يمكن أن تصِحّ حتى يشهدَ لها الواقعُ الأُحفوريُّ، ولذلك حرص على استنطاقِ طبقات الأرض، غير أنه فُوجئ أنها في زمانه تشهَد ضدّه؛ فقال -بصراحةٍ محمودة-: «عددُ الوسائط المختلفةِ التي عاشت سابقًا على الأرض يجب أن يكون ضخمًا؛ فلماذا -إذن- لا نجد كلَّ تشكُّلٍ جيولوجيٍّ وكلَّ طبقةٍ ممتلئة بهذه الرّوابط الوسيطة؟ من المؤكد أنّ الجيولوجيا لا تكشف عن أيٍّ من هذه السّلسلةِ العُضويّة المتدرّجة بدقّة. إنه -ربما- **الاعتراضُ الأوضحُ والأقوى الذي من الممكن أن يوجَّه إلى نظريّتي**».(1)

(1) Charles Darwin, *On the Origin of Species* (Cassell, 1909), p.245.

شجرة الحياة كما صوَّرها داروين بخطّه في كرّاسة ملحوظاته



وقد كان المتوقَّعُ عند التطوريين أن تُسعِف الأحافير الداروينيةُ بعد أكثرَ من قرنٍ من وفاة داروين، بالكشف عن الوسائط المليونية المفقودة، ولكنْ خاب أملُهم؛ فقد اتّسعت رقعةُ الأحافير المفقودة بالكشف عن أحافيرَ جديدة تجعل الحاجةَ إلى الوسائط أعظمَ ممّا سبق. وقد شهِد كثيرٌ من علماء الحفرياتpaleontologists أنّ أحافير الكائنات الحيّة لا تشهَد لهذه الشجرةِ كما تُصوِّرها الداروينيةُ زمنَ داروين أو بعده، وإنّما إنْ سلَّمنا أنه توجَد شجرةٌ واحدة للحياة؛ فلا بدّ من الإقرار بأنّ شجرة الحياة لا تشهَد للتطور الدارويني **التدرّجي السلِس**.

وقد كان أهمُّ من جهَر بالحقيقة السابقة، ودافَع عنها بقوّة، عالِمُ الحفريات **التطوّريُّ** الشهير ستيفن جاي غولد Stephen Jay Gould، [1] فهو صاحبُ العبارة الشهيرةِ: «الأشجارُ التطوّرية التي تُزيِّن كتُبَنا المدرسيّةَ ليس فيها بياناتٌ إلّا على أطراف الأغصان وعُقَدِها، والباقي هو **استنباطٌ** -مهما يكن معقولًا- **لا تشهَد له**

(1) ستيفن جاي غولد Stephen Jay Gould (1360-1422هـ/ 1941-2002م): أمريكيٌّ. أحدُ أكبر علماءِ الأحافير في القرن الماضي، ومُؤسّسُ نظريةِ «التوازن المتقطّع». وهو أشهرُ خصوم التّفسير التطوريّ المتدرّج لـ«داروين».

الأحافيرُ».[1] وزاد في فضْح الواقع العلميِّ بقوله: «إنّ علماء الأحافير يعلمون أنّ السّجل الأُحفوريَّ يحتوي على أقل القليل فيما يتعلّق بالأشكال الوسيطة».[2]

وهو ما قرّره أيضًا إلدردج[3] المشاركُ لغولد في صناعة نظريتهما التطورية المسماةِ التوازنَ النقطيَّ punctuated equilibrium: «لقد قلنا نحن -علماءَ الأحافير- إنّ تاريخ الحياة يدعَم هذا التفسير [قصّة التغيّر التدرّجي]، في حين أنّنا **نعلم طَوال الوقت أنه لا يدعَمها».**[4] وأكّد ذلك بقوله إنه بعد مئةٍ وعشرين سنةً من نبوءةِ دراوين «أصبَح من الواضح جدًّا أنّ السّجل الأُحفوريَّ **لن يطابق هذا الجزءَ من توقُّعاتِ داروين، وليست المشكلةُ الفقرَ الشّديدَ** للسّجل الأُحفوريِّ. فالسّجلُّ الأُحفوريُّ ببساطةٍ **يُظهِر** أنّ هذه التوقّعاتِ مُخطئةٌ».[5]

وعبّر لاحقًا عن الحقيقة نفسِها الأنثروبولوجيُّ جفري هـ. شوارتس Jeffrey H. Schwartz،[6] بعبارةٍ مندهشة: «ما زلنا نجهَل أصلَ معظمِ المجموعات الرئيسيةِ من الكائنات الحية. فهي تظهَر في السّجل الأُحفوريِّ كما ظهرَت أثينا من رأسِ زيوس – وهي في حالةٍ من التوهُّج والاندفاع، **بما يتناقض مع** تصويرِ داروين للتطور على أنه ناتجٌ من التراكم التدريجيِّ لعددٍ لا يُحصَى من الاختلافات الدقيقة المتناهية في الصِّغَر».[7]

---

(1) Stephen Jay Gould, "Evolution's Erratic Pace," *Natural History*, 86[5]:13. May

(2) Stephen J. Gould, *The Panda's Thumb (New York: Norton,* 1980), p. 189.

(3) نيلس ألدردج Niles Eldredge (1362هـ/ 1943م-): عالمُ بيولوجيا وأحافيرَ أمريكيٌّ. المشرف على أحافير اللافقاريات في أحد متاحف التاريخ الطبيعي. أسّس مع جاي غولد نظريّةَ «التوازن المتقطع» في تفسير الظهور المفاجئ للأحافير في طبقات الأرض.

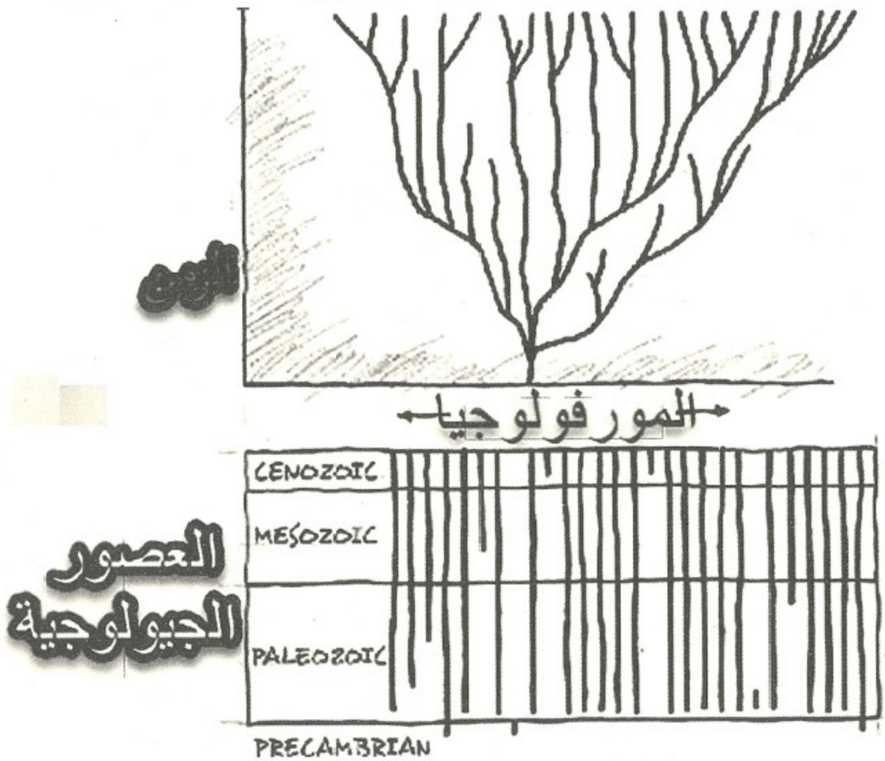
(4) Niles Eldredge, *Time Frames: The Rethinking of Darwinian Evolution and the Theory of Punctuated Equilibria* (New York NY: Simon & Schuster, 1985), p.144

(5) *The Myths of Human Evolution* (New York: Columbia University Press, 1982), pp.45-46

(6) جفري هـ. شوارتس (1948م-): عالمُ أنثروبولوجيا أمريكي. درَّس في University of Pittsburgh. رئيسُ World Academy of Art and Science.

(7) Jeffrey H. Schwartz, *Sudden Origins: Fossils, Genes, and the Emergence of Species* (New York: John Wiley & Sons, 1999), p.3.

فشجرةُ الدراونة تختلف عن الصورة التي ترسُمها الأحافير:



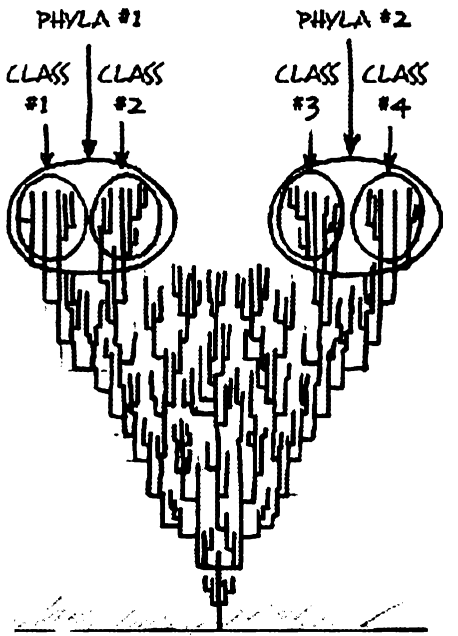
وفي الحقيقة ما قاله ستيفن جاي غولد من أنّنا لا نملك غيرَ أطراف الشجرة، محاولةٌ تدليسية من غولد ليحتفظَ بنموذج الشجرة، ويُرقِّعَه بطفَراتٍ عشوائية عجَز الجميعُ عن تفسيرها بيولوجيًّا. إنّ الأحافير تشهَد بوضوحٍ على نشوءٍ مستقلٍ لأصناف الكائنات الحية أو شُعَبِها أو... وأمّا نموذجُ الشجرة، فربْطٌ بين الأحافير بغيرِ مسوِّغٍ إلّا الالتزام بالرؤية التطوّرية.[1]

(1) الصورتان عن كتاب ستيفن ماير:
Darwin's Doubt: The Explosive Origin of Animal Life and the Case for Intelligent Design

صنف= class

شعب، شعبة= *Phyla, phylum*

نموذجُ شجرة الحياة لغولد



ونحن لو أردنا أن نذكر أهم صفة في تاريخ الأحافير؛ فسنقول مع عالم الأحافير غوينتر بيخلي Günter Bechly [1] إنّها **الانفجارات الخلقيّة الكبرى** دون سابق سلف. وقد عدّد منها بيخلي:

Archaean Genetic Expansion
Avalon Explosion
Cambrian Explosion
Great Ordovician Biodiversification Event (GOBE)
Devonian Nekton Revolution
Odontode Explosion
Silurio-Devonian Radiation of Terrestrial Biotas

(1) غوينتر بيخلي (1382هـ/ 1963م-): عالم أحافيرَ وحشراتٍ ألمانيّ.

Carboniferous Insect Explosion
Triassic Explosion
Early Triassic Terrestrial Tetrapod Radiation
Early Triassic Marine Reptile Radiation
Mid-Triassic Gliding Reptile Radiation
Mosasaur Radiation
Radiation of Flowering Plants
Radiation of Modern Placental Mammals
Radiation of Modern Birds
Origin of Genus Homo

وهو ما أكّدته ورقة علميّة جاء فيها: « تظهر معظم المجموعات الرئيسة من الحيوانات بشكل مفاجئ في السجل الأحفوري، **مكتملة التكوين، ولم يتم اكتشاف أي حفريات حتى الآن تشكل انتقالًا من مجموعتها الأم**».[1] والأمر بالمثل في شأن النباتات؛ فقد أثبتت دراسة نُشرت منذ أشهر في مجلّة Nature المرموقة، وشارك فيها 278 باحثًا، أنّ 80٪ من رتب[2] النباتات المزهرة قد ظهرت بصورة انفجاريّة.[3]

ونحن إذا سلَّمْنا للشواهد الأحفورية ما تقرِّره، دون تدخُّلٍ تلفيقيٍّ من علماء الأحافير لرسمِ شجرة الحياة، فليس لنا إلّا أن نسلِّم بأحدِ حلَّين:

1- الكائنات الحيّة خُلِقت خلْقًا، ثم حدثَت في بعضها تغييراتٌ طفيفة بسبب الانتخاب الطبيعي، لم تُخرِجْها عن «جنسها».

2- إذا التزمْنا قسرًا بالرواية التطوّريةِ؛ فلا بدّ عندها من افتراضِ **خوارقَ إلهيةٍ بتحويلِ**

(1) Cleveland P. Hickman et al., *Integrated Principles of Zoology*, 8th ed. (St. Louis: Times Mirror/Mosby College Publishing, 1988).

(2) orders

(3) A.R. Zuntini, T. Carruthers, O. Maurin *et al.* "Phylogenomics and the rise of the angiosperms," *Nature* 629, (2024): 843-850.

كثيرٍ من الكائنات من نوعٍ إلى آخر؛ لامتناعِ وجودِ تفسيرٍ مادي لضخِّ معلوماتٍ جينية جديدة وكثيرة في طَفَراتٍ مفاجئة.

ولأنّ حديثَنا هنا عن دلائلِ الإلحاد باعتبارها شاهدةً للإيمان بالله؛ فنقول تلخيصًا لما سبق: **الشاهدُ الأحفوري يُقدِّم حجّةً للإيمان بالله وخوارقِ الخلق على غيرِ سُنّةِ الطبيعة**، لدلالته ضِمنًا على تدخُّلٍ إلهي للانتقال من كائنٍ إلى آخَرَ. وهو أمرٌ سيتأكّد بالنظر إلى شجرة الحياةكما ترسُمها جينات الكائنات الحيّة.

ت. شجرة الحياة الجينية والحاجة إلى خلْقِ وسائط

الاختلافاتُ بين الكائنات الحيّة تعود أساسًا إلى اختلافِ مضمونِ المادة الجينية نوعًا وعددِها كثرةً. والقولُ إنّ الكائنات الحيّة كلّها تعود إلى أصلٍ واحد، ضِمن مسيرةٍ تطورية مادية صِرفة، يلزَم منه أنْ تُكوِّنَ هذه الكائناتُ شجرةً للحياة على صورةِ عَلاقاتٍ مباشِرةٍ بين الجذع وما يتفرّع عنه من أغصان، وبين الأغصان وما يتفرّع عنها من أغصانٍ أخرى. ولذلك استدل داوكنز لصحة التطوّر عن أصلٍ مشترك بقوله لمّا سُئِل عن دليلٍ واحد، هو **الأقوى، ليجعلَ القائلَ بالخلْق يشكّ في مذهبه**: «قارِن بين جيناتِ أيِّ زَوجٍ من الحيوانات -زوج من الحيوانات، زوج من النباتات- ثم ارسُم أوجُهَ الشّبه بينهما، وستجد أنهما يقعان في تسلسلٍ هرمي مثاليّ - شجرة عائلةٍ مثالية».[1]

وما ذكره داوكنز حجّة فاسدة للتطوّر من جهة، وحجّة للخلق من جهة أخرى:

الجهة الأولى: المقارنةُ بين جينات الكائنات الحيّة لا تنتهي إلى إنشاءِ «شجرةِ حياة»، وإنّما تنتهي إلى فوضى؛ فعند كلِّ مقارنةٍ تنشأ شجرةٌ جديدة؛ ولذلك

(1) فيديو حديثٌ داوكنز، بالصوت والصورة.
FORA.tv. Richard Dawkins: One Fact to Refute Creationism
<https://www.youtube.com/watch?v=TjxZ6MrBl9E>.

قال البيولوجيُّ مايكل سيفنون Michael Syvanen [1]: «لقد أبَدْنا شجرةَ الحياة. إنها لم تعد البتّةَ شجرةً، إنها شيءٌ آخَرُ مختلفٌ تمامًا».[2] وهو الذي قارَن بين 2000 جين مشترَكٍ بين الإنسان والضّفادع والكأسيّات[3] وقُنْفُذِ البحر[4] وذُبابِ الفاكِهة[5] والدّيدانِ الأسطوانيّة[6]. وكانت المفاجأةُ أن انتهى إلى أنّ الجينات تُقدِّم قصصًا تطوّريةً مختلفة.[7] الخلافُ في شجرة الحياة المزعومةِ ثابتٌ فيها جميعًا «من الجَذر إلى التّفريعات الكبرى ضِمن -ومن بين- الأصناف (taxa) المختلفةِ إلى التجمّعات الصُّغرى» على حدِّ تعبيرِ عالِم البيولوجيا الدقيقةِ التطوريِّ البارزِ كارل ووز Carl Woese[8]. [9] وفي مقالٍ نُشِر في مَجلّةٍ علميّة متخصّصة في البحث الجينيِّ، صرَّح أصحابُ المقال أنّ «بروتينات مختلفة تُولِّد أشجارًا وراثية مختلفة».[10] وفي مقالٍ آخَرَ نُشِر في العَقد الماضي، صرَّح أصحابُه من الباحثين أنّ «التعارض بين الشجر الوراثي شائعٌ، **وغالبًا ما يكون هو القاعدة لا الاستثناء**».[11]

---

(1) مايكل سيفنون: أستاذ البيولوجيا الدقيقة وعلم الجينات في «Harvard Medical School».

(2) Graham Lawton, "Why Darwin was wrong about the tree of life," *New Scientist* (January 21, 2009).

(3) sea squirts

(4) sea urchins

(5) fruit flies

(6) nematodes

(7) Graham Lawton, "Why Darwin was wrong about the tree of life," *New Scientist* (January 21, 2009).

(8) Carl Woese كارل ووز (1928–2012م): عالمُ بيولوجيا دقيقة وفيزياء حيويّة أمريكيّ. أستاذُ البيولوجيا الدّقيقة في جامعة «إلينوي». مكتشفُ مملكة الأصليات Archaea.

(9) Carl Woese 'The Universal Ancestor', *Proceedings of the National Academy of Sciences USA*, Vol. 95:6854-9859 (June, 1998)

(10) Mushegian, Arcady & Garey, James & Martin, Jason & Liu, Lang Xia, "Large-Scale Taxonomic Profiling of Eukaryotic Model Organisms: A Comparison of Orthologous Proteins Encoded by the Human, Fly, Nematode, and Yeast Genomes," *Genome research*. 8. 1988. 590-8.

(11) L. M. Dávalos, *et al.* "Understanding phylogenetic incongruence: lessons from phyllostomid bats," *Biological Reviews*, 87 (4), 991-1024.

ويُلخِّص البيولوجيُّ واين د. روستر Wayne D. Rossiter [1] الأزْمةَ المفاجِئةَ بقوله: «كان من المفترَض أنْ تُحَلَّ مشكلاتُ تحديد العَلاقات ضِمن شجرة الحياة بالثَّورة الحاصلةِ في علم الجينات، **ولكنْ على العكس من ذلك، كُلَّما نظرْنا في الشَّفرة الجينيّة، زاد الأمرُ سُوءًا**».[2]

الجهة الثانية: الفجواتُ الجينية بين عامة الكائنات الحيّة تمنَع ترتيبَها في نسَقٍ جينيٍّ واحدٍ إلّا بافتراضِ ضخِّ معلوماتٍ جينيّة بينها دُفعةً واحدةً. ولكنْ لم تنجَحْ أيُّ آليّةٍ إلى اليوم في نَيلِ رضا التطوريين أنفسِهم. ولعلّ أهمَّ محاولةٍ هي ما يُسمّى إيفو-ديفو evo-devo [3]، وهي تُقرِّر أنّ التطوُّر تقوده الطفَراتُ الحاصلة في الجينات المتحكِّمةِ في تطوُّر الكائن الحيِّ. ولكنَّ هذه النظريةَ فشِلت في أن تلقَى قبولًا لدى الدراونة أنفسِهم؛ حتّى كتَب البيولوجيُّ الدارويني جيري كوني وباحثٌ آخَرُ نقدًا للنظرية انتهَيا فيه إلى أنها قد تُفسِّر اختفاءَ خصائصَ قديمةٍ، لكنّها **لا تُقدِّم أدلةً على ظهورِ خصائصَ جديدةٍ** في الكائنات الحيّة.[4]

وذلك ما يُلزِمنا بقول البيولوجيِّ مايكل دنتون Michael Donton [5]: «**إلّا إذا كنا نؤمن بالمعجزات**... لا بدّ أن مثل هذه التحوّلاتِ قد تضمَّنت سلالاتٍ طويلةً، بما في ذلك العديدُ من السلالات الجانبية لمئاتٍ أو ربما آلافِ الأنواع الانتقالية».[6] ونحن نشهَد بأعيُنِنا غيابَ هذه السلاسل في الرصيد الأُحفوريِّ المتاح.

---

(1) واين د. روستر: حاصلٌ على الدّكتوراه في البيئة والتطوّر البيولوجيّ. أستاذٌ مساعِدٌ للبيولوجيا في جامعة «Waynesburg».

(2) Wayne D. Rossiter, *Shadow of Oz: Theistic Evolution and the Absent God* (Eugene, Oregon: Pickwick Publications, 2015), p.120.

(3) Evolutionary Developmental Biology

(4) Hopi E. Hoekstra and Jerry A. Coyne, "The Locus of Evolution: Evo Devo and the Genetics of Adaptation." *Evolution* 61 (2007): 996.

(5) مايكل دينتون (1362هـ/ 1943م-): أستاذُ الكيمياء بجامعة «برنستون».

(6) Michael Denton, *Evolution: A Theory in Crisis* (Chevy Chase, MD: Adler & Adler, 1986), p.183.

إنّ قيام التطوّر على الطفَرات العشوائية، يمنع أن تكون الرؤية التطوّرية مفتوحةً لكلّ الاحتمالات، بلا حدّ؛ فإنّ علم الاحتمالات بإمكانه أن يُخبرنا عن احتماليةِ حدوث الطفرات المطلوبة ليحصُل التطوّر المطلوب. وقد اجتمع -فعلًا- عددٌ من علماء الرياضيات في مَحفلٍ شهيرٍ منذ خمسينَ سنةٍ لمحاكمة النموذج التطوّري الدّاروينيّ رياضيًّا. وانتهى الاجتماعُ إلى إعرابِ عددٍ من الحاضرين عن مَبلغِ صدمتهم من سطحيّة التّناول الدّاروينيّ لقدرة الطَّفراتِ العشوائيّةِ على تفسير التنوّع الأَحيائي؛ ومن ذلك قولُ أحد المشاركين: «يبدو أنّ الأمر يحتاج إلى عدَّةِ آلافٍ، وربّما ملايين من الطفَرات المتتالية لإنتاجِ أقلِّ تعقيدٍ نراه في الحياة الآن. يبدو أنه -بسذاجةٍ على الأقلِّ- مهما كانت نسبةُ احتمالِ حدوثِ طفرةٍ واحدة، حتى لو بلغَت ½، فسترتفع نسبة الاحتمال إلى 0.000001. وهو أمر قريبٌ جدًّا من الصفر».[1]

ولعلّه من الجيّد أن ننظُرَ إلى نماذجَ واقعيّةٍ بلُغةٍ رياضيّةٍ علميّةٍ ليكون الحُكمُ واضحًا للجميع؛ ولْيكُن تطوُّرَ إنزيم[2] واحدٍ إلى نوعٍ آخَرَ؛ فقد دلَّ البحث العلميُّ على أنّ هذا التغييرَ يحتاج على الأقَلِّ إلى سبْعِ طفَراتٍ.[3] ما هو الزمنُ المطلوب في الاحتمال الرياضيِّ لهذه الطفَرات المحايدة المتناسقة؟ الجوابُ صادمٌ بلا شكٍّ؛ إذ يقول البحث العلميُّ إنّ الزمن المطلوبَ لظهورِ هذه الطفَراتِ في تجمُّعٍ بكتيريٍّ، يبلغ 10^{27} سنة. وهو زمنٌ أعظمُ بكثيرٍ من عُمر الكون![4]

وحتّى تُدرك مبلغ ضآلة هذا الاحتمال (1 من 10^{27})، قم بتغطية كامل أمريكا الشمالية بقطع معدنية لعملة الدينار التونسي، ثم اصنع فوق ذلك طبقة أخرى،

(1) Stanislaw M. Ulam, "How to Formulate Mathematically Problems of Rate of Evolution," in *Mathematical Challenges to the Neo-Darwinian Interpretation of Evolution* (Wistar Institute Press, 1966, No. 5), 21.

(2) كلُّ إنزيمٍ هو بروتينٌ، وليس كلُّ بروتينٍ إنزيمًا.

(3) A. K. Gauger and D. D. Axe, "The evolutionary accessibility of new enzyme functions: A case study from the biotin pathway," *BIO-Complexity* 2, no. 1 (2011): 1-17.

(4) المصدر السابق.

واستمرّ في تكويم الطبقات حتى يبلغ ارتفاعها أعلى جبل إيفرست. ثم بعد ذلك لا تتوقّف، وإنّما افعل الأمر نفسه مع ألف قارة أخرى في حجم أمريكا الشمالية، غطّها بعملة الدينار، واجعل ارتفاع هذه الطبقات يبلغ قمة جبل إيفرست. ثم ضع علامة حمراء على قطعة واحدة من هذه العملات، واطلب من رجل أعمى أن يلقي يده بصورة عشوائية ليلتقط هذه القطعة من أوّل مرّة. احتمال نجاح هذا الأعمى في ذلك من أوّل مرّة قريب 1 من 10^{27}!

ولنا أن نقول لمن يظنّ أنّ ما نقرّره هنا في شأن شجرَتَي الحياة المورفولوجيّة والجينيّة مجرّد دعوى متكَلَّفة: لا فارق -من جهة جوهر الدعوى- بين قولنا **بالتدخّل الخلقي** هنا، سواء بإنشاء مخلوقات من العدم، أو بالتطوير الفجئي للكائنات السابقة بضخ معلومات جينيّة دفعة واحدة، **ونظريّة عالم الجينات التطوّري ريتشارد ب. غولدشميت** Richard B. Goldschmidt الذي دافع عن التطوّر بالقفز لا التدرّج، في نظريّة سمّاها «hopeful monster»، ومَثّل لها مجازًا بوضع أحد الزواحف بيضة يخرج منها طائر؛ بيانًا لحقيقة أنّ الخطوات الكبيرة في التطور - أي تلك التي أدت إلى نشوء الشُّعَب والطوائف والرتب والعائلات، وفي معظم الحالات حتى تلك التي أدت إلى نشوء الأجناس والأنواع - حدثت دفعة واحدة.[1] ودليله الشاهد الأحفوري الذي لا يعرف التدرّج التطوّري.

لا فارق من جهة رصد حركة تاريخ الكائنات. والخلاف هو حول الآلية المفترضة. فلم ينجح أحد إلى اليوم في تقديم آليّة للتطور الفجئي، لتُترك الساحة فقط للقائلين بالخلق أو ضخّ معلومات جينّية من خارج عالم الطبيعة. وقد توقّع جاي غولد أن تجد نظريّة غولدشميت قبولًا كبيرًا[2]، ولكنّ السلطان الطاغي للداروينية (التدرّجيّة

(1) See R. B. Goldschmidt, *The Material Basis of Evolution* (New Haven Yale University Press, 1940); Duane T. Gish, *Evolution: the fossils still say no!* (El Cajon, California: Institute for Creation Research, 1995), pp.75-77.

(2) Gould, "the return of the hopeful monster", *Natural History*, 86 (June/July): 22-30.

البطيئة) في العالم الأكاديمي منع ذلك. وللدراونة هنا عذرٌ في موقفهم من جهة غياب الآلية الطبيعية لهذه القفزات المورفولوجية في الكائنات الحيّة دون تدرّج، ولكنّ الأحافير -في المقابل- تكذّبهم من جهة نفي وجود التدرّج البطيء. ولا يظهر حلّ في الأفق إلّا الخارقة الإلهيّة لتفسير القفزات الكبرى، إن سلّمنا بالتطوّر.

ث. الظهور الفَجئي للإنسان والحاجة إلى خوارق

يتفِق الجميعُ اليومَ على أنّ الإنسان الأوّلَ قد ظهَر على صورةٍ من اثنتين لا ثالث لهما؛ إمّا أنه قد دخَل التاريخَ بصورةٍ مفاجئة (الخلْق) أو أنه تطوَّر عن سلَف. ويتفِق الملاحدة على أنّ الإلحاد يسقُط إنْ سلَّمنا بخلْق الإنسان الأوّلِ إنْ قلنا إنه نشَأ عن تطويرٍ (إلهي) خارجيٍّ.

ولأنّنا نبحث هنا عن شهادةِ «أدلّةِ» الإلحاد على وجود الله؛ فسننطلق من التسليم -من باب التنزُّل- بأنّ الإنسان الأوّلَ قد تطوَّر عن سلَف. ونسألُ: هل المادة العلمية اليومَ تنصُر الدعوى الإلحاديةَ للتطوير العشوائي، أم أنّنا إذا فكّرنا حصرًا ضِمن النموذج التفسيري التطوّري، فلا بدّ أن ننتهيَ إلى ما ينصُر الإيمانَ بالله؟

والجوابُ هو أنّ النظرية الداروينيةَ تقوم على أنّ التطوّر من جنسٍ إلى آخر بطيءٌ. وهذه الدعوى يلزَم منها أنّ هذا التطوّرَ لا بدّ أن تشهَد له الأحافيرُ، ولو على ملامحه العريضة؛ فإنّ بصماتِ الأحياء في جَوف الأرض، ناطقةٌ بما كان، دون تحيّزٍ. كما أنّ التطوّر يجب أن يكون ممكنًا من الناحية الجينيةِ في ظلّ الزمن الذي افترضه الدراونةُ بين القرد الجنوبي Australopithecus (الذي يُقال إنه ظهَر منذ 4 ملايين سنة) والإنسانِ العاقل.

والناظرُ في الأحافير يرى أنها بعيدةٌ كلَّ البُعد عن أن تشهَد للقصّة التطوّرية المزعومة، ولعلّ أظرفَ دليلٍ على ذلك هو أنّ الأخبار تقصِفنا دائمًا بأخبارٍ جديدة عن إعادةِ رسْمِ تاريخِ تطوُّرِ الأناسيّ. وقد لخَّص عالمان من أبرزِ علماءِ أحافيرِ

الأناسيّ paleoanthropologists واقعَ هذه الأحافيرِ بعبارةٍ تُغني عن المزيد، بقولهما: «إنّ التسلسل التطوريَّ لغالبيةِ سلالاتِ أشباه البشر غيرُ معروف. فمعظمُ أصنافِ أشباهِ البشر، وخاصةً أشباهَ البشر الأوائل، **ليس لها أسلافٌ واضحة**، وفي معظم الحالات لا يمكن بناءُ تسلسلات الأسلاف وأبنائهم (السلاسل الزمنية الأحفورية) بشكلٍ موثوق به».[1]

فطبيعةُ «الإنسان العاقل» الجسديةُ لا تعود إلى سلَفٍ متدرّجٍ في تطوُّره؛ حتى صرّحَت الدراساتُ العلميّة بالحقيقة التاليةِ: «يشير تشريحُ عينة الإنسان العاقل الأقدمِ إلى تعديلاتٍ كبيرة في جينوم الأسلاف لا مجردِ امتدادٍ للاتجاهات التطورية في سلالةٍ سابقة من سلالة القرَدة الجنوبية عبر عصر البليوسين. وفي الواقع، **لم تظهَر هذه المجموعةُ من السمات في وقتٍ سابق**».[2]

وأبرَزُ معضلةٍ أُحفوريةٍ هنا، هي الأحافيرُ الانتقالية بين القرد الجنوبي Australopithecus والأناسيّ. وهي قضيةٌ مشكلةٌ حقًّا؛ إذا علمنا أنّ عامةَ مَن يقول بالخلْق يرى أنّ هذه الأناسيَّ تُمثِّل أشكالًا متنوّعةً لأبناءِ آدمَ عليه السلامُ؛ بما يعني أنّنا نفتقِد هنا الحجّةَ الأُحفورية الجادةَ على هذا التطّورِ بين الإنسان وسلَفه. وهو ما عبَّر عنه عالمان من المتخصصين في أحافيرِ الأناسيّ، بقولهما: «هذا التشويشُ يترك الإنسانَ المنتصب Homo erectus[3] **بدون سلَفٍ واضح، وبدون ماضٍ**».[4]

وتظهر المشكلة نفسها في تفسير بعض خصائص الإنسان، وعلى رأسها ملَكة

(1) Bernard Wood and Mark Grabowski, "Macroevolution in and around the Hominin Clade," *Macroevolution: Explanation, Interpretation, and Evidence*, eds. Serrelli Emanuele and Nathalie Gontier (Heidelberg, Germany: Springer, 2015), pp.347-376.

(2) John Hawks, Keith Hunley, Sang-Hee Lee, and Milford Wolpoff, "Population Bottlenecks and Pleistocene Human Evolution," *Molecular Biology and Evolution* 17 (2000), 2-22.

(3) مع اعتبارِ هجْرِ عامة العلماء Homo habilis لاعتباره من الأناسيّ، وواسطة بين القرد الجنوبي والأناسي.

(4) Walker and Shipman, *The wisdom of the Bones: In Search of Human Origins* (New York: Random House, 1996), p.134.

اللّغة. وفي ذلك نشر مجموعة من كبار المتخصصين في أحافير الأناسِيّ دراسة أقرّوا فيها أنّنا لا نملك «أيّ تفسير جوهري لكيفية تطوّر ملكاتنا اللغوية وتمثّلاتها، ولا سبب ذلك... **فإنّ الحيوانات غير البشرية لا تقدّم تقريبًا أي أوجه تشابه ذات صلة بالتواصل اللغوي البشري**».(1)

فالتزامُ الرؤيةِ التطورية لأصل الإنسان، والدفاعُ عن صحّتها، يقتضي ضخّ معلوماتٍ جينيةٍ كثيرةٍ ومتنوعةٍ من خارج الحوض الجيني الطبيعيِّ في القِرَدة الجنوبية لتتطوّر إلى الأناسي.

افتراض التطوّر حلًا لمشكلة خلق الكائنات الحيّة، لا يسعف الإلحاد؛ لأنّ واقع الأحافير والجينات لا يزال يستدعي الخلق، حتى لو سلّمنا بالمذهب التطوّري.

ج. الحَمض النووي الخُرْدة، وحجة التصميم

الحَمْضُ النووي الخُرْدةُ، **أهمُّ دليلٍ للتطوّر العشوائيِّ في القرن الماضي**. وقد استمرَّ الدَّراونةُ في العقود الأخيرة على تأكيد أنّ وجودَ نسبة عاليةٍ جدًّا من الحَمْض النووي الصِّبغي الذي لا يُشفِّر البروتينات برهانٌ على أنّ هذا الحَمْضَ النووي مجرّدُ خُرْدةٍ لا وظيفةَ لها. ولعلّ هذه النبوءةَ قد بدأَت مع نشْرِ ورقةٍ بحثيّة عامَ 1969 في مَجلةِ Science تنبأَت بأنّ «99٪ من الحَمْض النووي للثدييات ليس مادةً وراثية حقيقية».(2) وقد بدأ شُيوع هذه الدعوى سنةَ 1972 عندما كتَب عالِمُ الأحياء التطوريُّ الياباني سوسومو أوهنو Susumu Ohno فصلًا في كتابٍ بعنوانِ «الكثير من الحَمْض النووي «خُرْدة» في جينومنا». ونشَر أيضًا ورقةً بحثية في مَجلةِ «التطور البشري» يقول فيها:

(1) Marc Hauser, Charles Yang, Robert Berwick, Ian Tattersall, Michael J. Ryan, Jeffrey Watumull, Noam Chomsky, and Richard C. Lewontin, "The Mystery of Language Evolution," Frontiers in Psychology 5 (May 7, 2014): 401.

(2) J. L. King and T. H. Jukes, "Non-Darwinian Evolution," *Science*, 164 (3881), 788-798.

«يبدو أنّ ما لا يقل عن ٪90 من الحَمْض النووي الجينومي للثدييات يُمثِّل تسلسلَ قواعدِ الحَمْض النووي «الذي لا معنى له nonsense» من أنواعٍ مختلفة»[1].[2] وفي المقابل، تنبَّأ أنصارُ «التصميم الذكي» بأنّ القولَ بالتصميم لا العشوائيةِ يقتضي أنّ عامة هذه الجيناتِ التي يُقال إنها خُرْدةٌ لها وظائفُ حيويةٌ، دون إنكارِ أنّ الطفَرات قد تؤدي إلى تعطيلِ بعضِها.[3]

ومع تطوُّرِ الدّراسات الجينيّةِ؛ اكتشَف العلماءُ جنايةَ الداروينيّةِ على العِلم؛ إذ تبيَّن أنّ من هذا الحَمْض النووي ما يقومُ بوظائفَ ضروريّةٍ جدًّا لعملِ الخليّة، ولتنظيم التّناسق الأدائيّ للجينات، ولحفظ الإنسان من أمراض القلب وغيرِها.... وقائمةُ «الخُرْدةِ» في تقلُّصٍ متواصلٍ مع تطوُّرِ آليّاتِ فهْم الجينات وفحْصِها؛ حتّى قال عالِمُ الجينات -التطوّريُّ- جيمس شابيرو والبيولوجيُّ التطوّري ريتشارد سترنبرج[4]: «في يومٍ ما، سنعُدّ ما كان يُدعى «الحَمْضَ النووي الصِّبغي الخُرْدَةَ» مُكوِّنًا أساسيًّا «لخبيرٍ» حقيقيٍّ في نَظْمِ التحكُّم الخلَويّ».[5]

وقد صُدِمَت الجماعةُ العلميّةُ في الغربِ بعد كشفِ البرنامجِ العلميِّ (إنكود)[6] أنّ جُلَّ «الحَمْضِ النووي الصِّبغي» غيرِ التّشفيريّ والتّكراريّ[7] يحتوي على معلوماتٍ تنظيميّةٍ أساسيّةٍ. ونشَرَت لاحقًا مَجلةُ Science مقالًا بعنوانِ «مشروع ENCODE

---

(1) S. Ohno, “An argument for the genetic simplicity of man and other mammals,” *Journal of Human Evolution*,651-662 ,1972 ,1.6 .

(2) Casey Luskin, New Long Story Video Tackles “A Battle of Predictions: Junk DNA”. Evolution News. March 28, 2024. <https://evolutionnews.org/2024/03/new-long-story-video-tackles-a-battle-of-predictions-junk-dna/>.

(3) William Dembski, “Intelligent Science and Design,” *First Things*, Vol. 86:21-27 (October 1998)

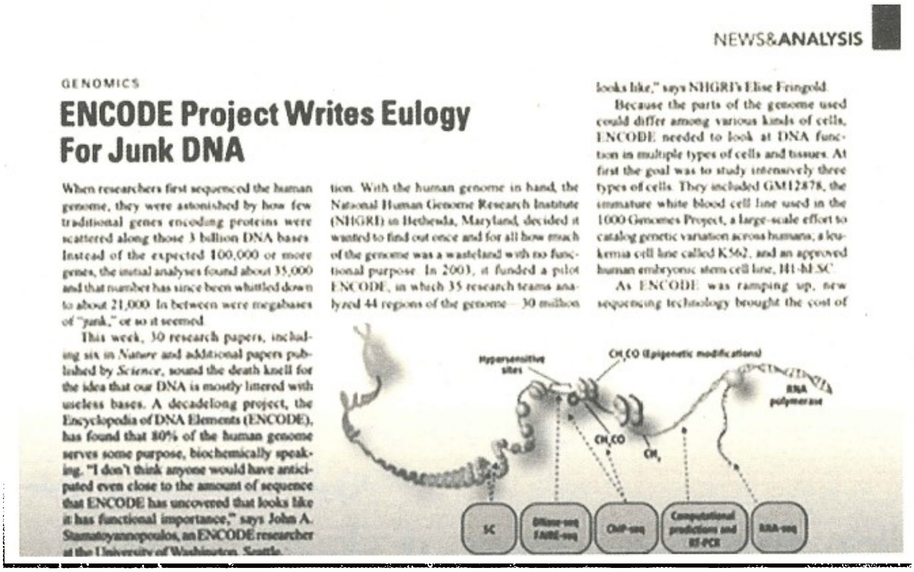
(4) ريتشارد سترنبرج Richard Sternberg: بيولوجيٌّ أمريكيٌّ، حاصلٌ على دكتوراه في التطوّرِ الجزيئيِّ وأخرى في علم الأنظمةِ (البيولوجيا النظريّة).

(5) Richard Sternberg and James A. Shapiro, “How Repeated Retroelements format genome function,” *Cytogenetic and Genome Research*, Vol. 110:108-116 (2005).)

(6) ENCODE [**ENC**yclopedia **Of** **D**na **E**lements].

(7) Noncoding and repetitive DNA

يكتب تأبينًا للحَمْض النووي الخُرْدة». وهو ما اضطَرّ البيولوجيَّ التطوّريَّ **الملحدَ الشّهيرَ** دان غرور[1] إلى أن يقول: «**إذا كانت نتائجُ مشروعِ (إنكود) صحيحةً؛ فالتطورُ خطأٌ**».[2]



NEWS&ANALYSIS

GENOMICS

ENCODE Project Writes Eulogy For Junk DNA

When researchers first sequenced the human genome, they were astonished by how few traditional genes encoding proteins were scattered along those 3 billion DNA bases. Instead of the expected 100,000 or more genes, the initial analyses found about 35,000 and that number has since been whittled down to about 21,000. In between were megabases of "junk," or so it seemed.

This week, 30 research papers, including six in *Nature* and additional papers published by *Science*, sound the death knell for the idea that our DNA is mostly littered with useless bases. A decadelong project, the Encyclopedia of DNA Elements (ENCODE), has found that 80% of the human genome serves some purpose, biochemically speaking. "I don't think anyone would have anticipated even close to the amount of sequence that ENCODE has uncovered that looks like it has functional importance," says John A. Stamatoyannopoulos, an ENCODE researcher at the University of Washington, Seattle.

tion. With the human genome in hand, the National Human Genome Research Institute (NHGRI) in Bethesda, Maryland, decided it wanted to find out once and for all how much of the genome was a wasteland with no functional purpose. In 2003, it funded a pilot ENCODE, in which 35 research teams analyzed 44 regions of the genome—30 million

looks like," says NHGRI's Elise Feingold.

Because the parts of the genome used could differ among various kinds of cells, ENCODE needed to look at DNA function in multiple types of cells and tissues. At first the goal was to study intensively three types of cells. They included GM12878, the immature white blood cell line used in the 1000 Genomes Project, a large-scale effort to catalog genetic variation across humans; a leukemia cell line called K562, and an approved human embryonic stem cell line, H1-hESC.

As ENCODE was ramping up, new sequencing technology brought the cost of

كما أنّ الناظر في نماذج الحَمْض النووي الصِّبغي الخارجةِ من دائرةِ «الخُرْدة» بسببِ اكتشافِ وظائفَ لها، تحمِل درجةً من الدقة والتعقيد في وظائفها، لا يمكن عزوُها إلى عمى العشوائية. ومن ذلك مقالٌ نُشِر سنةَ 2021 في مَجلةِ Nature ذكَر أنه تم الآن اكتشافُ أكثرَ من 130 ألفَ «عنصرٍ جينومي وظيفي، كان يُطلق عليه سابقًا اسمُ الحَمْضِ النووي الخُرْدةِ».[3] ومثلُ هذه الأخبار العلمية جعلَت مَجلةَ Genome

(1) دان غرور Dan Graur (1372هـ/ 1953م-): عالمٌ متخصّصٌ في التطوّر الجزيئيِّ. أستاذُ علم الحيوان في جامعة تلّ أبيب.

(2) Dan Graur, 'How to Assemble a Human Genome?' (December 2013) <http://tinyurl.com/mpmxkyw>

(3) Alexander J. Gates, Deisy Morselli Gysi, Manolis Kellis & Albert-László Barabási, "A wealth of discovery built on the Human Genome Project — by the numbers", *Nature* 590, 212-215 (2021)

Biology and Evolution تنشُر قريبًا مقالًا خلاصتُه: «انتهت أيّامُ «الحَمْضِ النووي الخُرْدةِ»» « The days of 'junk DNA' are over».[1] وفي كتابه الذي صدَر مؤخرًا، صرَّح جون متيك John Mattick المتخصصُ في البيولوجيا الجزيئيةِ أنه «بينما لا تزال القصةُ تتكشَّف، فلنا أن نستنتج أن جينوماتِ البشر والكائنات الحيةِ المعقدة الأخرى ليست مملوءةً بالخُرْدة بل هي مجموعاتُ معلوماتٍ مضغوطة للغاية ومكرَّسة إلى حدٍّ كبير لتحديد الحَمْض النووي الريبي التنظيمي. ... **وهو ما يتعارض في معظمه مع** المفاهيم الراسخة للبرمجة الوراثية **وعقائدِ نظرية التطور**».[2]

وخلاصةُ هذا الدليل، هو أنّ الداروينية احتجّت بدليلٍ جيني للتطور، ولعشوائيته، وهو أنّ هذا التطورَ الطويل لا بدّ أن ينتهيَ إلى تعطيلِ كثيرٍ من الجينات التي كانت تعمَل في الأسلاف، ولكنّ البحث الجينيَّ اليومَ يُبطِل هذه النبوءةَ، ويُظهِر أنّ لهذه الجينات التي كانت تُوصَم بأنها خُرْدةٌ وظائفَ حيويةً عظيمة هي ألصَقُ شيءٍ بالحكمة، وبعيدةٌ كلَّ البُعد عن العشوائية.

(1) Maria Stitz, *et al.* "Satellite-Like W-Elements: Repetitive, Transcribed, and Putative Mobile Genetic Factors with Potential Roles for Biology and Evolution of Schistosoma mansoni," *Genome Biology and Evolution*, Volume 13, Issue 10, October 2021.

(2) John Mattick and Paulo Amaral, *RNA: The Epicenter of Genetic Information* (Boca Raton: Taylor & Francis, 2023), p. Vii.

الخلاصة:

- العلمُ ليس في نزاعٍ مع القول بوجودِ الله تفسيرًا للكون؛ فإنّنا في الحقيقة نؤمن بالله؛ لأنّ وجوده تفسيرٌ لطبيعة الكون التي سمحَت للعلم أن يوجَدَ وللعلماءِ أن يستمتعوا بدراسة الكون من خلالِ جمالِ بنيتِه الرياضيّةِ.
- لا نعرِف عن أصْل هذا الكونِ من جهة العقل والعلم سوى أنه مُحدَثٌ، والتفسيرُ المعقول لذلك أنّ له خالقًا. وأمّا نظريّةُ الانفجار العظيم فليست بديلًا لهذا التفسير، وإنّما هي شرحٌ لصورةِ بداية الكون، لا سببِ وجوده.
- نشأةُ الكون على الصورة التي يفهَمها العلماءُ اليومَ لا تشهَد للإلحاد، وإنّما تشهَد لوجود الله من جهة الخلْق، ومن جهة الضبط الدقيق الخارق لهذه النشأة التي علينا أن نتوقّع فوضويتَها الانفجاريةَ لو أنّ الكون ظهَر بغيرِ حكمةٍ متعالية.
- الأبحاثُ العلميّة الحديثة لنشأة الحياة لم تهتدِ إلى أصلٍ مادي آلي لظهور الحياة من اللاحياة كما يزعم فريقٌ من الملاحدة، فقد شهِد أعلامُ هذا العلم على عُقم جهدهم، وأنّ تقدُّم هذه الأبحاثِ يزيد هذه المعضلةَ سوءًا؛ لِما تكشِفه أبسطُ مظاهر الحياة من نَظْم وتعقيدٍ خارقَين.
- الحياةُ الأكثر «بدائيّةً» تتضمّن نَظْمًا وأمورًا لا يمكن أن تُعزى إلى العشوائية، فهي تشير إلى خالقٍ لا لعُسر العثور على تفسيرٍ مادي، وإنّما لامتناع التفكير في تفسيرٍ مادي؛ مثل المعلومة المخصوصة، والتعقيدِ غير القابل للتبسيط، والوعي، والتشفير.
- حديثُ العلماء المتخصصين في أبحاثِ نشأة الحياة عن «معجزة»، أيًّا كان قصدُهم بالعبارة، يشير إلى دلالةِ نشأة الحياة على الحاجة إلى الإيمان بالله لا الإلحاد.
- دعوى التطوّر البيولوجي لا عَلاقة لها بإنكارِ وجود الله. وأقصى أمرِها معارضةُ دليلِ نَظْم الكائنات الحيّة دون بقيّة الأدلّة.
- قبولُ الدعوى التطوّرية -تنزّلًا مع المخالف- لا يُفضي في الحقيقة إلى الاستدلال بدعوى التطوّر البيولوجيِّ لإبطالِ دليل النَّظْم في عالَم الأحياء؛ لأنّ تاريخ الأحياء يحتاج إلى خوارقَ لربطِ أطرافِ شجرة الحياة أُحفوريًّا وجينيًّا. كما أنّ استدلال الدراونة بما سُمّي بالحَمْض النووي الصِّبغي الخُرْدةِ قد انقلب حجّةً على التصميم الأحيائي.

الإنسانوية الأخلاقية، حجّةٌ للإلحاد أم للإيمان؟

﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة/ 2]»

« الأخلاق وهمٌ وضعته فينا جيناتنا الوراثية لتجعلنا متعاونين اجتماعيًا.»[1]

مايكل روس، فيلسوف العلوم الملحد

الدعوى الإلحادية، ودليلُها

يقول كثيرٌ من الملحدين:

نحن ملحدون، لأنّ الدين يُهدِر كرامةَ الإنسان؛ فلا حقَّ للإنسان في الحياة والتشريف والصيانة من الظلم إلّا في الإلحاد. وقد تأسّس الإعلانُ العالمي لحقوق الإنسان على مبدأِ تكريم الإنسان للإنسان باعتباره إنسانًا. ولا سبيل للاعتراف للإنسان بالكرامة والخصوصيّة إلّا بالإلحاد. والإيمانُ بالإله والدينِ مصْدرٌ لابتذال الإنسان على أنه عبْدٌ مخلوق، لا سيّدُ هذا الكون، ومجبورٌ بالقدَر الإلهي.

فالإلحادُ حقٌّ

- لأنه -على نقيض الدين- يعترف للإنسان بالكرامة الآدمية؛ إذ يجعله سيّدَ هذا الكون بدلًا من الإله!
- ولأنه ينقُض جبريّةَ «القضاء والقدر» الدينيين، ويؤكّد حريَّته.

(1) Michael Ruse and E. O. Wilson, "The Evolution of Morality," *New Scientist* 1478 (1985): 108-128.

- ولأنه أخلاقيٌّ، على خلاف الدين الذي ظلَم الأقليّاتِ والمهمَّشين.
- لا نقول إنه لا حاجة إلى الدين لتأسيس الأخلاق، وإنّما نقول بوجوبِ استبعاد الدين لتنشَأ الأخلاق.

قلْبُ الدليل

تقوم الرؤية الإلحادية الفخورُ بالإلحاد، والتي تزعم أنه الحقُ، على تجاهُلِ حقيقةِ الإنسان والأخلاق إلحاديًا، وتجاهُلِ مآلات الأخلاق النفعيّة الإلحادية. وبرفْعِ هذا التجاهل والتحريف، والتبصُّرِ بمآلات الأخلاق الإلحادية؛ سننتهي إلى أنّ الأخلاقَ حجّةٌ للإيمان بالله لا الإلحادِ.

حقوق الإنسان في غَيبة «الإنسان»

القولُ إنه لا «إنسان» إلّا بإنكارِ وجود الله، قولٌ مقلوب على رأسه، ينظر إلى الوجود منكوسًا؛ فإنّ الحقيقة هي أنه مع إنكار الإله، ينتفي «الإنسانُ»، وينتفي تبعًا لذلك إمكانُ الحديث عن حقوقه وكرامته، على خلاف الرؤية الدينية التي تقوم على الإعلان الأوّلي: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء/ 70].

أ. الإنسان المكرَّم أصلُ الأخلاق

ما «الإنسان»؟

ذاك هو السؤالُ.. والقفزُ فوق السؤال الأوّلي، مصادَرةٌ على المطلوب عند النظر في الإيمان والإلحاد، وموقعُ الإنسان ضِمن رؤيتهما الكونية. ولسنا نجادل هنا في حقيقة الإنسان بالمعنى البيولوجي؛ فكلُّنا اليومَ مسلِّمٌ أنّ ما يُسميه الأنثروبولوجيون «الإنسان العاقل» هو الإنسانُ، وإنْ وقَع الخلاف في إنسانية مَن عاشوا سابقًا ممّن سُمُّوا «إنسانَ نياندرتال» Homo neanderthalensis و«إنسانَ هايدلبيرغ» Homo

heidelbergensis و«الإنسانَ المنتصِبَ» Homo erectus... نحن هنا نجادل في إمكان الحديث عن «الإنسان» قِيَميًّا ضِمن الرؤية الإلحادية.

يجيبنا عن سؤالنا السابق عالِمُ الأحافير الشهيرُ وأستاذُ علم الحيوانِ في جامعة كولومبيا، غايلورد سمبسون Gaylord Simpson، بتعريف الإنسان بأصله، بما يكشِف جوهرَه: «الإنسانُ هو نتيجةٌ عمليّة ماديّة، **لا غاية لها**، لم يكن الإنسانُ في حساباتها. إنه شيءٌ **لم يُخطَّط له**. إنه **مادةٌ، وشكلٌ من أشكال الحياة، ونوعٌ من الحيوان، وفصيلةٌ في رُتبة الرئيسيات، تشبه تقريبًا -أو من بعيدٍ- كلَّ الأحياء، بل كلَّ ما هو ماديٌّ**».[1]

ذاك هو الإنسانُ إلحاديًّا .. مجرّدُ مادةٍ صمّاءَ، وبهيمة وإن لم تكن عجماء.. فماذا عن حقوق هذه البهيمة؟ ولا نقصِد بـ«الحقوق» ما يشترك فيه البشرُ مع بقيّة الحيوانات من منع التعذيب المجانيِّ مثلًا في كثيرٍ من الشرائع[2]. إنّنا نقصِد بـ«الحقوق» -مثلًا- حقَّ الحياة على حساب الكائنات الأخرى جميعًا؛ فلو تعارضَت مصلحةُ الإبقاء على إنسانٍ وكلب، كان قتْلُ الكلب واجبًا بلا تردُّد، وحفظُ الإنسان مُقدَّمٌ بلا تلَكُّؤ... وتلك هي «الإنسانوية».

وتعرّفنا مؤسسة الإنسانوية [الإلحاديّة] الكنديّة بهذه النِّحلة، على موقعها الإلكتروني، بقولها: «النزعة الإنسانويّة هي فلسفة أو موقف حياة قائم على **الاحترام العميق للكرامة الإنسانية** والاقتناع بأنّ البشر مسؤولون في نهاية المطاف أمام أنفسهم وأمام المجتمع عن أفعالهم. إنّها نظرة للعالم خالية من الألوهيّة تؤكّد قدرتنا على عيش حياة أخلاقية وذات مغزى دون الاعتماد على الإيمان بالغيبيات».[3]

إن حديثَ مؤسسة الإنسانوية الكندية عن «حقوق الإنسان» يقوم كلّه على حقيقةٍ

(1) Gaylord Simpson, "The Meaning of Evolution," cited in: David Oderberg, *Real Essentialism* (Routledge, 2007), p. 241.

(2) وهي نفسُها «حقوقٌ» مكتسَبة وغيرُ أصليّة.

(3) http://humanistcanada.ca/about/humanism

مطويّة لا تظهَر على سطح الكلام، مطموسةٍ عن جهلٍ أو غفلةٍ أو عمْدًا؛ وهي تميّزُ هذا الإنسانَ عن جميع الكائنات على هذه الأرض. وهذا التميّزُ ليس هو مجرّد الاختلافِ الجيني أو الشكلي المورفولوجي، أو القُدرةِ على إخضاعِ بقية الكائنات بالقهر، وإنّما هو **التميّزُ الناتج من عُلوِّ قيمة الإنسان فوق بقيّة الكائنات**، لا لأنه يرى أنه أعلى منها، وإنّما لأنّ عُلوَّه **حقيقةٌ كونيّة جوهريّة**.

وهذا العلوُ له حقيقةٌ في الإسلام، في إيمان المسْلِم بالتشريف الإلهي للإنسان؛ ليكون الخليفةَ في الأرض، وتسخيرِ اللهِ المخلوقاتِ له. وأمّا إلحاديًّا؛ فلا حقيقة للأشياء غيرُ الأبعاد الفيزيائية والتفاعلات الكيميائيةِ، أيْ ما يُسمّيه الفلاسفةُ «الحركةَ» أو «التغيرَ».. لا شيء سوى حركةٍ عمياءَ تسِير من العبث إلى الفناء. لا شيء غيرُ «أشياء» تتحوّل من صورةٍ إلى أخرى، ومن حيّزٍ إلى آخَرَ. وقانونُ الديناميكا الحرارية هو المنتصرُ وحده، أيْ الانتهاء إلى الفوضى بعد النظام، والصيرورة إلى البرودة بعد الحرارة، والاستسلام إلى الموت بعد الحياة.

وما العالَمُ وأشياؤه إلّا ككأسٍ مُلِئت ماءً مكدَّرًا بتراب، ثم ركَد الترابُ في القاع بعد اختلاطٍ عشوائي مع الماء. فالكأسُ المكدَّرة هي الكونُ، ولحظةُ الحركة الأولى للتراب والماءِ هي الانفجارُ الأوّل، وتاريخُ هذه الحركة هو تاريخُ الحياة الفيزيائية ثم البيولوجيةِ في الكون، وركودُ الماء في قاع الكأس، ونهايةُ الحركة، هو الموت الحراريُّ للكون، ونهايةُ كل التفاعلات أبدًا.. لا فارق بين الحالين.. فرقعةٌ بلا سبب نشَأ عنها الزمكانُ ثم الإنسانُ والحيوان، وهَجْعةٌ عامة لاحقة يموت فيها كلُّ شيء بعد نفادِ دواعي الحركة.. والقاعُ مقبرةُ الجميع.. وبين الفرقعة والنهاية الباردة حركةٌ «للأشياء» بلا معنى.

والسؤالُ اللَّجوج في قصّة الوجود السخيفةِ في سِفر الإلحاد الأصفر هو: كيف للإنسان أن يكتسِب قيمةً؛ إذا كان الوجودُ كلُّه في تاريخِ سيرورته بلا قيمة.. إنّ

قانون السِّنخية يأبى أن يهَب الشيءُ نفسه ما لا يملكه؛ **للترابط الجوهريّ الطَبَعيّ بين العلّة والمعلول**؛ ولذلك ففاقدُ الشيء لا يعطيه. وكونٌ بلا معنًى لا يهَب لحياة الإنسان معنًى، وكونٌ بلا قيمةٍ لا يمكن أن يمنَح الإنسانَ قيمةً. والحديثُ عن «حقوق الإنسان» في كونٍ لا يعرِف القيمةَ، حديثٌ بلا قيمة.

الإلحاد يغتال الإنسان؛ ثم يفخر بالانتصار لحقوق هذا القتيل!

ب. التدليس، لاستنقاذ الإنسان

إنّ الموقف الإلحادي القاضيَ بتفضيل الإنسانِ جنسَه فوق جميع الكائنات، هو مجردُ موقفٍ غريزيٍ أعمى في انحيازه لجنسه البشري وتفضيلِه على غيرِه human speciesism، وليس هو موقفًا عقلانيًّا ضِمن الرؤية الطبيعانيّة، فهو كانحيازِ طَير النورس لسِرْبه، وانحيازِ النملِ لتجمّعِه، وانحيازِ الأغنامِ لقطيعِها. إنه موقفٌ راسخ في العاطفة الغِرّة، وعطاءُ مَن لا يملك مَن لا يستحقّ. إنه تبادلٌ للمنافع على غيرِ وجهِ حقٍ؛ لأنّ الحقَّ -ابتداءً- مفهومٌ دخيل على هذا الوجود المادي في جوهره، والغابيِّ في عَلاقاته ودوافعه.

إنّ الوجودَ كلَّه -من زاويةٍ إلحاديّة- ليس إلّا مادةً صماءَ وحركةً تسير على عشْواءَ، ولا شيء فوق ذلك ولا دونه. في ظلِّ هذا الكونِ، لا شيء له حقيقةٌ غيرُ محْض الحركة، ولا يُجتنى من الحركة فضْلُ قيمةٍ؛ فإنّ العدميّةَ لا تعرِف الخيرَ والشر ولا الحسنَ والقبح. وفي هذا الوجودِ الأعمى الأصمِّ، ظهرَت كائناتٌ عرَضيّة بسبب الطفَرات الجينية العشواءِ، على جِرْم صغيرٍ وحقيرٍ يُسمَّى الأرضَ. وبعدَ 4 بلايين سنةٍ من نشأةِ هذه الحياة، وفي القرن المسمى بحساباتهم القرنَ الحادي والعشرين، ذهبَت جماعةٌ من الكائنات الطفيليّة المسماة بالبشر إلى اختيارِ نظامٍ أخلاقيٍّ يوفِّر الرخاءَ المادي لعامتهم، رغم أنهم كائناتٌ لا تساوي شيئًا خارج الوصف الفيزيائي والكيميائي

والبيولوجي؛ فهُم كيميائيًّا مجردُ لطخةٍ كيميائية -بعبارة الفيزيائي الملحد ستيفن هاوكنج-، وهُم بيولوجيًّا، مجرّدُ دوابٌّ كبقيّة الهوامّ. أو بعبارة الفيلسوف **الملحد** بول كرتز Paul Kurtz [1]: «إنّ الجنس البشري ليس سوى واحدٍ من بين الأشكال العديدة للحياة التي ظهرَت على الأرض.... لقد **قوّضَت** اكتشافاتُ كوبرنيكوس وداروين ... الاعتقادَ بأننا **مختلفون اختلافًا جوهريًّا عن جميع الأنواع الأخرى**».[2]

وليس ظهورُ الحياةِ البيولوجية من اللاحياة بِداعٍ إلى اكتساب الحيواتِ[3] والحيواناتِ قيمةً، كما هو مُسلَّمٌ به عند الملاحدة؛ فالخليةُ الأولى التي ظهرَت منذ أربعة بلايين من السنينَ لا قيمة لها خارج الوصفين البيولوجي والفيزيائي، وما نتج منها لاحقًا من أسماكٍ وزواحفَ وطيورٍ هي كذلك، مجرّدُ أشياءَ تدُبّ على الأرض أو تطِير في الفضاء أو تسبَح في الماء؛ لم يتغيّر شيءٌ؛ فالأشياءُ هي الأشياءُ، وما طرَأ على الوجود غيرُ ظهورِ أشياءَ من خلايا ناميةٍ تتكاثر بطرقٍ مختلفة كالانقسام والولادة. لم يطرَأ تغيرٌ صميمي على هذا الوجودِ الأصمِّ.

إنّنا وبقيّةُ الحيوانات -في ظلِّ الرؤية الإلحاديّة- سواءٌ في الالتزام الأخلاقي في ظلِّ قانون المِخلَب والنَّاب؛ فما كان غيرَ مُلزِمٍ للحيوان؛ فليس بمُلزِمٍ للإنسان، ولو اتّجهَت مجامعُ النفس إلى ذلك؛ فإنّ الطبيعة البيولوجيةَ ليست حجّةً للإلزام؛ لأنها مجرّدُ حركةٍ مادية غريزيّة؛ ولذلك قال الفيلسوف **الملحدُ** ماسيمو بيلوشي Massimo Pigliucci [4] متسائلًا: «إنّ ما نسميه القتلَ أو الاغتصابَ أو... حتى قتْل الأطفال شائعٌ جدًا بين أنواعٍ

---

(1) بول كرتز (1343-1433هـ/ 1925-2012م): فيلسوف أمريكي غزير التأليف، مناضل عريق في سبيل الإلحاد. لُقّب بأبي الإنسانوية العالمانية. أسّس أشهر دار نشر أمريكية معتنية بنشر الإلحاد «Prometheus Books».

(2) Paul Kurtz, The Courage to Become (Westport, Conn.: Praeger, 1997), pp.5-6.

(3) حيوات=جمْعُ حياة.

(4) ماسيمو بيلوشي (1384هـ/ 1964م-): بيولوجيٌّ وفيلسوفُ علومٍ إيطاليٌّ. عضو الجمعيّة الأمريكيّة لتقدُّم العلوم. من أهمِّ أنصارِ الداروينيّة وخصومِ المذهب الخلْقيِّ في أمريكا.

مختلفة من الحيوانات. فالأسودُ، على سبيل المثال، تقتُل الأطفالَ بشكلٍ منتظم.... والآنَ هل يمكن التغاضي عن هذا النوع من الأفعال؟» وأجاب عن ذلك بقوله: «لا أعرِف حتّى ما معنى ذلك، لأنّ الأسدَ لا يفهَم ما هي الأخلاقُ. **الأخلاقُ هي اختراعٌ من اختراعات البشر**».[1]

إنّ هذا التمييزَ الأخلاقيَّ بين واجبات الإنسان، وواجبات الحيوان، محْضُ عملٍ اعتباطيٍّ، فإذا كان الإنسانُ مجرّدَ حيوانٍ، والجميعُ أثَرٌ آليٌّ لعشوائية النسْخِ الجيني بعد ظهور الكائن الحيِّ الأوّليِّ منذ بلايين السنين؛ فاستصحابُ الحُكمِ القيمي الأخلاقي عند وصفِ أفعال الإنسان، تكلُّفٌ لا مُسوِّغ له، وإسقاطٌ نفسيّ مبتوتُ العَلاقة بالعقلانيّة والإنصاف.

وهنا يُنبِّهنا عالِمُ الأخلاقيات ريتشارد تايلور Richard Taylor [2] إلى العبث اللُّغويِّ عند الملاحدة؛ إذ يدعونا إلى التفكُّر في أمرِ إنسانٍ قتَل آخَرَ، في بيئةٍ بشريّة يعِيش أفرادُها ضِمن قانون الطبيعة، من غيرِ أعرافٍ ولا قوانينَ، أيْ حال البراءة من أثَرِ الأمور الأجنبية عن حقيقة الإنسان الطبيعاني. يقول تايلور: «إنّ مِثلَ هذه الأفعالِ، وإنْ كانت مؤذيةً لضحاياها، إلّا أنها **ليست أكثرَ ظلمًا أو لا أخلاقيةً ممّا لو قام بها حيوانٌ لحيوانٍ آخَرَ**. فالصقرُ الذي يستولي على سمكةٍ من البحر يقتُلُها kills it لكنه لا يفتِكُ بها murder it، والصقرُ الآخَرُ الذي يستولي على السمكة من مخالب الأول يأخذُها takes it لكنه لا يسرِقُها does not steal it؛ لأنه ليس شيءٌ من هذه الأمورِ مُحرَّمًا. **وهذه الاعتباراتُ نفسُها تنطبق على الأشخاص الذين نتخيلهم هنا**».[3]

(1) Massimo Pigliucci, "Does the Christian God Exist?" debate with William Lane Craig, University of Georgia, 22 March 2001.

(2) ريتشارد تايلور (1337-1424هـ/ 1919-2003م): فيلسوفٌ أمريكيٌّ. درَّس في كثيرٍ من الجامعات. من أهمِّ مؤلَّفاته: «Metaphysics».

(3) Richard Taylor, *Ethics, Faith, and Reason* (Englewood Cliffs, N.J.: Prentice- Hall, 1985), p.14.

ويُوضِّح تايلور فكرتَه بعبارةٍ قويّةٍ ومباشرة؛ لا سبيل لرفضها من الخارج، أو لفظِها من الداخل الإلحادي، بقوله إنّ «**مفهوم الالتزام الأخلاقي غيرُ مفهومٍ بمَعزِلٍ عن فكرة الله. فالكلماتُ باقيةٌ، لكنّ معناها قد اختفى**» « The concept of moral obligation [is] unintelligible apart from the idea of God. The words remain, but their meaning is gone».[1] **إنّ الأخلاق ظِلٌّ لحقيقة وجود الله؛ فإذا اختفت هذه الحقيقة؛ زال الظلّ!**

وليس ظهورُ الإنسان بسببٍ لدخول المعنى والقيمةِ لهذا الوجود؛ فالإنسانُ قد قُدَّ من الحَمْض النووي الصِّبغي (DNA) الذي صُنع منه أيضًا الديناصورُ والبعوض والسوس والدود. والتغيّرُ الأكبر في سيرةِ هذا الكائن الحيِّ هو تغيرٌ جغرافي؛ بخروج الإنسان من الغابة، مُحمَّلًا برصيده الذهنيِّ والعاطفي المنقوش في خلاياه، وتحوُّله إلى المدن والقرى؛ لامتلاكه قدراتٍ تُعِينه على الحراثة والصناعة ودراسة البيولوجيا الجزيئية وفيزياء الكم، كما امتلك السَّمَكُ سابقًا القدرةَ على المشي بعد خروجه من الماء ضِمن مسيرة التطوّر البيولوجي الأعمى الحريصِ على انتخاب القادر على التكيّف مع البيئة وحده دون غيره. فلا يزال «الإنسان العاقل» هو الحيوانَ القديم؛ ثمَرةَ عبَث الطفَرات العشوائية في الجينات.

وقد يُقال إنّ قدرة الحيوان المعروف بـ«الإنسان العاقل» على الشُّعور بالألم قد أورثته قيمةً، وجعلت «العدوانَ» عليه مُحرَّمًا.. بل قد قيل ذلك.. وليس ذاك بشيء؛ فإنّ هناك فارقًا جوهريًّا بين أن يدفع حيوانُ «الإنسان العاقل» عن نفسه أسبابَ الألم؛ لأنّ الألم يُوْرِثه شعورًا بغيضًا إلى جهازه العصبي، وربما يمنعه من الاستمتاع بلذائذ الأرض، وأن يكون هذا الألمُ سببًا لأن يكون هو نفسُه له قيمةٌ. إنّ إحساس النملة بالألم لا يجعل للنملة الحقَّ أن تتنعّم بنفْسِ حقوقِ «الإعلان العالمي لحقوق الإنسان»، أو بما هو

(1) Ibid., 83-84.

قريبٌ منه. إنّ الشعور بالألم مسألةٌ «شخصيّةٌ» في عالَمِ «الطبيعة»؛ والانتقالُ من تأذّي الإنسانِ بسبب الألم إلى واجب الآخرين في أن يَمنعوا عنه هذا الألَمَ، قفزةٌ لا يوجد ما يُسوِّغها طبيعانيًّا. فإنّ إقحام المعطى الأخلاقيِّ هنا، تكلُّفٌ صِرف؛ لأنه ينقُلنا من عالَمِ «الإحساس العصبي» الماديِّ، إلى عالَمِ الواجب الأخلاقيِّ العالمي. وبين الجنسين انقطاعٌ تام؛ لأنهما من عالَمَين مختلفين ضِمن الرؤية الطبيعانية لأشياءِ العالَم وأجناسه.

وقد يُقال إنّ قدرة الإنسان على التفكير قد جعلَت لحياته معنًى، ومن ثَمّ وهبَته حقوقًا متميّزة عن بقيةِ أشياءِ العالَم. وجوابُ ذلك هو أنّ الجهة منفكَّةٌ بين «العقل» وفكرةِ «الأخلاقيات العالميّة»؛ إذ لا طريق ينقُلنا ضرورةً من الشأن الأوّلِ إلى الثاني. بل قل إنّ هذه الملَكاتِ الذهنيّةَ أقربُ إلى تشكيلِ أخلاقيات المحاربين ممّن يُحبُّون الغلَبَةَ والهيمنة على الآخرين. واستخلاصُ هذا النوعِ من الأخلاق الإنسانية العالمية من الملَكات المعرفية البشرية المعقدة يتطلَّب إثباتَ فائدةٍ وظيفية ثابتة تُوفِّرها هذه الأخلاقُ لتحقيق البقاء للفرد. والظاهرُ للعَين هو أنّ الأخلاقياتِ العالميّةَ لا تُوفِّر ذلك بشكلٍ واضح.(1)

ثمّ إنّ تفاوُتَ المدارِك الذهنية بين البشر، والذي يمتَدّ من أقصى العبقريّة إلى أقصى العتَه أو الجنون، وتفاوُتَ شعورِ الناسِ بالألم، بين مَن يعاني أمراضَ الحساسية العاليةِ، والمُصابِ بالجُذام الذي يُفقِده القدرةَ على إحساسِ أطرافه بالألم، كلُّ ذلك يمنَع إقامةَ «فضيلةٍ إنسانية» فوق الحيوانات تبعًا لهذه الملَكات؛ **فقد يفقِد بعضُ البشر هذه الخصائصَ التي أقام عليها الملاحدةُ حقوقَ الإنسان، بل قد تتفوّق بعضُ الحيوانات على طوائفَ من البشر هنا لعِللٍ تصيبهم. فهل سنفضّل إنقاذ ثعلب سليم على إنقاذك لو كنتَ مصابًا بفقد الإحساس في الأطراف، إذا كنّا لا نملك غير حبل واحد لانتشال من جرفهم سيل الطوفان؟!**

(1) Christian Smith, *Atheist Overreach: What Atheism Can't Deliver* (New York, NY: Oxford University Press, 2019), p.62,

وهي المعضلة الإلحاديّة التي عبّر عن بعضها سام هاريس **الملحدُ** بقوله: «المشكلةُ هي أنّ **أيَّ سمةٍ نستخدمها للتمييز بين البشر والحيوانات -الذكاء، واستخدام اللغة، والمشاعر الأخلاقية، وما إلى ذلك- ستُميِّز بالقدْر نفسِه بين البشر أنفسِهم**. فإذا كان البشرُ أكثرَ أهميةً بالنسبة لنا من إنسان الغاب لأنهم قادرون على التعبير عن اهتماماتهم، فلماذا لا يكون البشرُ الأكثرُ نُطقًا أكثرَ أهميةً؟ وماذا عن أولئك الرجال والنساء المساكين الذين يعانون فقدانَ القدرة على الكلام؟ يبدو أننا قد استبعدناهم فورًا من مجتمعنا الأخلاقي».[1]

إنّ عقيدةَ «استثنائيّة الإنسان» «human exceptionalism» لا تقوم على أرضيةٍ أنطولوجية صُلبة، وإنّما هي مُعلَّقةٌ في الفراغ، مُدلّاةٌ من الأعلى فلا أرض تحمِلها، رغم أنّ حقوق الإنسان لا بدّ أن تقوم على أصولٍ ثابتة، أهمُّها أنّ للحياة معنًى، وأنّ لوجود الإنسان غايةً، وأنّ خلْقَ الموجودات قام على التراتُبيّة؛ ففاضلٌ ومفضولٌ، وحقوقٌ مُقدَّمةٌ على أخرى، وتسخيرُ شيءٍ لشيء. والإلحادُ قائمٌ ضرورةً على أنها أرحامٌ تَدفَع وأرضٌ تَبلَع، ولا قيمة لشيء، فكلُّ شيءٍ هو مجرّدُ شيء، أبعادٌ فيزيائيّة لا تُبين؛ لأنه لا معنى يحتاج إلى بيان. ولذلك كان إعلانُ الملاحدةِ موتَ الإله؛ هو ذاتُه إعلانًا لموت الإنسان وحقوقه؛ حتّى كتَب نيتشه -صاحبُ صيحةِ «لقد مات الإله!»- في بيانِ هذا المعنى في قِصّته الفلسفيةِ «هكذا تحدَّث زرادشت»: «قالت الجماهيرُ: ... **نحن جميعًا متساوون**. ما الإنسانُ إلا إنسانٌ، **أمام الله نحن متساوون!**». [فكان الجواب]: «**أمام الله! ولكنّ هذا الإلهَ قد مات الآن!**».[2]

لا تحسَبْ أنّي أسوق هنا خواطرَ شخصيّةً؛ **فإنّي لم أفعلْ شيئًا سوى أنّي أعدْتُ تشغيلَ ساعة الزمان من أوّله في السرد الإلحادي**؛ حتّى لا أخلطَ بين الرؤية الدينية

---

(1) Sam Harris, *The End of Faith: Religion, Terror, and the Future of Reason* (London: The Free Press, 2004) 177-178.

(2) Friedrich Nietzsche, *Thus Spoke Zarathustra*, Tr. Thomas Common (Lulu, 2017), p.167.

التي تبدأ بالله سبحانه، ثم خلْقِ العالَم لحِكمةٍ، وخلْقِ الإنسان لغايةٍ، وتسخيرِ الكون لامتحانه، والرؤيةِ الإلحادية التي تبدأ بالعدَم، وتسير على سِكّة العشوائية، وتنتهي إلى الفناء.

ث. الإلحاد في مواجهةِ حقوق الإنسان

إنّ الرؤية الإلحاديّة لا تستطيع أنْ تمنح الإنسانَ شرفَ «ميثاقِ حقوق الإنسان» لجميع البشر؛ لتكون حقوقُهم فوق حقوق (بقيّة) الحيوانات. بل أقول إنّ الرؤية الإلحادية لا تملك أن تجعل البشرَ جميعًا مُنعَّمين بأصلِ حقوق الإنسان.[1]. تلك حقيقةٌ أقَرّ بها أحدُ نجومِ ملاحدة القرن الحادي والعشرين، يوفال نوح هارري[2]، القائلُ: «**وَفقًا لعِلم البيولوجيا**، لم «يُخلَق» البشرُ. لقد تطوّروا. **وبالتأكيد لم يتطوّروا ليكونوا** «متساوين». **ترتبط فكرةُ المساواة ارتباطًا وثيقًا بفكرة الخلْق**. حصَل الأمريكيون على **فكرة المساواة من المسيحية** التي تقول إنّ لكلِّ إنسانٍ رُوحًا مخلوقةً بصورةٍ مباشِرة، وإنّ جميعَ الناس متساوون أمام الله. ولكنْ إذا كنّا لا نؤمن بالأساطير المسيحية عن الله والخلْق والأرواح، فماذا يعني أنّ جميع الناس خُلِقوا «متساوين»؟ **التطوّرُ قائمٌ على الاختلاف، وليس على المساواة**. كلُّ شخص يحمِل شفرةً جينيةً مختلفة إلى حدٍّ ما، ويتعرَّضُ منذ الولادة لتأثيراتٍ بيئيةٍ مختلفة. وهذا يؤدي إلى تطورِ صفاتٍ مختلفة تحمِل معها فُرصًا مختلفةً للبقاء على قَيد الحياة. لذلك من الواجب ترجمةُ عبارةِ «خُلقوا متساوين» إلى «تطوروا بشكلٍ مختلف»».[3]

بل قُل -إنْ شئتَ- إنّ الإلحاد الداروينيَّ لا بدّ أن ينتهيَ إلى محاربةِ «حقوق الإنسان» نفسِها؛ لأنّ الإلحاد المنافح عن «حقوق الإنسان» يتنكّر لنفسه. وهو ما

(1) إسلاميًّا، يولد الناسُ منعَّمين بحقوق البشر، ثم تتفاوت حقوقهم تبعًا لاعتباراتٍ أخرى مختلفة.

(2) يوفال نوح هراري (1976م-): مؤرّخٌ من الجامعة العبرية في القدس. له حضورٌ إعلاميٌّ شعبيٌّ كبيرٌ.

(3) Yuval Noah Harari, *Sapiens: A Brief History of Humankind* (New York: Harper Perennial, 2018), p.136.

يشرَحه عالِمُ الطب الذي أثَّرت أفكارُه لاحقًا في النازيّين، روبرت كوسمان، بقوله: «نحن نرى أن الرؤية الكونيّة الداروينيةَ يجب أن تعتبِر التصوّرَ العاطفي الحاليَّ لقيمةِ حياة الفرد الإنساني أمرًا مبالغًا فيه، يعوق كليّةً تقدُّمَ الإنسانية. ودولةُ البشر، هي مثل كلِّ مجتمعٍ حيواني، يجب أن تصل إلى مستوًى أعلى من الكمال من **خلال تدمير الفرد الأقلِّ امتيازًا**. فالدولةُ لها مَصلَحةٌ فقط في الحفاظ على الحياة الأكثرِ امتيازًا على حساب الأقلِّ امتيازًا».(1)

إنّ الجماعة الإنسانيّة لا تملك حجّة عقلانيّة أو أخلاقيّة للتنكّر لأخلاق الغابة، وإن لم تكن ملزمة بها -لأنّه في عالم المادة لا معنى للإلزام الأخلاقي أصلًا-. إنّنا في المعجم الدارويني «حيوانات»، وديناميكا الوجود هي الصراع، و«هدف» الحياة الحفاظ على الرصيد الجيني في الأجيال المقبلة. ولذلك انتهى الفيلسوف الأمريكي **الملحد** جيمس ريتشلز James Rachels، والمتخصص في الأخلاقيات وحقوق الحيوان، في كتابه «**مخلوقون من حيوانات: اللوازم الأخلاقيّة للداروينية**» إلى الانتصار إلى أنّ انتماءنا البيولوجي المدين كلّيّة للداروينيّة يُلزمنا أن نتخلّص من المعوّقين ذهنيًا. فقد كتب: « ماذا نقول عنهم؟ إن الاستنتاج الطبيعي، وفقًا للمذهب الذي ندرسه [الداروينية]، هو أنّ [هؤلاء المعوّقين] مجرّد حيوانات، مقامًا. **وربما ينبغي لنا أن نستنتج أنّه من الممكن استخدامهم كما تُستخدم الحيوانات غير البشرية - ربما كمواد مختبرية أو كغذاء**».(2)

وقد شاهدتُ منذ أيام فيديو نال إعجاب مئات الآلاف ممّن حضروه. وفيه امرأة عجوز تلطم وجه رجل -قد شابت لحيته - مرّةً بعد أخرى، والرجل يبعد يدها برفق ليعطيها لقمة من طعام، وهي تشيح بوجهها وترفض أن تأكل، وتلتفت يمينًا وشمالًا

(1) Robert Kossmann, "The Importance of the Life of an Individual in the Darwinian Worldview", 1880 (Cited in R. Weikart, *From Darwin to Hitler Evolutionary Ethics, Eugenics and Racism in Germany*, Palgrave Macmillan, 2016, p.78).

(2) James Rachels, *Created from Animals: The Moral Implications of Darwinism* (New York: Oxford University Press, 1990), p.186.

دون داع بنظرات ذاهلة عن المكان حولها. هذه العجوز هي أمّ هذا الرجل الصبور. ويبدو أنّه قد أصابها الخَرَف (Dementia)، فهي لا تتذكّر أبناءها، ولا تُحسن الكلام، ولا التفاعل الطبيعي مع البيئة حولها.

ما قيمة هذا العجوز إلحاديًا؟ إنّها عبء بيولوجي على البشريّة التي تكافح من أجل البقاء. وتحوّلهُا إلى سماد، أقرب «نفعًا» للكائنات الحيّة الأخرى. هي «حيوان» لا يلتذّ بالحياة، ولا يورث غيره نفعًا ماديًا. والوفاء للميراث الجيني الدارويني في ابنها، موجب أن يعاجل بدفنها دون انتظار موتها.. ولكنّه لن يفعل ذلك إلّا إذا استطاع أن يلغي من صدره ما نقشه الله -سبحانه- فيه من إقرار بكرامة الإنسان الاستثنائية، وأنّ قيمة الحياة أكبر من مطلب البقاء، وأعظم من تحقيق النفع المادي. إنّ جمال فعل هذا الرجل كامن في معاني لا تدركها الرؤية الداروينية الغابيّة، وهي الحبّ، والوفاء، والإيثار، والعطاء بلا منّ.. وهي معان لا تأتلف مع لغة الصراع والأَثَرة. إنّك لن تملك أن تُدين هذا الرجل إن أسلم أمّه لنواهش الأيّام ولواذعها، إلّا عندما ترى للإنسان قيمة في ذاته.

إنّ الانتخاب الطبيعيَّ آليّةٌ طبيعية، من مظاهرها التنافسُ بين الكائنات الحيّة على الموارد الطبيعيّة. فالتنافسُ هو المظهر الأساسيُّ لعَلاقةِ هذه الكائنات فيما بينها. وفي فَورة الصراع اللاهث إلى الفوز بأسباب الحياة في هذه الطبيعة القاسية، سيكون هلاكُ الفقراء والكسالى والمرضى والمقعَدين ومرضى التوحّد وفقر الدم والصداع المزمن، رحمةً بالأقوياء؛ فثروةُ الطبيعة هدفٌ تُداس في سبيل الظفَر به كلُّ معاني الرحمة. واستدعاءُ معاني الشفقة والتآخي والإيثار العالميِّ هنا، خيانةٌ لقانون الطبيعة، والتجاءٌ إلى معانٍ فوق طبيعيّةٍ تدُسّ في وعي الإنسان فكرةَ «المساواةِ الآدميّة».

وقولي للملاحدة إنّ «حقوق الإنسان» مفهومٌ ديني ضرورةً، ليس من بنات أفكاري ولا من قدْحِ أذهان الذين يريدون طمْسَ الإلحاد أو اختلاقَ ما يُنصَر به الإيمانُ.. ليس

الأمرُ كذلك؛ فقد سبَق بيانُ وجوب القول بالاصطفاء والتسخير الإلهيين حتى تكون للإنسان حقوقٌ. فهذا الفيلسوفُ **الملحد** ريتشارد رورتي Richard Rorty يوضحّ لنا أنّ مفهوم «حقوق الإنسان» متعارِضٌ بصورةٍ جوهرية مع جوهر الطبيعة الحيّة، والتي هي غرْبَلَةُ الوجود؛ ليسقُط غيرُ القادر على التأقلم مع الحياة، دون اعتبارٍ لأيّ مُعطًى أخلاقيٍّ. فقد قال: «**يعود مفهومُ حقوق الإنسان إلى الادعاءات الدينية بأنّ البشر مخلوقون على صورة الله**[1]».[2] ولذلك **اعترَف** أنه يعُدّ نفسَه في المسألة الأخلاقية ملحدًا مستفيدًا مجانًا من الدين «A free–loading atheist»!![3]

ولعله يحسُن بي أن أختِم الكلامَ مع مَن يتشكّك في حقيقةِ ما أقوله في الإلحاد، أيْ نفيه الصارم لشيءٍ اسمُه «حقوق الإنسان»، أن أنقُل كلمةً أخرى ليوفال نوح هارري **الملحد** ساقها في حديثه الشهيرِ على مِنصّةِ «TED talk»: «**حقوق الإنسان** هي أمرٌ مثل الجنّةِ والإله، **مجرّدُ قصّةٍ خيالية اخترعناها** وأذعنا خبرَها. قد تكون قصّةً لطيفة للغاية. قد تكون قصةً جذّابة للغاية. نحن نريد تصديقَها، لكنّها لا تعدو أن تكون قصّةً، وما هي بحقيقة. إنها ليست حقيقةً بيولوجية. تمامًا كما أن قناديل البحر ونقّارَ الخشب والنعامَ بلا حقوقٍ، **فكذلك الإنسانُ العاقل ليست له حقوقٌ أيضًا**. خذوا إنسانًا وشقُّوه وانظروا داخله. ستجدون دمَه، وستجدون القلبَ والرئتين والكُلْيتَين، لكنّكم لن تجدوا أيَّ حقوقٍ. المكانُ الوحيد الذي تجدون فيه **الحقوقَ هو في القصص الخيالية التي اخترعها البشرُ** ونشروها في الأرجاء».[4]

---

(1) وافق يوفال نوح هاراري رورتي على ردِّه الأمرَ إلى الاعتبار الديني، وإنْ كان قد جعَله يعود إلى مسألة التكليف الديني التي يُعاقَب المخلُّ بها لا أنّ الإنسان خُلِق على صورة الله. فالإنسانُ صاحبُ إرادةٍ حرّة؛ لأنه مكلَّف، لا لأنه قد خُلِق على صورة الله.

(2) Richard Rorty, "Moral Universalism and Economic Triage," presented at the Second UNESCO Philosophy Forum, Paris, 1996. Reprinted in Diogenes, vol. 44, issue 173 (1996). Cited in: Nancy Pearcey, *Finding Truth. 5 Principles for Unmasking Atheism, Secularism, and Other God Substitutes* (Colorado Springs: David C. Cook, 2015 , p.225.

(3) Ibid.

(4) https://www.str.org/w/atheist-says-human-rights-aren-t-real

إنّ الإنسان تحت مِجهر الإلحاد، عظم وغضاريف ولحم ودم وأعصاب وجلد...، ولا شيء غير ذلك، ولا شيء فوق ذلك؛ ولذلك **فالحديثُ الإلحادي عن «حقوق الإنسان»، خرافةٌ وسخافة**.. وأمّا الإنسانُ تحت مِجهر القرآن، فهو كائنٌ خُلِق من ماءٍ مَهِين، جعله اللهُ سبحانه -رغم ذلك- رأسَ مخلوقاته، وسخَّر له الكونَ، وأسبَغ عليه نعمةَ التكريم؛ فحقوقُه حقٌ معلوم، وثَلْمُها بسيف البغي شرٌ مُدان.

الإنسانُ، دون الإيمان بالله، مجرّدُ لطخةٍ كيميائية -كما هي عبارةُ الفيزيائي الملحد ستيفن هاوكنج-، أو بهيمةٍ غابيّة الأصل -كما هو تأصيلُ الداروينية-.. فلا إنسان عندها، ولا حقوق يطلبها تبعًا لذلك.

الرؤية الإلحاديّة لتاريخ الإنسان وتفسير بنيته النفسية جينيًّا تردّنا إلى أخلاق الغابة.

2. لا أخلاقَ [موضوعية] دون إله

يقول الملحد:

الأخلاقُ حُجّةٌ للإلحاد من وجهين:

الوجه الأول: النظر الأخلاقيُّ في الكون لا بدّ أن ينتهيَ إلى نُصرة الإلحاد؛ فإنّ هذا الكونَ فيه شرورٌ كثيرة؛ بما يمنع أن يكون هذا الكونُ قد خلَقه إلهٌ رحيم. وهذا الاعتراض الإلحاديُّ على الإيمان بالله، هو المسمَّى فلسفيًّا «مشكلةَ الشر»، وهي المشكلةُ التي تُعتبَر الحجةَ الإلحادية الأولى اليومَ.

الوجه الثاني: لا حاجة إلى الَدين حتى يكون المرءُ صالحًا، بل الإيمانُ بإلهٍ سببٌ لإيذاء البشر، خاصةً الأقليات؛ فالدينُ دائمًا في خدمة الأغلبية الدينيّة التي تستعمله لإيذاء المخالفين. وطريقُ الوصول إلى الأخلاق هو اعتمادُ قاعدةِ فلسفة الأخلاق النفعية: «قَبول كلِّ فعْلٍ يحقق أعظمَ نفْعٍ لأكبرِ عددٍ من الناس». والأخلاقُ النفعية النافعة لا تتحقق إلّا بالإلحاد.

قلتُ:

كلُّ ما استدلّ به الملحدُ لإثباتِ صحّة الإلحاد على أساس الأخلاق والألم، ليس حجّةً له؛ بل هو حجّةٌ للإيمان بالله بأوضحِ سبيل. بل أقول أكثرَ من ذلك:

1- الأخلاقُ أبرَزُ دليلٍ على وجود الله في الجدل الإيماني الإلحادي في القرنين الماضي والحالي. وقد عاد إلى الإيمان كثيرٌ من كبار المفكّرين الغربيين بسبب المسألة الأخلاقية التي لا تنفَكّ عن الإيمان بالله.

2- ظلْمُ الأقليات لازمٌ لأبرَزِ نظريةٍ في «ما وراء الأخلاق» «metaethics»[1] يعتنِقها عامةُ الملاحدة، وهي الأخلاقُ النفعيّة، ولا سبيل لإنصاف الأقليّاتِ إلا بقاعدةٍ أخلاقية إيمانية.

3- ظاهرةُ الألم، هي أوضحُ «شرورِ» العالَم، وهي -مع ذلك- تدعونا إلى التدبُّر في عظَمة الله سبحانه وحكمتِه، لا رفضِ وجوده -جلّ وعلا-.

وذاك ما يأتي في التفصيل التالي:

أ. حاجة مشكلة الشر إلى وجود الله

الأخلاقُ التي يُقِيم عليها الملحدُ مشكلةَ الشر، ويُدِين بسببها الدينَ والمتدينين، ليست هي -بداهةً- الأخلاقَ الذاتية subjective morality، فالأخلاقُ الذاتية هي أخلاقٌ ذوقية في حقيقتها؛ فقد أستملِح أنا شيئًا وأرفُض آخَرَ لأنّ هواي وافَق ذاك الحُكم، وليس لي أن أجعل محْضَ هواي حجةً على الناس. ولذلك فالأخلاقُ التي يجوز للملحد أن يُقِيم عليها حجتَه للإلحاد ضد الإيمان والمؤمنين، هي الأخلاقُ الموضوعية objective morality، والتي هي الأخلاق المُلزِمةُ لنا وإنْ لم نلتزِم بها، والتي يجوز أن تكون حجّةً على المخالف لنا، سواءٌ عمِل بها أم لم يعمَلْ بها، والتي

(1) Metaethics : فرعٌ معرفي فلسفي يهتم بدراسةِ طبيعة الأحكام الأخلاقية وأصولها.

هي حقيقةٌ كونية حتّى قبل خلْق البشر. فلا سبيل لأحدٍ أن يُنكِر على قاتلٍ أو لص إنْ كانت إدانتُه قائمةً على أنّ هذه الأمورَ ينفِر منها ذَوقُه لا أنها قبيحةٌ في ذاتها.

يرى المسلِمُ أنّ الأخلاق موضوعيةٌ ضرورةً؛ لأنّ الأخلاق في الإسلام تقوم على الأصول التالية:

- خُلِق الإنسانُ على صورةٍ نفسيّةٍ سويّة تنحو إلى الخير وتنفِر من الشر. فأصولُ المعرفة الأخلاقية منحوتةٌ في فطرته؛ وبالمحافظة على الإيمان الحق، يحفَظ الإنسانُ استواءَ معرفته الأولى وطُهرَها. قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [التين/ 4-6].
- جعَل اللهُ -سبحانه- المعرفةَ الأخلاقية المنحوتة في صدور المؤمنين والكافرين سبيلًا لتمييز الدين الحقِّ من غيره. قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾ [الشمس/ 7-8].
- المنظومةُ الأخلاقية في عالَم الأحياء قائمةٌ على تسخير الكون المادي له؛ تكريمًا واختبارًا. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء/ 70].
- الإنسانُ لا يستقِلّ بمعرفةِ كلِّ المسائل الأخلاقية. فالمعرفةُ الكاملة لله وحده؛ ولذلك يحتاج الإنسانُ إلى عَون الوحي ليُدرِك دقيقَ الأمرِ الأخلاقي، وإنْ أدرَك جوهرَه.
- فطرةُ الإنسان المدرِكةُ للخير والشر قد تتشوَّه بفِعل الجهل، والإعراضِ عن الحق، والهوى. وقد كان من دعاء الرسول صلّى الله عليه وسلّم: «اللهم ربَّ جِبرائيلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ، فاطرَ السّمواتِ والأرضِ، عالِمَ الغيبِ والشهادةِ، أنتَ تحكُمُ بين عبادِك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدِني لِما اختُلِف فيه من الحق بإذنك؛ إنك تهدي مَن تشاءُ إلى صراطٍ مستقيم».[1]

(1) رواه مسلم، كتابُ صلاة المسافرين وقصرها، باب الدُّعاء في صلاة الليل وقيامِه، (ح/ 770).

ففلسفةُ الأخلاق في الإسلام[1] ترفُض «نظريةَ الأمر الإلهي» «Divine command theory» التي تنفي أنّ تكون للأخلاق حقيقةٌ خارج اختيارِ الإله لها، فلا حقيقة ذاتية لها قبحًا وحُسنًا[2]، وإنّما هو الاختيارُ الإلهي الذي يجعَل الشيءَ قبيحًا أو حسَنًا، كما يرفُض الإسلامُ المذهبَ النفعي الذي يعتنِقه عامةُ الملاحدة، والذي لا يرى هو أيضًا للأخلاق حقيقةً استقلاليّة ولا وجودًا موضوعيًّا؛ فالحَسَنُ هو ما نفَع أكبرَ طائفةٍ من الناس في سياقٍ ما، والشرُّ ما آذى أكبرَ طائفةٍ من الناس في سياقٍ آخَرَ.

إنّ الحِسَّ الأخلاقي الإلحاديَّ، مُجرَّدُ أثَرٍ عرَضيٍّ للتطوّر البيولوجيِّ، فليست له حقيقةٌ في نفسِه، ولا أصل له غيرُ العَرَضِ المادي الحيويِّ. وهو ما يشرَحه فيلسوفُ العلوم **الملحدُ** مايكل روس بعبارةٍ سديدة، بقوله عمّن يتبّنى الرؤيةَ التطوريّة البيولوجيّةَ: «موقفُ التطوريِّ الحديث هو أنّ البشرَ لديهم وعيٌ بالأخلاق... لأنّ مثلَ هذا الوعي له قيمةٌ بيولوجية. فالأخلاقُ **تكيُّفٌ بيولوجي** biological adaptation لا يقِلّ عن الأيدي والأرجل والأسنان.... تُعتبر **الأخلاقُ وهمًا**؛ بالنظر إلى أنها مجموعةٌ من الادعاءات المبرَّرة عقلانيًّا حول شيءٍ موضوعي... فالأخلاقُ هي أثَرٌ عرَضيٌّ لعملية التطور، تمامًا كغيرها من التكيُّفات الأخرى. وليس لها أيُّ وجودٍ أو كينونةٍ وراء ذلك. **وأيُّ معنًى أعمقَ من ذلك هو وهمٌ**».[3]

إنّ الطبيعانية المادية والداروينية العشوائية قد أسقطتا الأخلاقَ من سماء الحقيقة إلى حضيض النسبيّة والحافز البيولوجي والاختيار الذوقي. فلا «أخلاق» عندها، وإنّما غرائزُ واستملاحاتٌ. إنّنا إذن أمام خيارين:

(1) أهل الحديث وعامة مذاهب أهل القبلة على هذا الرفض. وراجِع في هذا الجدلِ كتابَ الإمام ابن القيم: «شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل».

(2) من أنصار هذا المذهب من اختار صياغةً تجعل هذه النظريّة تقوم على طبيعة الكمال الإلهي؛ ولذلك فهي عندهم -على هذا التقرير- غير اعتباطيّة.

(3) Michael Ruse, *The Darwinian paradigm: essays on its history, philosophy, and religious implications* (London: Routledge, 1989), pp.261-262, 269.

1- الإيمان بالله والأخلاق.

2- الإيمان بالطبيعانيّة والتطوّر العشوائي والعدميّة الأخلاقية.

إنّ الأخلاق لا تكون موضوعيّةً إلّا بالإيمان بالله، كما هو اعترافُ كثيرٍ من فلاسفة الإلحاد. ومن أوضح هذه الاعترافات قولُ جون بول سارتر[1] Jean-Paul Sartre- فيلسوفِ الوجودية الملحدة- في كتابه التأسيسيّ للوجوديّة، والذي صنَع أجيالًا من الملحدين في الغرب والشرق على مدى عامةِ عقود القرن الماضي: «**يعتقِد الوجوديُّ** أنه من المُحرِج جدًّا أنّ الله غيرُ موجود؛ إذ إنه **تختفي مع اختفاء الإله أيُّ إمكانيةٍ لإيجادِ قِيَم في سماءٍ واضحة**».[2] كما قال سارتر في آخِرِ حياته: «**لقد احتفظْتُ في مجال الأخلاق بشيءٍ متعلّقٍ بوجود الله، وهو الخير والشرُّ كمُطلَقَين. فالنتيجةُ الطبيعيّة للإلحاد هي إلغاء الخير والشر، وذاك نوعٌ من النسبيّة**».[3].

وهنا على الملحد أن يقِف وقفةَ تأمُّلٍ أمام نفسِه مع اعترافِ سارتر. لقد كانت فلسفةُ الوجودية الملحدة أقوى فكرةٍ فلسفية في القرن الماضي تسعى إلى محاولة الالتزام بالإلحاد عند صناعة الرؤية الكونية أو اكتشافِها؛ فقد كانت على مبدأٍ أوّلي عدميٍّ في جوهره، وفاءً لعدمية الوجود، وهو أنّ الوجود يسبِق الماهيةَ؛ فليس للأشياء معنًى أوّليٌّ، وإنّما الأشياء هي الحقيقة المبدئية، وهذا الوجودُ هو الذي يصنَع ماهيّتَه. ولازمُ هذا الوجودِ المادي الصِّرف ألّا يستمِدَّ أيُّ شيءٍ حقيقتَه من خارجه؛ فوجودُه المادي وحده هو الذي يصنَع ماهيتَه. ولكنّ سارتر خذَل هذه الرؤيةَ الإلحادية الجريئة في طلب التناسق الداخلي لمقولاته، من جهتين، الجهة الأولى: أنه آمن بالأخلاق التي لا تكون إلّا عن إيمانٍ بالله، والجهة الأخرى: أنه جعَل الوجوديةَ الملحدة

(1) جون بول سارتر (1322-1400هـ/ 1905-1980م): فيلسوفٌ وروائيٌّ فرنسيٌّ. الرمزُ الأوّل للوجوديّة الملحدة في القرن 14هـ/ 20م. أكّد في فلسفته صناعةَ الإنسان نفسه في وجودٍ بلا معنى. كان له حضورٌ سياسيٌّ تقلّب فيهِ بين أكثرَ من موقف. مُنح جائزةَ نوبل للآداب لكنّه رفَض استلامَها.

(2) Sartre, *L'Existentialisme est un Humanisme* (Paris, Nagel, 1947), pp.35-36.

(3) Simone de Beauvoir, *La Cérémonie des Adieux* (Paris: Gallimard, 1981), p.551.

أخلاقيّةً في جوهرها؛ فقد خاض أنصارُها معاركَ أخلاقيةً كثيرةً ضد ما رأَوه ظُلمًا في هذا العالَم.

إنّ سارتر الذي لا نبالغ إنْ قلنا إنه أبرزُ فيلسوفٍ إلحادي -ولا أقول «ملحد»، فقد أقام فلسفتَه على الإلحاد، ولم يكن الإلحاد فكرةً هامشية في حياته- في القرن الماضي، يشاركنا القولَ بصراحةٍ عجيبة إنّ الأخلاق حجّةٌ لوجود الله؛ لأنّ الإيمان بالله هو الأصل الذي تُبنى عليه الأخلاقُ. ولا شكّ أنّنا نقصِد هنا بعبارةِ «الأخلاقِ» «الأخلاقَ الموضوعية» لا الأخلاقَ الذاتية أو الذوقية...

إنّ الانقطاع الكليّ بين الإلحاد والأخلاق الموضوعية هو الذي دفَع جويل ماركس Joel Marks [1] -الفيلسوفَ **الملحد** والنشيط جدًا هذه الأيامَ- أن يُلزِم نفسَه بالإقرار بأنّ إلحاده يمنعه أن يكون مؤمنًا بأنّ للإلحاد حقيقةً. وقد قال شارحًا «توبتَه» من الإلحاد الزائف إلى الإلحاد «الأصيل»: «لقد أصبحتُ مقتنعًا بأنّ الإلحاد يعني ضِمنًا اللاأخلاقيةَ amorality؛ **وبما أنني ملحدٌ، فلا بد لي من ثَمّ من تبنّي اللاأخلاقيةِ**. أنا أسمّي فرضيّةَ هذه الحجةِ «الإلحادَ الصُّلب»... أمّا «الملحدُ الناعم»، فيرى أنه يمكن للمرء أن يكون ملحدًا ويؤمنَ بالأخلاق في الوقت نفسِه. وبالفعل، فإنّ جميع «الملاحدة الجدد» هم من هذا النوع من الملحدين الناعمين. **وكذلك كنتُ أنا، إلى أنْ عشتُ الإلهامَ الصادم بأنّ الأصوليين المتدينين على حقٍّ: بدون الله، لا توجد أخلاقٌ**».[2]

ونحن في المقابل نقول: إنّ موضوعية الأخلاق مسألةٌ فطرية، لا سبيل لردِّها بواقع الحال، وإنْ عارَضها باللسان أهلُ الجدال. والجدلُ الأكبر هنا ليس في القول بفِطريتها؛ فقد يذهَب الدارونيُّ إلى «فِطريّتها» بمعنى أنها مزروعةٌ فيه جينيًّا منذ أجداده القدماء (وإنْ كان التفسير الدارويني هنا متناقضًا؛ لأنّ سلَفنا حيواناتٌ ضاريَة!)، وإنّما

(1) جويل ماركس Joel Marks: عمِل أستاذًا للفلسفة في جامعةِ «نيو هافن». له عنايةٌ بفلسفة علم النفس وعلمِ الأخلاقيات.

(2) Joel Marks, "An Amoral Manifesto, Part 1," *Philosophy Now*, Aug/Sep. 2010 <http://www. philosophynow.org/issue80/80marks.htm>

الجدلُ هو في حجيّةِ هذه النزعة الفِطريّة؛ ففي غيابِ إلهٍ خلَق الإنسانَ على فِطرةٍ سويّة، وجعلَها حجّةً للاهتداء، يمتنع أن يكون للأخلاق الموضوعية وجودٌ.

واستسلامُ الملحد الدارويني لفِطرته التي رُسمت معالمُها في الغابة التي أمضى فيها أسلافُنا ملايين السنين، يُلزِمه بيولوجيًّا ألّا يتنكَّر لحقيقته، وأن يستسلِم لنابه الغابي، وقانونِ بقاء الأصلح، وأن يَدِين الدينَ الذي يدعوه إلى إعلاءِ صوت الرحمة. وقد وجدْنا من الملاحدة الداروينيين الصادقين في التصالح مع هذه «الحقيقة الإلحاديّة» هفيلوك إليس Havelock Ellis -الطبيبَ وعالِمَ النفس و«المصلحَ الاجتماعيَّ»- القائلَ: «لا يزال هناك مكانٌ في الأخلاق للقتل، حتى عندما تُلغَى الحربُ تمامًا... أيْ قتْل غيرِ الصالحين...... لقد تمّ سَوقُنا إلى رفْض الوأد. **نحن نعلم في قَرارةِ أنفسنا أننا لا نرفُض وأدَ الأطفال إلا بدافع الخرافة الغريبة [الدين]**».(1)

إنّ الطابع الأخلاقي للإنسان، صميميّ بصورة بالغة؛ فمن انتزع من ظاهر وعيه الإيمان بالله، لن يستطيع أن ينتزع من نفسه عامة ما ينجم عن هذا الإيمان. أو بالعبارة الفجّة لعالم النفس **الأمريكي** الملحد جيسي بيرنغ Jesse Bering: «من زاوية التفكير، يُعتبر الله جزءًا أصيلًا في أنظمتنا المعرفية الطبيعية، وتخليص أنفسنا منه -بشكل حقيقي وشامل ونهائي وإزالته من رؤوسنا- **يتطلب جرّاح أعصاب لا مدرّس علوم**».(2) والحقيقة هي أكبر من ذلك؛ فإنّ الإيمان -من ناحيةٍ ظاهرة أو خفيّة- هو الضمانة الوحيدة لأن يكون لما نراه معنى، ولأن يحتفظ المرء بإنسانيّته، والتي من أهمّها، التسليم بحقيقة الخير والشرّ وجودًا، والإقرار بعلوّ الخير على الشرّ قيمةً.

وجود «الشرّ الموضوعي» الذي يحتجّ به الملحد لإنكار وجود الله، لا يصحّ وجوده دون وجود الله. فالإلحاد ينفي وجود الله بما هو حجّة لوجوده -سبحانه-!

(1) Cited in: Moshe Averick, *Nonsense of a High Order: The Confused World of Modern Atheism* (Mosaica Press, 2016), p.224.

(2) Jesse Bering, *The Belief Instinct: The Psychology of Souls, Destiny, and the Meaning of Life* (New York: Norton, 2011), p.200.

ب. الشرور مرايا الخير

لماذا يَسأل دائمًا كلٌّ من المؤمن والملحد عن الحكمة من الشر -وإنِ اختلفَت إجابتاهما لاحقًا-؟

الجوابُ، ببساطةٍ شديدة، هو أنهما يسألان عن بعضِ مظاهر النشوز في هذا الكون المغموس غمْسًا في الخير. ولو أنّ هذا الوجودَ كان كلُّه شرًّا، أو كان الغالبُ عليه الشرَّ؛ لتوجَّه الجميع إلى السؤال عن سبب الخير لا الشرِّ؛ فإنّ كونًا بلا معنًى، ومجمعَ الفوضى والقبْحِ، لا تُثِير فيه الأحداثُ الفردية امتعاضَ أحدٍ، كما أنّ السمكة لا تنتفِض لأنّ ذيلَها قد ابتَلّ!

إنّ الشرّ الذي يَسأل الجميعُ عن الحكمة من ورائه، يمثّل الاستثناءَ في كونٍ جميلةٍ مناظرُه، وعذْبةٍ فواكهُه، ومليحةٍ أزهارُه، ومنعشةٍ أنسامُه، وساحرةٍ سماؤه. ولن يُنصِف الملاحدةُ الحقَّ حتّى يسألوا عن أصل الخير والشرّ؛ فالخيرُ نفسُه يحتاج إلى تفسير. والخيرُ هو كلُّ ما عدا هذا الشرِّ المحصور عددًا؛ ولذلك قال أحدهم عبارةً مستفِزّة، لكنّها صادقةٌ: «يجب على المؤمن بالله أنْ يُفسِّر شيئًا واحدًا، وهو وجود الآلام، أما غيرُ المؤمن فيجب أن يُفسِّر وجودَ كلِّ شيءٍ آخَرَ» « The believer in God must explain one thing, the existence of sufferings; the nonbeliever, however, must explain the existence of everything else ».

وبعبارةٍ تُوافِق طبيعةَ موضوع الكتاب الذي بين يديك، أقول:

إنّ الشرّ الذي يتّخذه الملحد حجّةً للانتصار للإلحاد، هو بطبيعته وحجمه دالٌّ على أنّ الخير هو الأصل في هذا الكون؛ فإنّنا -عادةً- لا نعرف الشرَّ إلّا بالخير، ولا الخيرَ إلّا بالشر؛ فمن طبيعة الإنسان أنه -عادةً- إذا لم يُجرِّب النقائضَ، لم ينتبهْ إلى طبيعةِ ما يرى أو يحسّ؛ فتناقضُ الأشياء مُورِثٌ للعلم بطبيعتها؛ فالصحيحُ غارقٌ في نعمة العافية حتّى إنه لا يُدرِك حقيقتَها إلا عند فقْدِها، والثريُّ الذي وُلِد ومِلعقةٌ من

ذهَبٍ في فمه، لا يُكبِر نعمةَ المال إلّا عند فقدِه، والمنعَّمُ بكثرة الأهل والأصحاب، لا تعظُم في عينه هذه النعمةُ إلا عند فِراقِهم.

ثم إنّ الألم واللذّة لا يولدان مفترقين في حياتنا، وإنّما هما أشبه بالتوأمين، بينهما تلازم غريب. فمتعة الاسترخاء على الفراش، وإسلام النفس إلى النوم، بعد يوم شاق من العمل، غير متعة الاسترخاء بعد يوم بلا مشقّة، ومتعة الاستحمام بالماء الساخن في نهاية يوم متعب، غير الاستحمام للتطهّر.(1) وفي هذا التلازم بين منتهى اللذّة ومنتهى الألم؛ دلالة على أنّ الألم كلّما اشتدّ، كان أملك للقدرة على الدلالة على مساحات مجهولة من اللذّة في هذا العالم.

فالشرّ حجّةٌ للإيمان من جهةٍ تنبيهنا إلى كثرةِ أوجُه النعم واللذائذ والفوائد في ما هو حولنا، من الثمرة الدانية إلى السماء العالية. ولا تفسير لما في هذا الكون من فوائدَ ولذائذَ كثيرةٍ وغامرة؛ إلّا وجودُ مُنعِمٍ كريم، خلَق الكونَ على هذه الصورة. فإنّ العشوائية شحيحةٌ، لا تمنَح الناسَ جوائزَ وعطايا؛ فالمُعدَمُ عارٍ عن فضيلة الكرم. وقد نبّه القرآن إلى هذه النعم في قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦﴾ [النحل/ 5-6]. فجمال الدواب الذي يريح النفس ويبهجها، خيرٌ زائد عن الحاجة الأساسيّة للحياة؛ ولذلك لا سبيل لتفسيره داروينيًا، كما أنّه ليس من الصفات اللازمة للمادة؛ وذاك ما فهمه فريق ممّن فسّروا قوله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ﴾ [فاطر/ 1]. وهو ما يُلزم الملحد أن يراه معضلة تحتاج تفسيرًا في منظومته التفسيريّة الطبيعانيّة.

مشكلة الخير، معضلة واسعة الأطراف تكشفها مشكلة الشرّ الضيّقة.

(1) Paul Brand and Philip Yancey, *The Gift of Pain: Why we hurt and what we can do about it* (Grand Rapids, MI: Zondervan/HarperCollins, 1997), pp.299-300.

ت. الألم دليلُنا إلى الحكيم الرحيم

لا شكّ أنّ الألم شعورٌ بغيض إلى النفس. ولستُ أجادل في ذلك؛ فإنّي لا أتلذّذ بصداع الرأس أو وجع الضرس أو التواءِ الكاحل.. ولكنّني مع ذلك أقول لك إنّ الألم يقود ضرورةً إلى رفض الإلحاد وقَبولِ الإيمان من وجهين:

- وجود الألم وطبيعته.
- طبيعة الجهاز العصبي.

وجود الألم وطبيعته:

لا أدري إنْ كنتَ مثلِي أيّامَ طفولتي، تحلُم أن يكون جسمك «مُعافًى» من الشعور بالألم. ربما ذهَب خيالُك أيّامَ طفولتك إلى أنّنا بدون ألم سنكون سعداءَ، أشبهَ بالسوبرمان؛ نخوض كلَّ المخاطر دون وجعٍ، ونلعَبُ في الحَواري بلا كلل، ونسقُطُ في الملاعب ونُجرَحُ ولا جزَع، ونُضرَبُ بالعِصي دون أن يدفَعنا الوجع إلى الأنين والتأوُّه. طفولةٌ بلا ألم، حُلمٌ وردي.. ولكنّها أوهامُ الطفولة الغِرّة..

إنّني أجد نفسي اليومَ موافقًا -بلا ترددٍ- بول براند Paul Brand -أحدَ رُوادِ جراحةِ تقويم الأعضاء لمرضى الجُذام، والذي أمضى نِصفَ تاريخه العلميِّ الأولَ في الهند، ونِصفَه الثانيَ في الولايات المتحدة الأمريكية- في اختياره «هِبَة الألم» عنوانًا لكتابه الماتع؛ فالألمُ رسالةٌ عاقلة إلى كلِّ مَن يرى التوجُّعَ مُصيبةً يجب التخلُّصُ منها. وأوافقه -بلا تردُّدٍ- على قوله إنّ أعظم ما يُمكِن أنْ يُقدِّمه للناس هو الشعور بالألم.

لا تحسَبْ أنّ الدكتور براند ساديٌّ يتلذَّذ بتعذيب الآخَرين، أو مازوخيٌّ يتلذَّذ بتعذيب نفسِه، وإنّما هو رجلٌ عاش حياتَه يبحَث عن طريقٍ لعلاج مَن فقدوا نعمةَ الإحساس بالألم وهلكَت أبدانُهم بذلك. هو رجلٌ متخصص في معالجة مَن أصيبوا بمرض الجذام الذي تفقِد الأطرافُ فيه الإحساسَ بالألم. وبسببِ فُقدانِ هذه الحاسّةِ،

تُجرَحُ الأطرافُ ويُثخِنُ فيها الأذى والمرضُ، دون أن ينتبه المريضُ بالجذام، ثم يكتشِف لاحقًا أن أصابعه في حاجةٍ إلى بتْر، ورجلَه في حاجةٍ إلى قطْع؛ فقد بلَغ ما أصابه من أذًى أنّه لا بدّ من التخلص من بعضِ جسده حتى لا يتمدّدَ الأذى بصورةٍ أوسع.(1)

وفي كتاب «هِبَة الألم» قصص كثيرة لمن ابتُلوا بفقد نعمة التألّم، لا أظنّها ستغادر ذاكرة القارئ؛ إذ هي مآسٍ بطيئة تجري فصولها أمام العين دون قدرة على إسدال ستار نهايتها من على مسرح الوجيعة ومن أبرز ما «يشعر» به فاقد الإحساس بالألم، فقده انتماء بعض جسده إليه؛ فإنّ الأعصاب موزّعة على الجلد بشكل يوفّر نوعًا من الوعي «بحدود الذات». وفقدان الإحساس يدمّر تلك الحدود. حتّى قال أحد الأطفال للدكتور براند: «لا أشعر أنّ يدي وقدمي جزء مني. هي مثل الأدوات التي أستطيع استخدامها. لكنها ليست أنا حقًا. أستطيع رؤيتها، لكنّها في عقلي ميتة.» وهي شكوى تكرّرت على مسامع صاحب «هبة الألم» مرارًا من هؤلاء المرضى.(2)

ومن عجائب الألم أنّه يرعانا رعاية الصديق، ويخاطبنا بلغة المحبّ، وإنْ أيقظنا من غفوة هانئة، أو استدرّ منّا الدمع بضغط الوجع الشديد، أو أسلمنا إلى الغيبوبة عند اشتداد المعاناة؛ فإنّ الألم -كما قيل- يبدأ في مراسلة وعينا بعبارة خفيفة مهذّبة عندما يكون الخطر خفيفًا، ثم تشتد رسائله وتخشوشن لهجته إذا صار الخطر أعظم؛ حتّى إذا كان الخطر مهدّدًا للحياة بالتّلف، صار الوجع شديدًا إلى درجة تمنع المرء النوم أو تفقده الوعي. فالوجع كلّما اشتدّ، عاجَلنا إلى المعالجة. والألم بذلك ليس إلّا بابًا من أبواب رحمة الله؛ فهو الصاحب في محنة الأدواء التي تصيبنا، وليس طفرة عشوائية عمياء تنخسنا حين المرض لإمتاع ساديّتها.

(1) صدَر تعريبُ كتابِ «هبة الألم» عن مركزِ تكوين، بهذا العنوان نفسِه. ولخَّصتُ أهمَّ ما جاء فيه مما يتعلّق بمسألة الإيمان والإلحاد، في كتابي «مشكلة الشر ووجود الله».

(2) Paul Brand and Philip Yancey, *The Gift of Pain*, p.126.

وطبيعة الإيذاء والاستمرار في الألم، أبرز ما يُظهر الحكمة في خلق حاسة التألّم -كما يقول براند-؛ فإنّ الشعور البغيض الذي يورثه الإحساس بالألم لصاحبه، هو المنبّه للخطر. واستمرار الألم، والعجز عن كتمه بضغطة زر، هو الذي يستحثنا أن نتحرّك سعيًا إلى طلب الشفاء من الوصب.[1] **ولذلك فما يحتاجه البشر، ليس هو «التخلّص» من الألم لأنّه شرّ خالص، وإنّما هو إرهاف السمع إليه، والعمل بنصيحته.**[2] فالألم كيفما قلّبته، رأيت فيه آثار الحكمة المتعالية على عبثيّة الطبيعة وعماها.

> «ما زلتُ أجد صعوبة في تبليغ أهميّة الألم للأشخاص الذين ليس لديهم مثل هذا العيب. الألم حقًا هو الهديّة التي لا يريدها أحد. لا أستطيع أن أفكر في شيء أعظم قيمة لأولئك الذين يعانون من انعدام الألم الخلقي، والجذام، والسكّري، والاضطرابات الأخرى للأعصاب. إنّ الأشخاص الذين يمتلكون بالفعل هذه الهدية، نادرًا ما يقدّرونها حقّ قدرها. بل هم عادة يكرهونها.»
>
> **الدكتور بول براند**

طبيعة الجهاز العصبي:

لقد كنتُ في طفولتي لا أرى في الألم سوى ذاك المنغّص للحظاتِ الصفو وساعاتِ السَّكينة. كنتُ مثل نيوتن ومَن سبقوه، لا يُثيرني مشهَدُ سقوطِ تِفاحةٍ على الأرض[3]؛ لأنّ التفاحة لا بد أنْ تسقُط لا أنْ تطير، ثم تبيَّن لي أنها ليست بدهياتٍ، وإنّما هي أمور في حاجةٍ إلى تفسير. إنّ الشعور بالألم ممكنٌ من الممكنات؛ فلماذا ظهَر؟ لقد كان من الممكن أن يوجَد الإنسانُ في عالَم العبث دون إحساسٍ بالألم. وكان بذلك سيسير إلى الاندثار؛ لأنّ عدد الأناسيّ القليلَ سيمنَع هذا الكائنَ من الاستمرار في التناسل؛ لكثرة الوَفَيات في جنسٍ من الخلْق يسير في الأحراش كثيرًا؛ حتّى إنّ الجروح في جسده فاشيةٌ.

(1) Ibid., pp.191-193.

(2) Ibid., p.190.

(3) قصة التفّاحة لا تصحّ تاريخيًا.

يتّفق المؤمنون والملاحدة على أنّ الجهاز العصبي لا يُمكِن تفسيرُ وجوده إلا بأحدِ طريقين: حكمة إلهية -أيْ تصميم «ذكي» كما هو الاصطلاحُ الشائع اليومَ- أو عشوائية. والقولُ بالعشوائية يواجه مشكلتين اثنتين، وهما أنّ وجود الجهاز العصبي نفسه أمرٌ عجيب، لأنه ليس من ضروراتِ طبيعة المادة الصمّاءِ ولا الخليّةِ الحيّة، وأنّ الجهاز العصبي على درجةٍ من الإتقان والتعقيد تجعَل الإيمانَ بالنشأة التطورية العشوائية للجهاز العصبي أشدَّ عُسرًا على العقل غيرِ الدوغمائي من الإيمان بالمعجزة: الخلْق الإلهي لهذا الجهاز.

وقد ناقش بعضَ ذلك جيوفري سِمونز Geoffrey Simmons -رئيسُ الأكاديمية الأمريكية لطب الكوارث- بقوله: «إنّ جِلدَنا وأحشاءنا الداخليةَ مبطّنةٌ بشبكةٍ عصبيّة غيرِ مرئيةٍ ومتطورةٍ للغاية وانتقائيةٍ ومنظَّمةٍ. وليس من قَبيل المصادفة أنّ أماكنَ مختلفةً من الجسم هي أكثرُ حساسيّةً من غيرها، بما في ذلك الشفتان والحواف الخارجيةُ للأعضاء الجنسية والشرَجِ؛ وقد يكون لأجزاءٍ مختلفةٍ من الجسم مستقبِلاتٌ مختلفة، مثل الدماغ الذي لا يشعُر بالألم.

لا يُمكِن تفسيرُ أيِّ شيءٍ في نظامنا العصبيِّ بمليارات الحوادث العَرَضيّة، أيْ مزيج من الطفَرات والانتخابِ الطبيعي. إذا كنتَ تعتقِد أنه كان هناك ما يكفي من الوقت منذ تكوين الأرض لإنجاز هذه التغييرات، فعليك إذن أنْ تنتبه إلى أنّ عدد التغييرات المطلوبة أكثرُ من عدد الأيام في 4.5 ملياراتِ سنةٍ».[1]

وأمْرُ الصنعة الحكيمة للجهاز العصبي ظاهرٌ في ما هو أدنى من ذلك؛ فإنّ كلَّ محاولات الاستعاضة عن الجهاز العصبي الطبيعي بآلاتٍ قد أظهرَت أنّ «أبسط» صفات الجهاز العصبي، فيها من الحكمة والإتقان ما يجعَل الاختراعاتِ البشريةَ

(1) Geoffrey Simmons, Darwin Double-Crossed: The Design of the Human Nervous System, Evolution news. 27 June 2019. <https://evolutionnews.org/2019/06/darwin-double-crossed-the-design-of-the-human-nervous-system/>.

الطبيّة أشبهَ بالعبث المثير للرِّثاء؛ فقد اخترَع العلماءُ قُفازًا لتنبيه فاقدي الإحساس إلى الخطر، وأنفقوا لذلك الأموالَ والأوقاتِ والمخططاتِ والتجاربَ، ولم تتجاوز المنبِّهاتُ في القُفاز الواحد عشرين منبِّهًا، في حين أنّ يد الوليد تخرُج إلى الوجود وفي طرَف الإصبع الواحد ألفُ منبِّهٍ عصبي.[1]

إنّ «صورة تمدُّدِ الأعصاب إلى كلِّ نقطةٍ في بدننا، ذاتُ نظام باهر، والطريقةُ التي تحمِل بها هذه الأسلاكُ الأوامرَ والمعلوماتِ معجزةٌ. ورغم كثافةِ تدفُّق البيانات إلا أنه لا يحدُث البتةَ التباسٌ، وتصِل كلُّ رسالةٍ بدقةٍ إلى وجهتها»[2]، بل حتى دموعُ الحزن المعبِّرةُ عن وجعِنا الشديدِ كشَف العلمُ لها فوائدَ صحيةً ونفسية، ليس أقلُّها طرْدَ السُّموم من البدن.[3]

والناظر -مثلًا- في الحساسيّة العالية للعين من أدنى أعراض الأذى؛ سيلاحظ أنّ فقد نعمة التحسّس العالي من الممكن أن ينتهي إلى عمى الإنسان. وهذا ما يقع فعلًا لكثير من المبتلين بمرض الجذام؛ فإنّ الإنسان يحمي عينه من خلال ردّة الفعل الرمشي التي هي إحدى عجائب الخلق؛ إذ لا توجد مستقبلات ألم أكثر حساسية من تلك الموجودة على سطح العين؛ فهي تنبّهك إلى الأجسام الغريبة وإن دقّت، مثل ذرّة الغبار، ممّا يؤدّي إلى استجابة عضلية فورية بسحب غطاء جلدي واق فوق العين الضعيفة، وحبس أي جزيئات غريبة.[4]

كما أنّ ردّة الفعل الرمشي المتقطع، بفتح الجفن وإغلاقه كل قرابة عشرين ثانية، تضمن بقاء العين رطبة؛ فإنّ المزيج العجيب من «الزيت» والمخاط والسائل المائي

---

(1) Paul Brand and Philip Yancey, *The Gift of Pain,* p.197.

(2) Gerald Schroeder, *The Hidden Face of God: How science reveals the ultimate truth* (New York: The Free Press, 2001), p. 89.

(3) قام علماءُ في مركز طبي بولاية مينسوتا بأمريكا بمقارنة الدموع الناتجة من التعرض للبصل من طرفِ عددٍ من المتطوعين بدموعٍ ناتجة من التّأثّر بأفلام حزينة، وكشفَت المقارنةُ بين نوعَي الدمع أنّ الدمع العاطفيَّ يضُم موادَّ بيولوجيةً سامةً أكثرَ من الدّموع الأخرى (Tom Kovach, "Tear Toxins," Omni, December 1982).

(4) Paul Brand and Philip Yancey, *The Gift of Pain*, p.145.

-الدموع- يوفّر للقرنيّة إمدادًا مستمرًا من التغذية والتنظيف. وبدون هذا الترطيب، يجف سطح القرنيّة، ويصبح أكثر عرضة للتقرّح والتلف.[1]

وبسبب الجذام، يفقد كثيرون الحاجة إلى الرمش أو القدرة على ذلك؛ ولذلك ينامون بعيون مفتوحة، لتجفّ القرنيّة إثر ذلك، وتُتلف البكتيريا مستقبلات الألم الحساسة التي تثير الرمش. ولتخفيف الضرر، يلجأ الأطباء إلى استخدام الخيط والإبرة، بخياطة الجفون العلوية والسفلية بإحكام معًا في الزوايا، مبقين فتحة صغيرة في المنتصف للسماح بالرؤية.[2]

ولا تقف دلالة الألم على الخالق عند أهميّة الألم لحفظ النفس، وإنّما تتجاوز ذلك إلى طريقة تفاعل البدن مع الألم لتخفيفه؛ فهناك أكثر من آليّة عجيبة، ومنها ما يفعله الدوبامين dopamine، فهو يقوم بتخفيف الألم بأكثر من طريقة، ومنها أنّه يثبّط مسارات الألم في الدماغ؛ ممّا يضعف إدراك الشخص للإشارات العصبية التي تحمل رسالة الألم، كما أنّه يقلّل من الالتهاب المساهم في صناعة الألم، بل يزيد على ذلك بتقديم خدمة «نظام المكافأة» لتحمّل الألم.. والدوبامين عالم عجيب؛ حتّى أُلّفت فيه كتب في السنوات الأخيرة، مثل «The Dopamine Brain» للطبيبة النفسية أناستاسيا رونيس Anastasia Hronis، و«Your Brain on Dopamine: Heal Your Overstimulated Brain, Master Your Cravings, and Find Purpose and Meaning in a World of Distraction» للباحث المتخصص في علم الأعصاب ماثيو ريد Matthew Reed و«Dopamine Nation» لعالمة النفس أنّا لبك Anna Lembke.

إنّ الألم حجّة باهرة تشهد للإيمان... و﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾ [الذاريات/ 21]

(1) Ibid.

(2) Ibid, pp.146-147.

ث. الشر دليلٌ على الله واجب الوجود

الأشياءُ من جهة الوجود على ثلاثةِ أصناف، لا رابع لها:

1- واجب الوجود، وهو الذي ينجُم عن افتراضِ غيرِ وجوده (=عدمِه) مُحالٌ عقلي.

2- ممكن الوجود، وهو الذي متى افتُرِض وجودُه أو عدمُه، لم يلزَمْ من ذلك مُحالٌ عقلي.

3- المحال، وهو الذي ينجُم عن افتراضِ وجودِه مُحالٌ عقلي.[1]

وهذا الكونُ الذي نعيش في أنحائه ليس هو بمُحال الوجود؛ لأنه موجودٌ فعلًا، ولا هو بواجب الوجود؛ لأنه لا يمتنِع عقلًا أن لا يوجد. فلم يبقَ إلّا القولُ إنه ممكنُ الوجود. ومن أهمِّ أوجُه الدلالة على أنه ممكنُ الوجود، وجودُ النقص فيه، متمثّلًا في ما فيه من شرّ؛ فإنّ طبيعة الإمكان لا الوجوبِ في هذا الوجود، تطرَح على العقل سؤالًا أوّليًا، وجوهريًّا: لماذا كان هذا الشيءُ، ولم يكن عدمُه؟ أيْ: ما الذي رجَّح وجودَه على عدمه؟ فإنّ تصوُّرَ عدمِ وجوده لا يلزَم منه إشكالٌ.

قد يُقال جوابًا عن السؤال السابق: إنّ ممكنًا آخَرَ هو سببُ وجودِ كوننا. ولكنْ سيقفِز السؤالُ السابق هنا أيضًا، ليواجهَنا بعبارةٍ: فما سببُ وجودِ هذا الممكن الثاني؟ فإنْ أجبْنا بممكنٍ آخَرَ، لاحقَنا السؤالُ نفسُه بلا كلل. ولا سبيل للتوقُّف إلّا بجوابٍ واحد، وهو: أوّلُ هذه السلسلة، واجبُ الوجود الذي لا تفسير لوجوده إلّا نفسُه؛ إذ إنّ عدمَه مُورِثٌ للتناقضات. وهذا هو الذي يسمّيه علماءُ العقيدة والفلاسفةُ «الإلهَ». وهذا الدليلُ هو المسمّى «دليلَ الإمكان» Argument from Contingency.

---

(1) انظر ابن سينا، النجاة في الحكمة المنطقية والطبيعية والإلهية (1378هـ/ 1938م، ط2)، ص224-225.

3. لا نجاة للأقليات في الأخلاق النفعية إلا بالإيمان بالله

يتبنّى عامة الملاحدةِ الفلسفةَ الأخلاقيّة النفعيّة Utilitarianism، وفي الآن نفسِه يُقدِّم الملاحدةُ أنفسَهم أنهم الطائفةُ الوحيدة التي تدافِع عن الأقليات، كالأقليات العِرْقية... ولكنْ كيف تأتلِف الأخلاقُ النفعية مع الدفاع عن الأقليات؛ إذا كانت الأخلاقُ النفعيّة ظالمةً ضرورةً للأقليّات؟!

أ. حقيقة المذهب النفعي

يُعَدّ مذهبُ النفعية أشهرَ المذاهب الأخلاقية لمدرسة العاقِبيّة Consequentialism التي تُقرِّر أنّ الحُكم الأخلاقيَّ لا يُعتَدّ فيه إلّا بعاقِبته؛ أيْ ما يؤول إليه الفعلُ، على خلافِ مذهبِ أخلاق الواجب Deontology الذي يرى التمييزَ بين الخير والشرّ متعلِّقًا فقط بالقاعدة الأخلاقية نفسِها، لا ما تنتهي إليه. والمذهبُ النفعي في صورته الأشهرِ، والتي يتبنّاها عامة المدافعين عن الإلحاد في العالَمين العربي والغربي، هو الذي يُقرِّر أنّ الشيء المحمود أخلاقيًّا هو كلُّ فِعلٍ انتهى إلى تقديمِ أعظمِ خيرٍ إلى أكبرِ عددٍ من الناس.

وهذا المذهبُ يواجه معضلةً أُولى هي تعريفُ «الخير». وقد اختلَف النفعيّون في هذا الأمر طرائقَ قِدَدًا، فذهَب جرمي بنثام Jeremy Bentham [1] إلى أنّ الخير هو ما تعلَّق بالإشباع الحسي، والشرَّ ما تعلَّق بالألم، والعِبرةَ في الموازَنة بين حجم اللذة وحجم الألم. وذهَب جون ستيوارت ميل John Stuart Mill [2] إلى أنّ الخير هو ما تعلَّق بإشاعة السعادة بين الناس، وأنّ ذلك قد يتجاوز مطالبَ اللذّة الحسيّة إلى لذّاتٍ أخرى معنويّة، دون الخروج عن مركزيةِ عنصرَي اللذة والألم في معرفة الخير والشرّ؛ فانحاز بذلك إلى اللذيّة الكيفيّة qualitative hedonism على حساب

(1) جرمي بنثام (1161-1247هـ/ 1748-1832م): فيلسوفٌ وقانوني إنجليزي معروف.

(2) جون ستيوارت ميل (1221-1290هـ/ 1806-1873م): فيلسوفٌ وعالم منطق، وعالم اقتصاد بريطانيٌّ معروف.

اللذيّة الكميّة quantitative hedonism البنثاميّة. ولا مُرجِّح بين هذه المذاهب؛ لأنه في غيابِ مفهومٍ أعلى للإنسان، يبقى مفهومُ الخير نسبيًّا بصورةٍ كليّة، وليس للقائل بالمتع الروحية أن يعترِض على القائل بالمتع الحسيّة، ولا يصِحّ الإنكارُ بالعكس أيضًا. وهذا ما يؤكِّد ذوقيّةَ المذهب النفعي في صميميّته.

كما يواجِه مذهبُ النفعيّة معضلةً أخرى؛ وهي معرفةُ عاقبة الأفعال؛ فإنّنا إنْ قُلنا إنّنا سنقبل فقطِ الأفعالَ التي تنتهي إلى الخير الأعظم للعدد الأكبر؛ فهذا يلزَم منه أن نعرِف المآلاتِ النهائيةَ لهذه الأفعال؛ فبعضُ الأفعال التي تبدو نافعةً على المدى القريب، تنتهي إلى كوارثَ أخلاقيةٍ واجتماعيةٍ... إلخ. وهذا ما رأيناه رَأْيَ العين في وُعود الليبرالية في الغرب، والتي قامت على فتحِ مِساحات الحرية لرفع الظلم عن الذين قيّدَتهم حدودُ القانون أو المجتمعِ أو الأعرافِ، ثم انتهَت الليبراليةُ إلى المقدمات الكبرى للفوضى بكلِّ أنواعها. وقد قيل إنّ رفرفةَ فَراشةٍ في ريو دي جانيرو قد تنتهي إلى إحداثِ إعصارٍ في نيويورك. وهذا ما كان في الشأن الأخلاقيِّ في الغرب.

ولن نسترسِل في المعضلات التي تواجِه مذهبَ النفعيّة الذي تشظَّى إلى رؤًى مختلفةٍ، كلٌّ واحدة منها تحاوِل ترقيعَ ما تمزَّق منها بسبب المعارَضات الجوهريّة لأصل الدعوى. وسنكتفي بموضوعِ كتابنا هذا، أيْ ما اتّصل بدلالةِ حجج الإلحاد على نقيضِ مطلبها؛ بإثبات الحاجة إلى الإيمان بالله -سبحانه-. ولنا أن نَسأل هنا عن إمكانِ إقامة العدل بين الناس، إنِ التزمْنا بالأخلاق النفعية.

ب. الأخلاق النفعية، أخلاق ظالمة

قد علِمتَ سابقًا أنّ الأخلاق النفعيّةَ، أخلاقٌ عاقبية، كَميّةٌ؛ تهتم بالخير الأكثرِ للعدد الأكبرِ. والتصوُّرُ العملي لمآلاتِ هذا المذهب هو وُجوبُ ظُلم الأقليات أو التضحيةِ بهم خدمةً للأغلبية، عند تعارُضِ المصلحتين. وهنا قد نَسأل الملحدَ: لماذا

تعترِض على الأغلبية البيضاء في أمريكا في بداية القرن الماضي بأنها عنصريةٌ لأنها ترى جوازَ إذلال السود بلا رحمة، وتمنَعُهم من الجلوس على الكراسيِّ في الحافلات في حضرة البِيض، وتطرُدُهم من الجامعات إلّا أن يكونوا في حماية الشرطة؟!

وماذا لو أنّك كنتَ في جزيرة مع جماعة من الحاصلين على نوبل في العلوم، وأصابتهم كلّهم أمراض لا نجاة منها إلّا زرع قلب وكبد وأعضاء أخرى تَلَفَت فيهم، وكنتَ أنتَ فقط السليم على هذه الجزيرة؛ فهل ترضى أن يُقطَع رأسك، ويمزّق جسدك وتوزّع أعضاؤك عليهم؛ لأنّهم أنفع للبشريّة منك في باب المعارف والاختراعات، أم أنّ الحرمة الآدميّة تتساوى بينكم؟!

إنّ المذهب النفعيَّ، باختصارٍ، مقالةٌ أخلاقيّة لا بد أن تنتهيَ إلى تسويغ العنصريّة، لأنه يجعَل المعيارَ هو الأغلبيةَ التي يسير معها حيث تسير. وهو ما يُعارض دعوى الملاحدة أنه لا سبيل للخروج من طغيان الأغلبيات المتديّنة وغيرها إلا بالأخلاق النفعية الإنسانويّة. إنّ المذهب النفعيَّ ينتهي إلى إحياءِ قانون الغابة؛ فالقطيعُ الأقوى له سلطانُ النِّكاية في الضعفاء، على أيِّ صورةٍ أراد، إذا كان ذلك يجلِب لهم متعةً أو يصرِف عنهم أذًى.

كما تجعَل النفعيّةُ السلوكَ الأخلاقيَّ الرذيلَ مُباحًا، وترفَع عن المرء شُعورَ التأثُّم والحرَج؛ لأنّ **المطلب الأعلى هو تحقيقُ النفع لا إقامةُ العدل، ومعاملةُ كلِّ فردٍ وجماعة بما يستحقان**. وربْطُ مفهومِ النفع باللذة والألم، ينتهي إلى السُّفول بمعنى الآدميّة إلى درَكِ البهائميّة التي لا تعْبأُ بالمُثل العُليا؛ إذ البهائمُ تتحرَّك بالحافز الغريزي الدائر بين اللذة والألم، بل ربّما كان عند الحيوانات نزوعٌ للإيثارِ يتجاوز حتّى المنطقَ النفعيَّ نفسَه (وإنْ كان علماءُ سُلوكِ الحيوانات يردُّون ذلك إلى مفهومٍ نفعيٍّ في خِتام الأمر؛ لِحفظ النوع).

كما أنّ تجاوز قيمة «النيّة» في الحكم على الأفعال؛ سيجعل عطيّة من يسعف

محتاجًا، كهديّة من يطلب من غيره نوالًا؛ فلا فرق بين الكريم صاحب النجدة والانتهازي. وذاك ما يطمس أجمل شيء في الإنسان، وهو حُسن قصده في فعل الخيرات.

والحقُّ هو أنه لا سبيل للدفاع عن الإنسان إلّا بالإيمان بإلهٍ خلَق البشرَ بحقوقٍ متساويةٍ في أصل الخِلْقة، ثم جعَل التفاضُلَ لاحقًا باعتباراتٍ أخرى ليس منها الجنسُ واللون والكثرة. فطلبُ إنصاف الأقليّات لا يقوم بالأخلاقية النفعية التي يحبّذها عامة الملاحدة، وإنّما يقوم على مقدمةٍ أُولى، أصلُها أنّ الإنسان قد خُلِق في الأصل مُكرَّمًا بالتكريم الإلهي، وأنّ حقوقَه مصونةٌ ولو تعارضَت مع مصلحة الجماعة. وفي الحديث النبوي: «لو أنّ أهلَ السَّماءِ وأهلَ الأرضِ اشتركوا في دمِ مؤمنٍ لأكبَّهمُ اللَّهُ في النَّارِ».[1]

والتزامُ مذهب النفعيّة بوّابةٌ لإلغاءِ حقيقة الإنسان، والتطبيعِ مع الأمراض النفسيّة باعتبارها حقوقًا شرعيّةً؛ فإنّ المذهب النفعيَّ يجعَل نفسَه أسيرًا لثقافةِ كلِّ عصر، ويجعَل المجتمعات التي تَشيع فيها الأمراض النفسية والسلوكياتُ الشنيعة، خاضعةً لسلطانِ هؤلاء المرضى. ومن ذلك وأْدُ البنات الذي كان منتشرًا في الحضارات القديمة، خوفَ العار أو طلبًا لذريّةٍ من الذُّكور للحراثة والأعمال الشاقة. فالمذهبُ العاقبي لا يهتم بأصل الفعل، ولا نيّةِ الفاعل، وإنّما العبرةُ فيه بالنتائجِ وحدها.

إنّ النفعيّة لم تأتِ بجديد؛ فهي ليست دعوى «تقدّميّة» في مسيرة تطوّريّة صاعدة؛ فقد ردّتنا إلى مذهب اللذّيّة الإبيقوري[2] القديم، في أشنع صور الإبيقوريّة، خاصة أنّ الملحد النفعيَّ دارو ينيٌّ ضرورة -لعدم انفكاك الإلحاد عن التفسير الدارويني لعالم

(1) رواه الترمذي، كتاب الديات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب الحُكم في الدماء، (ح/ 1398). صحّحه الألباني.

(2) الإبيقورية Epicureanism: فلسفة تُنسب إلى إبيقور الفيلسوف اليوناني الذي عاش في حدود القرن الرابع قبل الميلاد. وهي تقوم على أنّ السعادة تُنال بتحقيق المتع وتجنّب الآلام الجسديّة والأذى النفسي.

الطبيعة الحيّة-. ولذلك كتب الفيلسوف ويليام أ. دمسكي William A. Dembski [1] في تقديمه لكتاب «الداروينيّة الأخلاقيّة: كيف أصبحنا لِذِّيين»: «**إنّ أبرز تلاميذ إبيقور هو بلا شك تشارلز داروين.** فالداروينية ليست أحدث تجسيد للفلسفة الإبيقورية فحسب، بل هي أيضًا **أقوى صياغة لتلك الفلسفة حتى الآن**. وتكمن أهميّة الداروينية في التسويغ المزعوم الذي تقدّمه للفلسفة الإبيقورية، لكنّ هذا العلم نفسه ضعيف ومرتجل. وكما يوضح ويكر Wiker، [2] فإنّ الداروينية هي في الأساس حملة دينيّة أخلاقية وميتافيزيقية... والدافع وراء الداروينية اليوم هو **رؤيتها الأخلاقية** والميتافيزيقية البديلة وليس الترويج للعلم.»[3]

ت. حاجة المذهب النفعي إلى الإيمان بالله

قد يفِرّ الملحدُ القائل بالمذهب النفعيِّ إلى القول إنّنا سنجعل معيارًا فوق معيار الكثرة، وهو أنه ليس للأغلبية أن تختار ما يخالِف حقوقَ الإنسان الأساسيةَ؛ فلا يُمكِن أن يكون اغتصابُ الرضَّع حقًّا في مجتمعٍ غالِبُه من الشواذِّ جنسيًّا، ولا يحِقّ للأغلبية الصِّهْيَونيّة أن تُبيد سكّانَ القُدْس المسلمين والنصارى؛ لتحرمَهم حقَّ الحياة.

وهذا الحلُّ الذي يقول به كثيرٌ من أنصار النفعيّة عندما يواجَهون بلُزوم استباحةِ دماءِ الأقليات وأموالِهم وأعراضِهم، **لا يُخرِج الملاحدةَ من مأزِقهم، وإنّما يؤكِّد الحاجةَ إلى الإيمان بالله لا الإلحادِ**؛ إذ إنه يردُّنا إلى المسألة الأُولى، وهي **وجودُ حقوقٍ طبيعيةٍ للإنسان لا يجُوز المساسُ بها، أصلُها الكرامةُ الاستثنائية للإنسان**. وقد علِمتَ أنّ هذه الحقوقَ لا توجَد إلّا بوجودِ الله -سبحانه-، كما سبَق تفصيلُه.

---

(1) ويليام دمسكي (1380هـ/ 1960م-): عالِمُ رياضياتٍ وفيلسوفٌ أمريكيٌّ. من أعلام مدرسة «التّصميم الذَّكِيِّ». له عنايةٌ خاصّةٌ بنقض إمكان تَحَقُّقِ ظواهِرِ التّصميمِ بصورةٍ عشوائيّةٍ.

(2) مؤلّف كتاب «الداروينية الأخلاقية»

(3) William A. Dembski, Foreword, in Benjamin Wiker, *Moral Darwinism: How we became hedonists* (Downers Grove, Ill.: InterVarsity Press, 2002), p.11.

إنّ هذا المعيار الإضافيَّ في حقيقته يعود بالنقض على المذهب النفعيِّ، ولا «يُرقِّعُه»؛ إذ إنّنا عندما نقول بشرعيّةِ حقوقٍ لا يجوز المساس بها، ولو كان المساسُ بها يخدُم الأغلبيةَ؛ **فذاك لا يعني وجودَ معيارٍ ثانٍ بالإضافة إلى المعيار النفعي الصِّرف، وإنّما يعني وجودَ معيارٍ واحدٍ فقط**، وهو الحقوق الطبيعية للإنسان، والتي لا يجوز المساس بها. وهذه الحقوق نفسُها هي **أصلٌ لا بد من تفريعِ بقيّة الحقوق عنه**، لتكون هي وحدها الحاكمةَ. فلا يمكن أن نقبَل أخلاقًا موضوعية، هي الأخلاق الطبيعية (والتي أصلُها الإيمانُ بإلهٍ خالق، خلَق الإنسانَ وأكرمه)، والأخلاقُ النسبيّة للمجتمع في الآن نفسِه؛ لأنّ **التعارض لازمٌ لاجتماعهما معًا**، باتّفاق الجميع؛ لاختلافهما المعلومِ في أصولٍ وفروعٍ.

إنقاذ المذهب النفعي من ظلمه للإنسان، لا يكون إلّا باستدعاء معان دينية في فهم الإنسان وقيمته؛ بما ينتهي إلى إلزام الملحد بالإيمان بالله للإيمان بالإنسان وحقوقه.

ثمّ إنّ الإصرار على وجوب الاحتكام إلى الأخلاق النفعيّة، يُلزِمنا أن نَسأل عن سببِ تفضيل المذهب النفعي العاقبيِّ على مذهب الأنانية النفعي Ethical egoism المتناغمِ بيُسرٍ مع الرؤية الطبيعانية والداروينيّة لخلْق الإنسان. إنّ علينا هنا أن نَسأل الملحدَ: لمَ علينا أن نُفضِّل نفعَ أكبرِ عددٍ ممكنٍ من الناس على حساب النفع الذاتي؟! فإذا كانت العِبرةُ بميزانَي اللذة والألم، فلمَ عليَّ أن أجعل لذّةَ الجماعة مُقدَّمةً على حاجتي إلى اللذّة؟! ولمَ يكون ألمي أدنى أهميّةً من ألم الجماعة؟! وإذا كان الوجودُ بلا غايةٍ، والحياةُ قصيرةً بلا عاقبةٍ في آخِرَةٍ، واللذاذةُ في هذه الدنيا قصيرةً؛ فلمَ على المرء أن يترُك مصلحتَه الخاصة إلى المصلحة العامة؟!

وإذا أراد الملحد أن يكون أعظم وفاءً للماديّة التي يعتنقها، فلنا أن نسأله عندها عن سبب رفضه لمذهب الانفعاليّة Emotivism الذي يقرّر أنّ الأحكام الأخلاقيّة لا تعكس تقريرات متعلّقة بالواقع، وإنّما هي مجرّد تعبير عن المشاعر؛ فهي **محض**

انفعالات صادرة عن ذاتٍ، **لا تمسّ الواقع بشيء**؛ ولذلك **لا توصَف بأنّها صواب أو خطأ**. لا شكّ أنّ هذا المذهب يخالف المستقرّ في وعينا عند إظهار المدح أو الشجب أو الثلب، إلّا أنّه بنزعِه الطابع القيَمي للموقف الأخلاقي، يوافق جوهر الرؤية الإلحاديّة التي لا تعترف لغير المادة بحقيقة الوجود.

ولعل طلبنا من الملحد الإنصاف الأعلى في الوفاء للعدمية الإلحادية؛ يقتضي أن نلزمه أن يتابع ج.ل. ماكي J. L. Mackie [1]-أحد أشهر ملاحدة القرن الماضي وخصوم المؤمنين- مذهبه «Error Theory» المعروف، والقائل إنّ **كلّ الأحكام الأخلاقية خطأ**، لا بمعنى أنّها لم تنصف الحقيقة في الحكم، وإنّما بمعنى **أنّ الحكم الأخلاقي بذاته متعلّق بواقع موضوعي لا يحمل وصفًا أخلاقيًا**. فالواقع بريء من الصفة الأخلاقيّة، وإسقاط الحكم الأخلاقيّ عليه خطأ، أيًّا كان هذا الحكم. **فالحكم الأخلاقي على أفعال الناس بالمدح أو القدح، هو أشبه بوصف ألوانِ شيءٍ شفّاف بلا لون**؛ فكلّ لون تختاره وصفًا له، خطأ.

إنّها بحقّ محنة الإلحاد... وقد قيل لنا إنّ الأديب الروسيَّ ليو تولستوي Leo Tolstoy قد وضَع[2] قاعدةً عظيمة للتمييز بين مراتب الناس، بقوله: «إذا شعرتَ بالألم، فأنتَ حيٌّ، وإذا شعرتَ بألم الآخرين؛ فأنت إنسانٌ»، ولكنّ هذا التنبيهَ الجميل الشاعريَّ لا محلّ له في الرؤية الطبيعانية الداروينية؛ فالإنسانُ هو كائنٌ بيولوجيٌّ له 46 كروموسومًا، وطبائعُ فيزيولوجيةٌ خاصةٌ في مجموعها، كانتصاب القامة، والقدرةِ على التعرُّق، والدماغِ الكبير.... ولا توجَد حقيقةٌ للإنسان فوق ذلك؛ فالرحمةُ لن تَزيدَه شيئًا، والإيثارُ لن يرفعَه شِبرًا، والشدّةُ لن تسلُبَه أصلًا، والشحُّ لن يَهويَ به درَكًا. الإنسانُ في كلِّ حاله هو الإنسان؛ لأنه لا يملك إلّا أن يكون ذلك الحيوانَ، بمواصفاته الفيزيائيةِ المعروفة.

---

(1) ج.ل. ماكي (1335-1401هـ/ 1917-1981م): فيلسوف أسترالي معروف. له عناية بفلسفة الدين وفلسفة الأخلاق.

(2) نِسبة هذه العبارة إلى تولستوي محلُّ نظر؛ فقد قيل إنها لا تظهَر في مؤلفاته المعروفة.

إنّ تحقيق البقاء أطْولَ مُدّةٍ هو المطلب الوحيد، سواءٌ قلنا بقاءَ الفرد، أو القبيلة، وأمّا بقاءُ البشرية كلِّها فليس مَطلبًا تعرِفه الطبيعةُ، ولا مُحفِّز له في «الجينات الأنانيّة»؛ فلا معنى عندها لاستحضارِ وهم قواعدَ أخلاقيّةٍ عالمية تُلزِم الإنسانَ نحوَ كلِّ إنسان، وإنْ تناءت الديارُ. فالأخلاقُ الجمعيّة لا تتجاوز في أقصى آفاقها حدودَ القبيلة التي تعيش في لُحمةٍ متّصلة؛ وأما الإسكيمو وساكنو غابات الأمازون؛ فلا مصلحة لأن يأبَه بهم مَن يسكنون القيروانَ أو القاهرةَ أو بغداد؛ بل لعلّ هلاكَ الأمم البشريّة الأخرى التي فيها الأمراضُ المزمِنة -مثلًا- أفضلُ لبقيّة البَشر -من ناحيةٍ داروينيّة-؛ لأنّ انقطاعَ نسْلِها سيساهم في استمرارِ عمليّة التطوّر البيولوجي؛ لينشَأ إنسانٌ أقوى.

إنّ الانتخاب الطبيعيَّ يتعارَض مع مفهومِ «حقوق الإنسان العالميّة»، وواجبِ تداعي البشر لنصرة بعضهم عند الحاجة؛ لأنّ حقوقهم الآدميّةَ متساويةٌ؛ فإنّ التسليم للحقوق العالميّة للإنسان، فرعٌ عن الإذعان لـ ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾. وهو ما عبَّر عنه الفيلسوفُ ر.ز.فريدمان[1] في مقالته «هل «موت الإله» مهمٌّ حقًّا؟»، بقوله: «**بلا دين، ليس بالإمكان إرساءُ أخلاق الرحمة. فمبدأُ احترام الأشخاص ومبدأُ بقاء الأصلح ينقُض أحدُهما الآخَرَ mutually exclusive**».[2]

إنّ الأخلاق الطبيعانية لا سلطان لها على الأغلبية، لتُلزِمَها باحترام الأقليات. فالأخلاقُ الطبيعانية لا تحُول بينك وبين ما تراه وتستملِحُه. يقول عالِمُ الاجتماع كريشتين سميث Christian Smith في كتابه «ما لا يستطيع الإلحادُ بذلَه»: «في الكون الطبيعانيِّ naturalistic universe، لن يكون على الجميع أن يصبحوا متوحِّشين أو أنانيّين ماكرين. قد يرى المرءُ أن يكون حرًّا في أن يختار ببساطةٍ أن يكون إنسانًا مهتمًّا بالآخرين وإنسانويًّا باذلًا نفسَه لأجل غيره. يُمكِن للأخلاق الطبيعيّة أن تتيحَ

---

(1) ر. ز. فريدمان R. Z. Friedman: فيلسوفٌ، درّس في جامعةِ تورنتو. له اهتمامٌ بعلم الأخلاقيات وفلسفة الدين.

(2) R. Z. Friedman, "Does the 'Death of God' Really Matter?" *International Philosophical Quarterly* 23 (1983): 322.

للناس مثلَ هذا الاختيارِ. ولكنْ، مرةً أخرى، **يجب أن يقبَل مثلُ هذا الالتزامِ أيضًا الاختيارَ الاعتباطي، الذاتيَّ، الشخصيَّ. ولا يُمكِن تقديمُ أيِّ تفسيرٍ في حُدود المَذهب الطبيعي عن سببِ تفضيلِ مثل هذا الالتزامِ أو وُجوبِ أن يكون مُلزِمًا للآخرين**. وإذا رغِب الآخرون بدلًا من ذلك في أن يتبنَّوا علمَ تحسين النسل على نطاقٍ واسعٍ، **وثقافةَ البقاء للأصلح بلا رحمة**، فسيكون ذلك مشروعًا **ويُمكِن الدفاعُ عنه أيضًا**. فليس من الواضح لماذا لا يتعيَّن علينا قَبولُ معظمِ أشكال التعبير عن الفكر والعاطفة والإرادة البشرية باعتبارها مشروعةً أخلاقيًّا، في ظلِّ عدمِ وجودِ معيارٍ أخلاقيٍّ يقَع حقيقةً خارج الأفكار والمشاعر والرغبات البشرية، يُمكِن الحُكمُ على تلك الأفكار والمشاعر والرغبات من خلاله».[1]

إنّ الأخلاق النفعيةَ لا تنتصِف لكرامة الإنسان كما هو زعْمُ الملاحدة؛ لأنها قائمةٌ على مراعاةِ هوى الأغلبية لا إقامةِ الحق. فهي مذهبٌ ينتصِر للهوى؛ لأنها تُنكِر وجودَ طبيعةٍ إنسانيةٍ ثابتةٍ فوق مطلب اللذة.

ثم إنّ الإنسان في الرؤية الإلحادية، مجرّدُ حيوانٍ، لا يتميَّز في حقيقته عن غيره إلّا بالطبيعة الكَميّةِ لرصيده الجينيِّ؛ فلِمَ لا تأخُذ القوانينُ التي يُصوِّت لصالحها الملاحدةُ في البرلمانات، سعادةَ الحيوانات، وما تشعُر به من ألم؟ فإنّ كلَّ ما قدَّمه الملاحدةُ لخدمةِ حقوقِ إخوانهم من الحيوانات ضئيلٌ جدًا، بل لا يتجاوز بشيءٍ ما رآه الإنسانُ المؤمن من حقوق للحيوانات، رغم إيمانه أنها مُسخَّرةٌ له في أصل خِلْقتها.

لقد دفع هذا «النفاقُ الإلحاديُّ» بعضَ المخلِصين للرؤية الداروينيّة إلى طلب تأسيسِ أخلاقٍ جديدةٍ أصلُها ما عبَّرَت عنه إنغريد نيوكيرك Ingrid Newkirk – مؤسِّسةُ منظَّمةِ PETA (الناس من أجل المعاملة الأخلاقية للحيوانات[2])، بقولها: «**الجُرَذ**

(1) Christian Smith, *Atheist Overreach: What Atheism Can't Deliver*, p.73.

(2) People for the Ethical Treatment of Animals

هو خِنزيرٌ، وهو كلبٌ، وهو طفلٌ بشري». ولتأكيد هذا المعنى نظَّمَت منظَّمةٌ بيتا في عامِ 2003 حملةً مؤيِّدةً للنباتيين بعنوانِ «الهولوكوست على طبقك»، قارَنت فيها بين ممارسات المزارع الحديثة والهولوكوست النازيِّ، وقارَنت لَوحةٌ أخرى صورًا لسَريرٍ بطابَقَين في معسكرِ اعتقالٍ مع دجاجٍ في أقفاصٍ متدرِّجة، وجعلَت همَّها إثباتَ أنّ قتْل الحيوانات من أجل الطعام يُعادِل بصورةٍ تامة قتْلَ البشر.(1)

إنّ الإيمان بالله يُجيبنا عن أهمِّ سؤالٍ من أسئلةِ علم ما وراء الأخلاق metaethics، وهو «لماذا علينا -نحن والآخرين- أن نكون أخلاقيّين؟»؛ بالقول إنّ الإنسان له كرامةٌ خاصة وهَبها إيّاه خالقٌ كاملٌ في أسمائه وصفاته، سخَّر له الكونَ لرسالته على الأرض ولاختباره. وأمّا النفعيّةُ فلا تملك أيَّ جوابٍ يُخبرنا لمَ على الإنسان أن يتنازَل عن شهوته لأجل الخير الأكبرِ للعدد الأضخم من الناس. أو قُل: إنّ النفعيّة تحتاج إلى الإيمان بالله حتى توجِد مُسوِّغًا لإيثار الفردِ الأغلبيةَ ولو على حسابِ مصلحته الخاصةِ؛ بالقول إنّ مصلحةَ أغلبيّةِ كائناتٍ لها مقامٌ فوق مقام الحيوانات، وكرامةٌ خاصة، أَولى من مصلحةِ فردٍ واحد. **فالنفعيّةُ نفسُها دالةٌ على الإيمان لا الإلحادِ!**

> كلّ فرار إلى الإلحاد على قارب الأخلاق، لا بدّ أن يرسو عند شاطئ الإيمان إذا طلب الملحد إكمال رحلته إلى آخرها.

(1) Andy Steiger and Sheri Hiebert, *Reclaimed: How Jesus Restores Our Humanity in a Dehumanized World* (Grand Rapids: Zondervan, 2020), p.45.

الخلاصة:

- مفهومُ «حقوق الإنسان» فرعٌ عن العلم بحقيقة الإنسان.
- إذا كان الإنسانُ مجرّدَ لَطخةٍ كيميائية، وفرعٍ من البهائم في تاريخ التطوّر العشوائي؛ فلا حقوق للإنسان، كما أنه لا حقوقَ للحجارة والبعوض.
- حقوقُ الإنسان التي يفخَر بها الملاحدة، تقوم ضرورةً على أصل الإيمان بالتكريم الإلهي للإنسان؛ لأنها تقوم على استثنائية الإنسان وحُرمةِ أذيّته.
- اجتهَد الملاحدةُ لتسويغ استثنائية الإنسان في عالَم الطبيعة؛ فاختلفوا في ذلك اختلافاتٍ واسعةً، وكلُّ أقوالهم تعسُّفيةٌ.
- مشكلةُ الشر قائمةٌ على الإقرار بوجودِ شرٍّ موضوعي. والشرُّ والخير الموضوعيان لا سبيل لإثباتهما إلّا بالإقرار بوجود الله.
- الشرُّ دالٌّ على الخير، والخيرُ في هذا الكون عميمٌ. ولا سبيل لتفسيرِ وُجودِ هذا الخير، وفُشُوِّه في وجودٍ عبثي؛ فلزِم القولُ بوجود الله، تفسيرًا لوجود الخير.
- الشرُّ وجهٌ من أوجُهِ نقصِ هذا الكون. والكونُ الناقص ممكنُ الوجود وليس واجبَ الوجود. وممكنُ الوجود محتاجٌ إلى واجب الوجود ليُخرِجَه من العدم إلى الوجود. وذاك هو الله سبحانه.
- وجودُ الألم الذي لا يستغني عنه الإنسانُ لحفظِ نفسِه من الهلاك، والطبيعةُ المتقَنة للجهاز العصبي، يشيران إلى إلهٍ حكيم لا طفَراتٍ عشوائيةٍ عمياءَ.
- هروبُ عامةِ الملاحدة إلى المذهب النفعيِّ لتأسيسِ أخلاقٍ إلحاديةٍ ذاتيةٍ، صيانةً لحقوق الأقليات، فيه تجاهُلٌ لحقيقةِ أنّ المذهب النفعيَّ مؤسَّسٌ على قاعدةِ طغيان الأغلبية وظُلم الأقلية.
- محاولةُ تعديل المذهب النفعي لمنعِ ظُلم الأقليات، ينتهي إلى إعادةِ تأسيس الأخلاق على مبادئَ موضوعيةٍ لا توجَد إلّا بوجود الله.

الخاتمة في عشْرةِ تنبيهاتٍ

1

﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء/ 63].

أراد عُبّاد الأوثان الفتك بإبراهيم عليه السلام لمّا بلغهم أنّه كسر آلهتهم؛ فَقَلَبَ إبراهيم عليه السلام محاكمتهم له مجلسًا لقرع عقولهم بالحق؛ لعلّهم يهتدون؛ وألزمهم فساد دينهم بمعايير العقلاء التي لا يرفضها إلّا عليل الفهم.. وكذلك كلّ مجلس لإدانة الإيمان بالله جلّ وعلا، لا بدّ أن يُقلب إلى محاكمة لكفر الشرك أو الإلحاد. ولا تهولنّك جعجعة التنديد أو الدهريّة؛ فإنّ آفات فساد هذه العقائد ظاهرة في كلّ مفصل منها.

2

قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام/ 112].

لا يُخفي ضجيجُ الطبْل حقيقةَ أنه أجوفُ، وقد يكمُن الأذى والعطَبُ تحت الزينة. ونسبةُ المرءِ نفسَه إلى الفضيلة لا تجعَلُه فاضلًا. وتاريخُ الفكر البشري كلُّه دعوى انتسابٍ إلى فضيلةٍ ما؛ فلن يدافعَ فيلسوفٌ أو لاهوتي أو مُصلح اجتماعيٌّ عن شرٍّ لا تُجمِّله مظاهر الفضيلة من الخارج. والعاقلُ مَن لم ينخدعْ «بزُخرِف القول»؛ واتّسَع نظرُه ليبلُغَ الأصلَ الفلسفي أو الأخلاقيَّ لكلِّ دعوى.

3

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ۝٥٦﴾ [طه/ 56].

دلائلُ الحق لا تَهدي مَن يطلُب ما يُرضيه لا ما يَهديه. وقد تمثَّلَت براهينُ الحقّ أمام فرعَون، ولكنّه كذَّبها رغم أنها شاخصةٌ أمام عينيه، وتكبَّر، رغم أنّ عاقبة المتكبِّر عن الحق هلاكُه. فلا تجزَعْ إنْ رأيتَ معاندًا يتشبَّث برؤيةٍ كونيّة قُدَّت من دخَان الوهم وسراب الأمانيّ. فليس عليك هداهم. فقط، أشِرْ إلى طريق الحقّ وأوضِحْ دلائلَه. وأمّا النجاةُ فلن يبلُغَها مَن لم يطلُبْها بقلْبٍ متلهِّفٍ إلى السلامة. وفي ذلك يقول المثلُ الإنجليزي: «يمكنك أن تقود الحِصانَ إلى الماء؛ لكن لا يمكنك أن تجعَله يشرب». فليس اهتداءُ المرء منوطًا فقط بقيام الحجّة عليه، وظهورِها بلا غبَشٍ. وإنّما لا بد أن يكون في النفْس تشوُّفٌ إلى طلب الحق كما هو، والاستسلام له دونَ مكابرة.

4

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [فاطر/ 42].

سُئِل براتراند راسل: ماذا ستقول لله يومَ القيامة، لو تبيَّن أنّ الإلحاد باطلٌ؟ فأجاب بصَلَفٍ: سأقول له: لم تكن هناك أدلّةٌ كافية لإثباتِ وجودك!

ولا أدري ما هي الأدلّةُ التي كان راسل يطلُبها، وقد عاصر ثورةَ الفيزياء الكونيةِ والبيولوجيا الجزيئيةِ التي هزمَت أسطورةَ العشوائية، وأظهَرت أنّ بصمة الخلْق ظاهرةٌ في كلِّ شيء، من الذرَّة والخليّة إلى مَجرّتنا وما تجاوزها. وكيف يريد دليلًا مقنعًا، وهو الذي أقرَّ أنّ الأخلاق الموضوعية دالةٌ على وجود الله، واعترَف مع ذلك أنه لا يستطيع أن يُقنِع نفسَه بالفكرة اللازمةِ لإلحاده، وهي ذاتيّة الأخلاق[1]؟!

وقال زعيم ملاحدة في هذا العصر، ريتشارد داوكنز: لو رأيتُ تمثالًا يحرّك يده، يحيّيني؛ فلن أقول إنّ هذه خارقة تحتاج تفسيرًا، وإنّما سأقول إنّ احتمال صدور هذه الحركة وإن كان ضئيلًا جدًا في قانون الفيزياء، إلى درجةٍ أنّ عُمرَ الكونِ كلّه لا يكفي لكتابة أَصْفارِ الحسابِ الاحتماليّ له، إلّا أنني سآخذ بهذا التفسير المادي[2].. فهو سيرفض حتّى المعجزات[3]، ولو ظهرت له في أوضح صورة.

لقد تكاثَرت اليومَ دلائلُ الإيمان على صورةٍ مدهشة، ساحرةٍ للألباب، غيرَ أنها لم تَزِد المكابرين إلّا نفورًا دعاهم إلى اختلاقِ فرضياتٍ فيزيائيةٍ غيرِ قابلةٍ للاختبار، ونظرياتٍ بيولوجيةٍ تساوي فرصةُ واقعيتها في علم الاحتمالات الصفرَ الرياضي.

(1) Bertrand Russell, Letter to the *Observer,* 6 October 1957 (Cited in: William Lane Craig, *Reasonable Faith*, Wheaton: Good News Publishers/Crossway Books 2008, p.79).

(2) Richard Dawkins, *The Blind Watchmaker* (New York: W. W. Norton & Company, 1996), pp.159-160.

(3) بعيدًا عن اختلاف الخوارق بين المعجزة والكرامة والاستدراج والحال الشيطاني...

5

﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأنفال/ 32].

قد تبلُغ المكابرةُ بالمرء درجةً تجعله كالمجانين؛ فقد قال أهلُ مكّة سابقًا: يا محمّد، إنْ كان ما تدعونا إليه هو الحقَّ؛ فلا تدْعُ لنا بالفهم والهداية، وإنّما اسأل مَن تعبُدُه أن يَقصِفَنا بحجارةٍ تُبيد خضراءنا أو ائتِنا بعذابٍ شديد!

وفي كلِّ عصرٍ مجانينُه!

6

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ۝١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ۝١٢٥﴾ [التوبة/ 124-125].

لا تَزيد دلائلُ الحقِّ القلبَ العنيد إلّا رِجسًا إلى رجسه؛ فكما أنّ المرءَ إذا وطَّن نفسَه على طلب الحق، أضاء قلبُه واستنار مع كلِّ حجّةٍ يكتسِبها؛ فكذلك يُظلِم قلبُ الكافر المستكبرِ على الحق مع كلِّ حجّةٍ تقوم عليه.

7

﴿ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [يس/ 65]

أيّ ظُلم للنفس وجهلٍ بحقائق الوجود، أعظمُ من أنْ ينحاز الإنسانُ إلى عقيدةٍ تشهَد أدلتُها ضدّها؟!

لقد بلَغ الملحدُ في ظُلمه لنفسه أبلغَ مدًى؛ إذ استكثَر من حجج الله عليه يومَ القيامة؛ فكان الشهودُ ضدّه ظواهرَ الحقّ، وما استدلّ به هو نفسُه لإنكارِ وجود البارئ سبحانه؛ فجمَع على نفسه شهودًا لم يجتمعوا على غيره.. ثم تشهد عليه أعضاؤه التي أراد إرواءها بكلّ رضاب، وإمتاعها باللذّة الحرام!

8

﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧﴾ [نوح/ 7]

الحوارُ الإيماني الإلحادي في الغرب قائمٌ على استرسالِ فريقٍ في الكلام، واحتكارِه للمِنصّات العلميّة والإعلاميّةِ، وكبتِه المخالفين، وسدِّ منافذ البيان أمامهم؛ بدعوى أنه لا حقّ للخرافة في أن تكون طرفًا في نقاشٍ بين العقلاء. لقد صادَر الملاحدةُ حقَّ مَن أنكروا الإيمانَ بخرافية التطور العشوائيّ في الدفاع عن مذهبهم المستدلِّ بما في الكون من نَظْم، واتّهموهم بالدفاع عن العلم الزائف pseudoscience، ومنعوهم من تدريس ما يعتقدون صّحتَه بالشواهد العلمية، وحرموهم من نشْر مقالاتهم في المَجلّات الأكاديميّة المحكّمة، ثم قالوا لهم: لو أنّ لقولكم قيمةً؛ لتصدَّرْتم المِنصّاتِ، ولنشَرَت أبحاثَكم المَجلّاتُ!

يعقِرون بعيرَك، ثم يطلُبون السباقَ!

9

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [لقمان/ 32].

لا يزال الملحدُ يعاني سطوةَ فطرته، تؤزُّه حينَ أزْمةٍ، وتهُزُّه عند محنة، وتوقِظه وقد امتلأ قلبُه خوفًا في ظلمة الغرفة التي يأوي إليها ليخلوَ بنفسه؛ وإنْ كان حين الجدال، عريضَ الدعوى، مُظهِرًا لليقين أنه عليمٌ بما يقول!

10

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمّد/ 17]

قال ابن تيميّة: «فالدّينُ الحقُّ كلّما نظر فيه الناظر، وناظر عنه المُناظر، ظهرت له البراهين، وقويَ به اليقين، وازداد به إيمان المؤمنين، وأشرق نوره في صدور العالمين».[1]

(1) ابن تيميّة، الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح، 1/ 23.

الفهرس

الفهرس

الفهرس

RAWASEKH
رواسخ
دراسات • نشر • توزيع